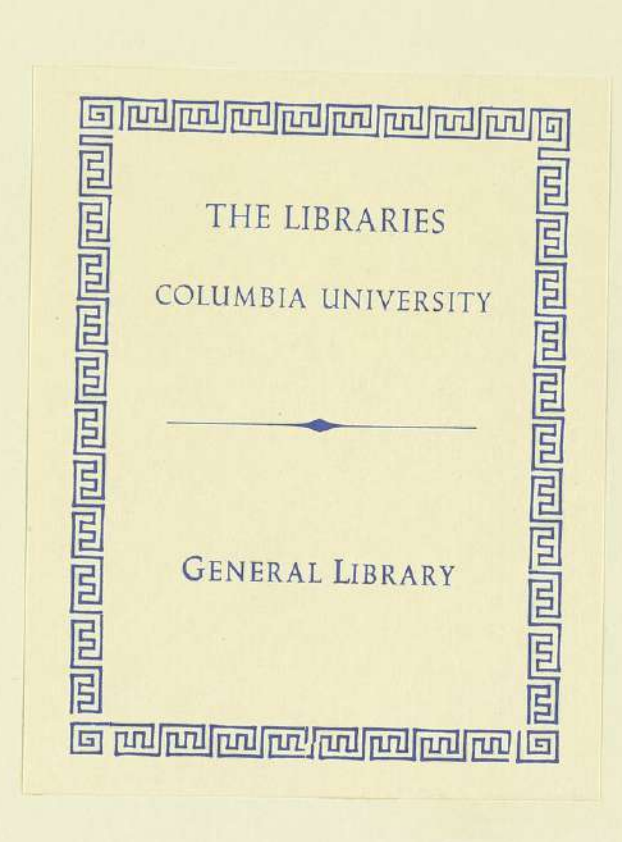



THE LIBRARIES
COLUMBIA UNIVERSITY
GENERAL LIBRARY



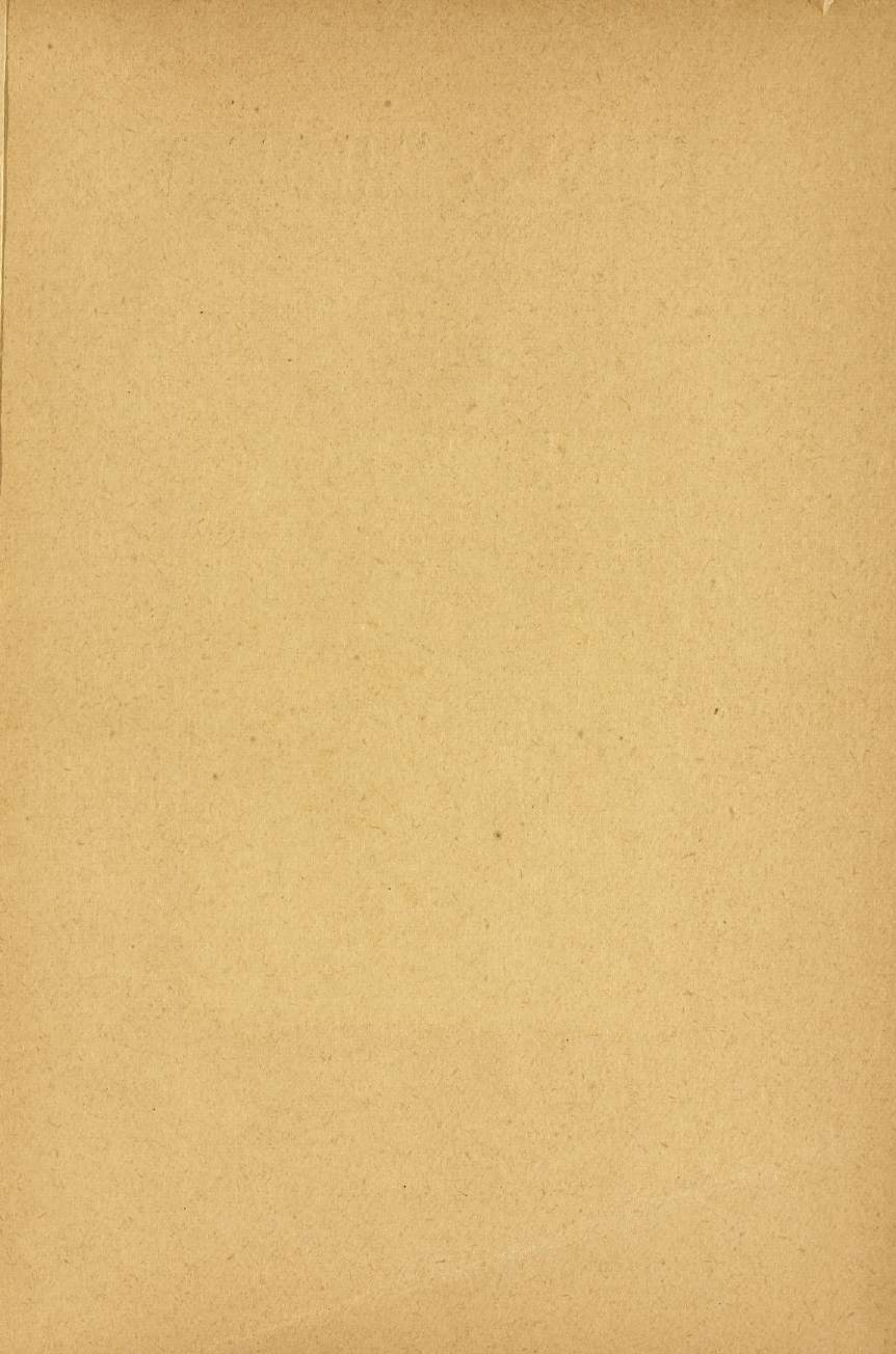
أدب المقالة الصحفية في مصر

الجزء الرابع
علي يوسف

تأليف
الدكتور عبد اللطيف حمزه

الطبعة الثانية

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي



أدب المقالة الصحفية في مصر

الجزء الرابع
علي يوسف

تأليف

الدكتور عبد اللطيف حمزه

الطبعة الثانية

ملتزم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

فيما أنا مستعد لأن أكتب مقدمة هذا الكتاب ، إذا برسالة ترد إلي من تلميذى وصديقى الأديب جرجس إسحق — وهو أول خريجى معهد التحرير والترجمة والصحافة بجامعة القاهرة (فؤاد) هذا العام — وإذا بها تغنيني عن كتابة المقدمة. فيسرني لذلك أن أنشرها ، ويسرني كذلك أن أشكره عليها ، وعلى حسن تقديره لهذا الكتاب . [المؤلف]

سيدى الأستاذ الجليل :

كنت أستمع باشتياق إلى المحاضرات القيمة التى كنت تلقيها علينا (بمعهد الصحافة) عن كتاب عهد الاحتلال ، وأهمهم : إبراهيم المويلحى ، وعلى يوسف ، ومصطفى كامل . ولعلك لاحظت — ياسيدى — أنى كنت من أشد المعجبين بها ، المؤمنين بفائدتها .

ثم حين قرأت هذه المحاضرات مجموعة فى أوراق طبعت ليتألف منها كتاب أوحت إلى قراءتها بهذه الرسالة التى أكتبها ، وأجد من نفسى دافعاً قويا جداً لكتابتها .

لقد شعرنا — نحن الشباب — بنقص ظاهر فيما صدر إلى اليوم من الكتب ، إما فى وصف الحركة الفكرية فى مصر ، وإما فى وصف النثر الحديث بها ، وإما فى وصف الحركة القومية التى لم نقرأ فيها غير كتب الأستاذ عبدالرحمن (بك) الرافعى. فحين ظهر كتابك (أدب المقالة الصحفية فى مصر) بأجزائه المتتابعة ، وجدنا فيه ما يحقق بعض هذا الغرض ، ويسد

بعض هذا النقص ، فقلنا : تلك مزية من مزايا هذا الكتاب الذى يظهر الجزء الرابع منه اليوم للقراء .

وقد رأينا فى دراستنا لكتّاب عهد الاحتلال أن الشيخ على يوسف لم يكن أقل فى شخصيته أو أهميته من مصطفى كامل .

كان أولهما بمثابة العقل المفكر للأمة . وكان الثانى بمثابة القلب النابض لها . ومع ذلك فقد عنى بمصطفى كامل كثيرون ، وترجم له كثيرون ، على حين أن السيد على يوسف لم يعن به أحد ، ولا قام بأمره أحد . إلى أن قيضك الله — ياسيدى — للقيام بهذا الرجل ، ويسرك لنشر صحيفته ، فأديت بذلك واجبا نحو التاريخ المصرى الحديث ، وآخر نحو الأدب المصرى الحديث .

فقلنا : تلك مزية ثانية لهذا الكتاب يجب أن تذكر بالثناء والإعجاب .

أجل — لقد كان على يوسف شخصية ضخمة ملأت الدنيا ، وشغلت الناس فى أعقاب القرن الماضى وفى مطلع هذا القرن . عرفته مصر فى وقت عصيب جداً ، حين كان الاحتلال البريطانى سوط عذاب يمزق ظهرها ، ويدمى قلبها . وفى ذلك الوقت اعتلى عرش مصر الخديو عباس الثانى ، وقد جرى فى عروقه دم الشباب . وأشربت روحه مبادىء الحرية ، ورغب فى أن يحقق لمصر شيئاً كثيراً من تلك المبادىء . غير أن الطريق لم يكن ممهداً أمامه ، بل كان محفوفا بالأشواك والنيران ، بعضها يأتيه من داخل ، وبعضها يأتيه من خارج ، بعضها يأتيه من أعدائه ، وبعضها يأتيه من أصدقائه . ولله در ڤولتير إذ يقول :

« رب احمنى من أصدقائى . أما أعـــدائى فإنى أعرف كيف أحـمى نفسى منهم » .

ومنذ اللحظة التى ارتقى فيها الأمير عرش أجداده بدأت الحرب الباردة بينه — كحاكم شرعى للبلاد — وبين كرومر — كحاكم فعلى لها — والمجد فى الحرب للغالب ، والويل دائما فيها للمغلوب .

وقد رأيتك ياسيدى تنصف عباسا من أعدائه ، وتنصفه كذلك من أصدقائه ، فراعنى ذلك ، وقلت فى نفسى : تلك مزية ثالثة للكتاب ، ينبغى ألا ينساها له كل وطنى مخلص لبلاده .

فى تلك البيئة المظلمة عاش السيد على يوسف ، وعلى هذا المسرح الصاخب المضطرب ظهر هذا الكاتب . فكان أشبه بالينبوع المتفجر فى صحراء محرقة ؛ يفىء إليه الضاحون ، وتهوى إليه نفوس الظامئين .

ولم يكن الشيخ على يوسف من عشاق الخيال ، ولا كان يجرى وراء البرق الخلب . وإنما كان يقيس الأمور بمقياس العقل ، ويزنها بميزان المنطق . وبسبب ذلك ظفرت (المؤيد) بحظ من التقدير وبعد الصيت لم تظفر به جريدة أخرى . حتى لقد أطلق عليها أستاذ الجيل أحمد لطفى السيد (باشا) اسم « تيمس الشرق » !

وإذا كان البيان فى عرف (الجاحظ) أو عرف (عبد القاهر) هو الإفصاح عن خفايا النفس ، فان البيان فى عرف (الساسة) هو ستار يستعين به الرجل على إخفاء نفسه ، أو إخفاء رغبة تجول فى خفايا قلبه ، ويبدو أن الشيخ على يوسف اتخذ من هذا التعريف السياسى للبيان دستوراً فى كتابته ، وقاعدة صدر عنها فى صحافته . ومن هنا جاء أسلوبه الصحفى هادئاً لاذعاً ، كأنه كأس من العسل ، ولكن ديف فيها السم والحنظل !

ومع ذلك لم يقع هذا الأسلوب المنطقى الرائع موقع الرضى من بعض الشباب الثائر . فحمل هؤلاء الشباب على صاحب المؤيد ، وتدرجوا فى حملتهم حتى اتهموه بأنه حاطب فى حبل الإنجليز . ولكن الرجل مضى فى طريقه غير آبه بهم . وكأنما كان يردد فى نفسه كلمة الفيلسوف الساخر برنارد شو : هم يقولون . ماذا يقولون ؟ دعهم يقولون !

وحين أخذت ياسيدى — تصف لنا ظروف السيد على يوسف ، وتحلل أسلوبه ، وتبين قدرته التى لا تجارى فى الدفاع عن مصر والإسلام مؤمنا

بأنك أنصفت الرجل فى سلوكه، كما أنصفته فى منهجه وفى أسلوبه، ودعمت آراءك بالبراهين القاطعة، والأدلة الساطعة، فقلت فى نفسى: تلك مزية رابعة من مزايا الكتاب. ولعلها أهم من جميع المزايا السابقة كلها.

(وبعد) فلست أدرى — ياسيدى — هل أهنئك بهذه الجهود الكبيرة التى تبذلها فى سبيل (صاحبة الجلالة)؟ أم أهنىء بك (صاحبة الجلالة) وقد أتيت تقدم لها بكتابك هذا (باقة من الزهر) تضعها على مذبح الصحافة كما يضع الراهب القرابين، ويطلق من حولها البخور؟

إن قلمى ليستميح القارىء عذراً. فما أستطيع أن أمضى معه فى وصف مزايا الكتاب، وحسبى أن أقول إن مؤلفه قد رسم لنا فيه صورتين رائعتين:

أولاهما: صورة للعصر وماحفل به من تيارات سياسية خفية وظاهرة، وما كان فيه من أزمات حادة عاصفة.

والثانية: صورة للشيخ على يوسف، حتى لكأننا نراه، ونعيش معه، ونتحدث إليه، ونأخذ عنه.

أولاهما: صورة مصر الحزينة، وقد ذهبتَ تصف بعض آلامها، وتبكى لبكائها، وتشتفى بهذا البكاء.

والثانية: صورة رجل عظيم، وشيخ رزين: نصفه للامير، ونصفه للجماهير. وإن بدا كل واحد من نصفيه كلا كامل النضج، تام النفع، ظاهر الغناء.

وهكذا طفقت — ياسيدى — تهدهد هذا الكتاب كما تهدهد الأم وليدها فى المهد حتى إذا بلغ ربيع العمر هامت به القلوب، وتعشقته الأرواح، فكأنه جارية ابن الرومى التى قال فيها:

أهى شىء لاتسأم العين منه ‍ ‍ ‍ ‍ ‍ أم له كل ساعة تجديد؟

القاهرة فى أول أغسطس ١٩٥١
الموافق ٢٨ شوال ١٣٧١

تلميذك المخلص
جرجس اسحق

تقدمة تاريخية

بعد العاصفة :

فى ليلة من ليالى الخريف أطل السير ادوارد جراى وزير الخارجية البريطانية من نافذة بيته على لندن ، وقد أظلمت أول عهدها بالحرب العظمى فقال :

« لقد أطفئت المصابيح ، وليس من المحتمل أن تضاء فى أيامنا » .

ولعل هذه الكلمة تصدق أيضاً على مصر عقب الثورة العرابية ، وقد سلم عرابى نفسه للسلطان الانجليزى ، وأطفأ المحتلون مصابيح البلاد بأيديهم ، وتركوها فى ظلام دامس ، وسكون كسكون أهل القبور .

وهذا هو الخديو توفيق قد عاد إلى عاصمة ملكه تحيط به حراب المحتلين؛ فلم تكن عودته يومئذ عودة الملك الفاتح أو القائد الظافر ، بل كانت أشبه بعودة الأسير المكبل بالقيود . ويقول الذين ذهبوا يحملون إليه نبأ الهزيمة التى منى بها الجيش المصرى فى موقعة « التل الكبير » : إنهم رأوا الدموع تتساقط من عينيه[1] . فقد أدرك الرجل أن الثورة العرابية بتطرفها وتسرعها وعدم إعدادها للأمر عدته إنما قذفت بالبلاد فى أتون احتلال بغيض سيبقى جاثماً بصدره عليها ، ولا يدرى أحد متى يفلت منه .

إذ ذاك ندبت الحكومة البريطانية سفيرها فى الآستانة — وهو اللورد دوفرين — فجاء إلى مصر ، وأشرف على محاكمة الثوار بها ، ثم شرع يدرس أحوال البلاد ، ويفكر فى تنظيمها وفقاً لمصالح الاستعمار . وبدأ اللورد دوفرين إصلاحاته فعلا بإلغاء المراقبة الثنائية ، ثم بإنشاء جيش مصرى جديد يرأسه قائد انجليزى ، ثم بإصلاح الشرطة ، ثم بوضع نظام نيابى جديد يتألف من مجالس المديريات ، ومن مجلس يقال له مجلس شورى القوانين . وعندئذ انتهت مهمة هذا الرجل . وبادرت الحكومة الانجليزية بتعيين اللورد

---

(١) مذكرات شفيق باشا — الجزء الأول — ص ١٩٤

كرومر معتمداً بريطانيا فى مصر ليقوم بتنفيذ الإصلاحات التى اقترحها اللورد دوفرين . فأتى كرومر لهذه الغاية . وشاءت الأقدار أن يقضى فى مصر خمساً وعشرين سنة (ما بين سنة ١٨٨٣ — ١٩٠٧) وهو يعمل كل ما فى وسعه لخير الاحتلال ، وإطالة أمده فى مصر .

وشهد كرومر فى أثناء هذه المدة الطويلة واليين شرعيين من ولاة مصر ، هما الخديو توفيق (١٨٧٩ — ١٨٩٢) ، والخديو عباس حلمى الثانى (١٨٩٢ — ١٩١٤) .

أما توفيق فكان رجلا رضى النفس ، رقيق القلب ، حلو المعاشرة ، معتدلا فى سيرتيه الخاصة والعامة ، لم يجد بداً من مسايرة الاحتلال ، والعمل بنصائح الانجليز . وقد عبر عن ذلك فى حديث له مع مراسل التيمس حيث قال :

« إننى لم أكن أفكر فى منصب الخديوية ، وإن أحسن أيامى أيام كنت بعيداً عن هذا المنصب ، وإنى لم أقبله إلا قياما بالواجب نحو أبى ووطنى مسترشداً فى ذلك بنصائح المراقبة الثنائية ونصائح انجلترة . وإن أمامى الآن واحدة من ثلاث : فإما أن أتبع هذه النصائح ظاهراً ، وأعمل على محاربتها فى الخفاء . وإما أن أطيعها طاعة عمياء . وإما أن أناقش هذه النصائح بكل صراحة ، وأبدى آرائى فيها ، فاذا قبلت آرائى كان بها ، وإلا فأنا مضطر لقولها . وقد اتبعت فى الحكم الطريقة الأخيرة ، فاعتبرت ضعيفاً . فهل كان يمكننى أن أقاوم للنهاية ؟ » [1] .

وسار توفيق هذه السيرة مع كرومر ، فآثر الراحة والدعة ، وسعى جهده فى تفادى الأزمات العنيفة ، وتجنيب سفينة الحكم أذى العواصف المخيفة . فأصبح أساس الحكم المصرى عقب الثورة العرابية قائما على وجوب

---

(١) مذكرات شفيق باشا — الجزء الأول — ص ٥٢٧

التفاهم الحسن بين الخديو وأعوانه وكبار رجال دولته من ناحية، والمعتمد البريطانى وأعوانه وكبار موظفيه من ناحية ثانية، أو بعبارة أخرى بين الحاكم الشرعى للبلاد — وهو توفيق — والحاكم الفعلى لها، وهو كرومر.

وبقيت العلاقات بين هذين الحاكمين على أحسن وجه من الاحترام ومن الود حتى قضى الخديو نحبه، وانتقل إلى رحمة ربه. وحين ذهب كرومر ليعوده فى مرضه الأخير، وأخبره الطبيب أن الأمير يحتضر شعر كرومر بصدمة وحزن وحسرة وخيبة أمل. وعبر عن ذلك فى قوله:

« إن القدر الذى عرّفه هومير بأنه الصاعقة أو نذير الخراب لم يستحق هذا التعريف كما استحقه الآن حينما عصف بحياة هذا الرجل، وهو فى ربيع حياته، فقوض بهذا نظاما كان يتوقف وجوده إلى درجة كبيرة على إطالة أجله »(١).

وبموت توفيق خلفه على عرش مصر عباس حلمى الثانى. وكان الصراع فى أيامه على أشده بين مصر والاحتلال البريطانى. ولكن قبل أن نلم بشىء من هذا الصراع يحسن بنا أن نعرج على السودان، فقد امتدت إليه يد الاستعمار، وسال له لعابه، فراح هذا الاستعمار يومئذ يلعب بهذه الورقة الأخيرة، وقدر له أن يربحها هى الأخرى فى نهاية الأمر.

فى ربوع السودان:

كان الهدوء الشامل يمد ظلاله على مصر الحزينة عقب الثورة العرابية، وإذا بثورة فى السودان يندلع لهبها، ويشتد أوارها، وتقوم هناك على أكتاف الدراويش، بقيادة رجل منهم يقال له (المهدى).

واستهانت الحكومة المصرية بهذه الثورة أول الأمر، ثم اضطرت أخيراً إلى الاهتمام بها، فجهزت حملة كان أكثرها من أعوان عربى.

---

(١) Cromes; Abbas II. p. 7

وسافرت الحملة بقيادة هيكس (باشا) إلى السودان ، وهنالك حدث مالم يكن فى الحسبان . فقد التقت هذه الحملة بجموع الدراويش ، وكادت هذه الجموع أن تبيد الجيش المصرى كله عن آخره !

إذ ذاك تمخضت سياسة الاستعمار عن رأى أشار به الانجليز على الحكومة المصرية . وهذا الرأى هو أن يجلو المصريون عن السودان فى الحال لكى يعيد المحتلون من الانجليز فتحه من جديد . فهال الرأى رئيس الحكومة المصرية وقتئذ — وهو شريف (باشا) — ورفضه بإباء تام . وخاطب الانجليز بقوله « إننا إذا تركنا نحن السودان فإن السودان لايتركنا » . واستقال شريف بعد ذلك من الوزارة . وخلفه نوبار عليها ، فوافق المسكين على الجلاء . وخلا السودان للمهدى الذى أقام فيه حكومة باسمه .

ثم تمخضت سياسة الاستعمار مرة أخرى عن رأى آخر يطيل أمد الاحتلال الانجليزى لجميع الوادى :

هذا الرأى هو إعادة فتح السودان ، واشتراك القوتين الانجليزية والمصرية فى هذا الفتح . وبالفعل تولى اللورد كتشنر قيادة هذا الجيش ، وتمكن به من فتح الخرطوم ، ومن هزيمة (التعايشى) خليفة المهدى . وهناك رفع اللورد كتشنر الرايتين المصرية والانجليزية .

إذ ذاك بدا لفرنسا أن تزحف هى الأخرى إلى السودان ، وتغنم هذه الفرصه الذهبية قبل فواتها ، فتوغلت بجنودها فى السودان . حتى وصلت إلى « فاشودة » ، واحتلتها ، وكان ذلك فى ١٠ يولية سنة ١٨٩٨ . وما كاد الخبر يطير إلى كتشنر حتى سار من فوره إلى فاشودة ، والتقى بالفرنسيين . وتحرج الموقف تحرجا عظيما ، وكاد يؤدى إلى حرب بين فرنسا وانجلترا ، لولا بعد نظر من الأولى ؛ فقد آثرت فرنسا الانسحاب ، وتنازلت لانجلترا عن فاشودة بحجة انها ملك لمصر والتاج البريطانى فى وقت معاً .

وهكذا نشر الاحتلال الانجليزى أعلامه السود على وادى النيل، وحال بينه وبين الاستقلال الحقيقى إلى يومنا هذا .

حمل بين الذئاب :

جلس عباس الثانى على عرش الخديوية المصرية بمقتضى الفرامانات السلطانية . فشعر منذ اللحظة الأولى أنه لا يدين بعرشه هذا للإنجليز . وكان عباس شابا فى الثامنة عشرة من عمره . ومنى « ڤينا » حيث كان يتلقى العلم دُعى ليتولى الحكم فى مصر .

وكان عباس يعيب على جده اسماعيل تبذيره وإسرافه ، ويعيب على أبيه توفيق ضعفه واستسلامه ، ويعيب على رجال الحاشية والحكومة ذلهم واحتطابهم فى حبل الغاصب . فعقد العزم على أن يتخذ لنفسه سياسة جديدة ليس فيها شىء من كل ذلك .

غير أن الطريق كان وعراً ، والجو ملبداً بالغيوم، والعدو ناشبا أظفاره بمصر ، فهى لا تستطيع منه فكاكا ، ولا تملك من يده انفلاتاً .

والتقى اللورد كرومر بالأمير الشاب عباس حلمى ، ونظر كل منهما إلى صاحبه نظرة فاحصة كتب كرومر بعدها إلى اللورد سالسبورى وزير الخارجية البريطانية يقول :

« إنى أرى أن الخديو الشاب سيكون مصريا بحتا » [1] . ففهم الوزير الانجليزى ماذا يراد بهذه الكلمة .!

منذ يومئذ وطن كرومر نفسه على صراع طويل يحتاج إلى قوة كبيرة وصبر عظيم . كما وطن الأمير الشاب نفسه على مثل ذلك . وكان الشعب المصرى قد أصابه الذهول عقب الثورة العرابية ، وأخذ يتلمس زعماءه ، فوجدهم بين أسير يعانى آلام السجن أو النفى ، وهائم على وجهه فى الأرض وما كاد يلوح لهذا الشعب الذاهل عن نفسه بريق أمل فى الجو ، ويحس

---

(١) Cromer : Abbas II. p. 4.

أن على رأسه أميراً شاباً يريد أن ينتشله من وهدة هذا الجور ، حتى هرع إليه بكل قوته . وأبدى استعداده لأن يضع يده فى يده . وكان فى عباس حماسة واستعداد يؤهلانه لأن يكون زعيما للشعب المصرى فى ذلك الظرف لولا ما اعترضه من صعاب ، وألقى فى طريقه من أشواك ، وصادفه فى حياته من خطوب ومحن .

وإنا لشارحون للقارىء باختصار طائفة يسيرة من هذه الصعاب التى واجهت عباساً فى ولايته ، وقضى العمر كله فى مصر يحاول مناضلتها ، وإن لم يكتب له الظفر الكامل على واحدة منها :

النظار ، والاحتلال ، والباب العالى ، وفرنسا — تلك هى أهم الصعاب التى اعترضت هذا الشاب ، وكانت كل واحدة منها قذيفة كبيرة دك القدر بها دكا فى بناء الوطن ، وأصاب بها منه مقتلا ! ولننظر فى أولاها وهى :

محنة النظار :

كان يتولى سفينة الحكم فى هـــذا البحر المائج المتلاطم طائفة من النظار المصريين الذين وزروا لهذا الأمير . فكان بعضهم يخضعه الخوف ، وبعضهم يخضعه المال ، وبعضهم يكتم فى نفسه حسن الرأى . وكان من أولئك النظار على سبيل المثال : مصطفى فهمى ، ومصطفى رياض ، ونوبار ، وبطرس غالى .

أما (مصطفى فهمى) فيقول عنه الخديو عباس « إن المصريين يعتبرونه انجليزيا أكثر من الانجليز أنفسهم »[١] . وقد كان هذا الوصف منطويا على قدر كبير من الحقيقة . فقد تولى مصطفى فهمى النظارة أربعة عشر عاما لم يكن فى أثنائها أكثر من آلة فى أيدى الانجليز . وكان مصطفى فهمى ينظر إلى اللورد كرومر على أنه الحاكم الحقيقى للبلاد . وحين جلس عباس على

---

(١) Cromer ; Appas. p. 10.

عرش مصر كان مصطفى فهمى لم يزل رئيس الحكومة ، فانتهز الأمير الشاب فرصة سنحت له إذ ذاك، وهى إصابة هذا الرئيس فى أواخر ديسمبر سنة ١٨٩٢ بمرض خطير فى الرئتين ، وأرسل إليه رسولا ، يطلب اليه أن يستقيل نظراً لاعتلال صحته ، فأجابه الرئيس بقوله : إن الأوفق لسموه أن يستشير اللورد كرومر قبل أن يصل إلى قرار نهائى » !

ولقد كان هذا الرد أليما شديد الوقع على الأمير ونفوس الوطنيين معه من المصريين ، وحملت أكثر الصحف على الوزير ، واتهمته بخيانة العرش ، لأنه بهذا القول يعترف بأنه يشغل منصبه ، لا بإرادة الخديو ، بل بإرادة الوزير البريطانى [١] .

أما الخديو عباس فانه لم يجد بدأ من أن يرسل إلى الوزير كتابا بإقالته فى ١٥ يناير سنة ١٨٩٢ . وفى الوقت نفسه بعث إلى اللورد كرومر يبلغه أنه أقال مصطفى فهمى ، كما أقال ناظرى المالية والحقانية ، وعين مكانهم حسين فخرى (باشا) وآخرين [٢] . وسترى — أيها القارىء — بقية هذه القصة بعد الفراغ من عرض نماذج أخرى من نظار مصر فى تلك الفترة .

ومن هؤلاء النظار (رياض) — وقد اختلف المؤرخون اختلافا كبيراً فى شأن هذا الرجل . ومصدر هذا الخلاف إنما هو تقلبه الظاهر فى سياسته . فبينا تراه يؤيد حرية الصحافة ، ويحتضن إليه قائداً كبيراً من قادة الرأى العام فى مصر والشرق ، وهو السيد جمال الدين الأفغانى ، إذ بنا نراه بعد ذلك يضيق الخناق على الصحافة ، ويعرض بعضها للتعطيل والايذاء بدون حجة واضحة ، ويضطر صحفيا كأديب اسحق إلى السفر إلى فرنسا ، حيث أصدر بعض الصحف التى تحدثنا عنها فى الجزء الأول من كتابنا هذا . وبينا ترى رياضا شديد الاعجاب بالأجانب إلى حد أنه

---

(١) Cromer : Abbas II p. 12

(٢) مذكرات شفيق باشا الجزء الثانى — القسم الأول س ٥٨

لا يرى بأساً من إغضاب الخديو توفيق وإغضاب الأمة فى سبيل إرضائهم ، إذ بنا نراه فى عهد عباس الثانى يقاوم النفوذ الإنجليزى مسايرة منه لأهواء هذا الأمير . بل إنه ليزين له سياسة مقاومة الإنجليز ، حتى إذا تحرجت الأمور بين الأمير وكرومر فى أزمة الحدود التى سنشير إليها نصح الأمير بالإذعان والخضوع . ثم بينما نرى رياضاً يلغى السخرة ويعاقب مديراً سخر الأهالى فى حفر ترعة خاصة بالخديو ، إذ بنا نراه بعد ذلك يساعد الخديو على الإستبداد بالأمر والتفرد بالحكم فى مصر .

وقد التفت اللورد كرومر إلى هذا التناقض الكبير فى سياسة رياض ، وأشار إليه فى كتابه إشارات كثيرة[1] .

وأما (نوبار) فقد تعرض كرومر لشخصيته كذلك ، وتناولها بشىء من التحليل فى كتاب له آخر عنوانه (مصر الحديثة) قال فيه :

« ونوبار رجل أرمنى مسيحى قد ظفر بقدر كبير من الثقافة الفرنسية ، وساعده إتقانه للغة الفرنسية على اصطناع الأساليب التى كان يصطنعها الساسة فى القرن الثامن عشر ؛ وهى الأساليب التى تقوم على أساس التلاعب بالألفاظ ، كما تقوم على الشد والإرخاء ونحو ذلك . ونوبار أول من أدخل نظم الحكم الدستورية فى مصر . فقد ألف أول وزارة مسئولة برياسته فى عهد إسماعيل ، وذلك فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ . وكان الخديو فى هذه الحكومة لا نفوذ له » .

ثم أضاف كرومر إلى هذا قوله :

« ومع ذلك فإن نوباراً كان يؤيد الإحتلال الإنجليزى لمصر من الناحية العسكرية ، وإن كان يكره تدخل الإنجليز فى الإدارة المصرية »[2] .

أما (بطرس غالى) فلم يكن يختلف كثيراً عن مصطفى فهمى . فهو الذى

---

(١) Cromer : Abbas II. p. 43.

(٢) Cromer : modern Egypte Vol. II p. 338.

أبرم مع كرومر إتفاقية السودان سنة ١٨٩٩ . وفى هذا الإتفاق تراضى الفريقان : مصر والإنجليز على أن يشتركا معاً فى حكم السودان . وأن يكون للسودان حاكم عام يتم تعيينه بمعرفة الخديو ، وبعد موافقة انجلترة[١].

وبطرس غالى هو الذى رأس المحكمة المخصوصة التى نظرت فى قضية دنشواى. ولنسمع للخديو عباس يعقب على ذلك ، ويلق تهمة التقصير والتخاذل على عاتق الحكومة المصرية فيقول :

« وإنى ليستثير ألمى أن أفصل القول فى هذا الحادث الذى حمل إلىَّ البرق نبأه أثناء استشفائى فى فينا ، فقد هز نفسى أعنف هزة ، سواء من جهة الوقائع التى وقعت ، أو من جهة موقف الحكومة المصرية .

لقد كان الواجب أن يقابل سوء تصرف الإنجليز ووحشيتهم بوطنية المصريين وحرصهم على كرامتهم . وليس مما يغتفر للإنجليز بلا ريب أنهم شكلوا محكمة استثنائية كى يحاكموا فلاحين وادعين لم يرتكبوا جرما إلا الدفاع عن حقوقهم وممتلكاتهم . ولكن جرمهم فى ذلك لا يقاس بجرم أولئك المصريين الذين قبلوا بغير اعتراض الإشتراك فى تلك المحكمة ، وأباحوا للدولة المحتلة تلك الترضيات التى ما كانت لتجرؤ على المطالبة بها لو أنها أحست من جانبهم مقاومة بسيطة . إن النظار المصريين لم تبدر منهم بادرة للتخلص من ذلك الشرف المحزن — شرف محاكمة مواطنيهم — ولم تند عن شفاههم كلمة طيبة واحدة[٢] .. »

ثم إن بطرس غالى هو الذى حاول أن يظفر من الجمعية العمومية بموافقتها على مد أجل الإمتياز المعروف بامتياز قناة السويس ، وقد كان لهذا الإتفاق الأخير صدى كبير فى الرأى العام المصرى . حتى أنه فى أثناء الهياج الذى أحدثه هذا الامتياز وقع حادث مؤلم ، تعدى فيه صيدلى يقال له (إبراهيم ناصف

---

(١) مذكرات شفيق باشا — الجزء الثانى — القسم الأول . ص ٢٩٨

(٢) أنظر جريدة المصرى — بتاريخ ١٩ مايو سنة ١٩٥١

الوردانى) على حياة ناظر النظار بطرس غالى ، وكان هذا القاتل شاباً عصبى المزاج ، شديد الإنفعال ، وقد صرّح بقوله يومئذ :

« إن تصرفات بطرس غالى هى التى دفعتنى إلى ارتكاب الجريمة . فقد كان الباشا عضواً فى اللجنة الدولية لتصفية الدين المصرى . وعلى يد هذا الباشا تم توقيع إتفاقية السودان عام ١٨٩٩ . ولما عين ناظراً للحقانية رأس بنفسه محكمة دنشواى ، وتمت على يديه إجراءاتها الشاذة . ثم حين أصبح هذا الباشا رئيساً للنظار عام ١٩٠٧ أعيد تحت إشرافه تطبيق قانون المطبوعات . وأخيراً أراه قد اندفع فى تحبيذ هذا المشروع الذى هو مد أجل الإمتياز الخ »

ضربة الجبار :

هكذا كان النظار محنة من المحن التى امتحن بها القدر مصر وأميرها الشاب الذى كان يحمل لها فى أعماق قلبه أصدق الرغبة فى تخليصها من براثن الإحتلال . ثم كان هذا الإحتلال فى ذاته المحنة الثانية والأشد من جميع تلك المحن التى امتحن القدر بها مصر وأمير مصر فى ذلك الوقت .

وكان يمثل الإحتلال البريطانى فى ذلك الوقت ثلاثة رجال وهم : كرومر وغورست ، وكتشنر .

أما أول الثلاثة فهو جبار الإحتلال فى مصر ، وقد طال عهده بها حتى قارب خمساً وعشرين سنة ، إمتازت بالأزمات الحادة . وكان من أظهرها أزمتان هما : أزمة النظارة الفهمية ، وأزمة الحدود :

أما (أزمة الوزارة الفهمية) فقد وصلنا بالقارىء فيها إلى الظرف الذى أقال فيه عباس وزيره مصطفى فهمى . وطار الخبر إلى جبار الاحتلال ، فكبر عليه أن يقدم أمير البلاد على إحداث هذا التغيير الوزارى دون الرجوع اليه قبل إحداثه . ورأى اللورد فى هذا العمل الأخير ضربة موجهة للنفوذ

البريطاني في مصر . فأبرق إلى وزارة الخارجية البريطانية يقول : إن التغيير الوزاري جرى في مصر بدون علم منه . وقابل بنفسه الخديو بعد ذلك، وأبدى له إعتراضاته ، ثم لم يلبث أن عرض عليه صورة برقية وردت إليه من وزارة الخارجية البريطانية ، وفيها تقول : « إن الحكومة الإنجليزية تنتظر أن يؤخذ رأيها في المسائل الخطيرة ، كمسألة تغيير النظار ، وإنها في الوقت الحاضر لا ترى أية ضرورة لهذا التغيير ، ولذلك لا تستطيع الموافقة على تعيين حسين فخري باشا » . فرد الخديو على ذلك بقوله :

« إنه يرى أن تنازله عن العرش أهون على نفسه من إرجاع مصطفى فهمي باشا الى النظارة »[1] .

وبعد مفاوضات طويلة جرت بين لندن والقاهرة إنتهى الأمر بحل وسط ، هو إبعاد مصطفى فهمي الذي عزله الخديو ، وإبعاد حسين فخري الذي أتى به الخديو ، ثم إسناد منصب النظارة إلى رياض .

وعلقت الصحف في مصر والخارج على هذه الأزمة تعليقات مختلفة . فأما الصحافة الوطنية فقد أشادت بموقف عباس ، ودافعت عنه ، وأعجبت بوطنيته . وقامت المظاهرات العامة في طول البلاد وعرضها ، ولجأت الحكومة فيها الى إستخدام العنف والقسوة ولعل أخطر هذه المظاهرات ما كان منها أمام جريدة المقطم المعروفة بميولها الإنجليزية السافرة .

وأما الصحف الفرنسية فقد نشرت إحداها في ٥ فبراير سنة ١٨٩٣ صورة كاريكاتورية مثلت فيها (چون بول) وقد اتخذ من عباس لعبة له . ونشرت أخرى من الجرائد الأوروبية كذلك صورة كاريكاتورية مثلت فيها (چون بول) وقد أخذ يعذب عباساً ليؤدبه ، وسلطان تركيا إلى جانبه يرفع يديه إلى السماء في ذلة وضراعة ، وملكة الإنجليز تنظر إلى چون بول ضاحكة ومصفقة !

---

(١) مذكرات أحمد شفيق باشا — الجزء الثالث — القسم الأول — ص ٥٨

وأما صحف إنجلترة فقد حملت حملة شعواء على الخديو عباس . وقالت التيمس إذ ذاك :

« إن عباساً صغير السن ، وتنقصه أشياء كثيرة يلزمه تعلمها . وقد أساء اختيار الطريق الموصل إلى الإستقلال الذى يرغب فيه . فقد غاب عنه أن الإنجليز هم وحدهم القادرون على تأييد عرشه . ومع ذلك فالوقت يسمح له الآن بالخروج من هذا المأزق دون أن يمسه أذى لا يستطيع الصبر على تحمله » .

ولم يكد يمر عام على الأزمة الفهمية حتى فوجىء الرأى العام « بأزمة الحدود » :

ذلك أنه فى أوائل يناير عام ١٨٩٤ سافر الخديو ومعه ماهر باشا صاعداً فى النيل حتى بلغ وادى حلفا . وهناك أخذ فى استعراض الجيش . ثم قال سموه لقومندان السوارى : إننى مسرور جداً من حركات جنودكم . ولكن عند مرور الأورطتين الثانية والحادية عشرة التفت سموه إلى ماهر باشا وقال له : « إن هؤلاء الجنود فى حالة تدعو إلى الخجل » . ثم التفت إلى قومندان الأورطة الثانية — وكان من الإنجليز — فقال له : « إننى آسف لأن سير هذه الأورطة ليس حسناً كسائر الأورط الأخرى . ولكننى أؤمل أن تتقدم حالة جنودكم أكثر من ذلك » . وأبدى سموه مثل هذه الملاحظة على الأورطة الحادية عشرة ، وصرح بكل ذلك لكتشنر قائلا له : « إننى أمدح كل ضابط يقوم بواجباته ، وألوم كل ضابط يقصر فيما عليه نحو فرقته » .

ولم يكد كتشنر يسمع كل هذه الملاحظات حتى أرعد وأبرق ، وأرغى وأزبد ، وكتب إلى كرومر يخبره بما حدث . فانتهز كرومر هذه الفرصة وخلع على الحادث صبغة سياسية ، ورأى فى هذه الملاحظات التى أبداها الخديو عباس إخلالا بنظام الجيش ، وتحريضاً للجنود المصريين على عدم

الطاعة لضباطهم الإنجليز . واعتزم إذ ذاك على أن يضرب الضربة القاضية !

وأتى كرومر إلى رئيس النظار ، وهدد بخلع الخديو إذا لم يسحب انتقاداته . وأنهى إلى الحكومة المصرية بأن برقية وردت إليه من وزارة الخارجية البريطانية تقول فيها : إذا رفضت مصر إجابة هذه المطالب اضطررنا إلى اتخاذ الوسائل الفعالة لوضع الجيش المصرى كله تحت قيادة جيش الإحتلال .

وإذ ذاك أيضاً خف رياض باشا لمقابلة الخديو عباس ، وبالغ له فى شرح خطورة الموقف ، وحمل الخديو يومئذ على الإذعان ، فبعث الخديو فى ٢٦ يناير إلى السردار بالبرقية الآتية :

« قبل أن أترك الوجه القبلى ، وأعود إلى مصر أريد أن أكرر ما أظهرته من العناية وحسن الإلتفات للجيش عند زيارتى للحدود ، وأؤيد حسن رضائى الذى أبديته لكم من حسن حالة الجيش ونظامه . وإننى لمسرور أن أهنىء الضباط الذين يرأسونهم — مصريين كانوا أو إنجليزاً . وإننى أرتاح أيضاً لأن أقدر الخدمات التى أداها الضباط الإنجليز لجيشنا حق قدرها . وأملنا أيها السردار أن تعلنوا أمرنا هذا للضباط والعساكر » .

وكان لهذا الحادث صداه فى داخل البـــلاد وخارجها . فقد نددت (الأهرام) بموقف النظار من الخديو ، واتهمتهم بمساعدة الإنجليز وتنفيذ مطالبهم . وعلقت الصحف الإنجليزية على الحادث قائلة أن الخديو هو الذى اعتدى على كرامة الضباط الإنجليز ، وأهانهم إهانة لا يمكن إحتمالها . وأما سفير فرنسا فقد كان موقفه سلبياً من الخديو ، ولم يقدم أية مساعدة له فى محنته . والحقيقة أنه كان يمكن الخروج من هذه الأزمة بشرف لو أن النظار المصريين وقفوا جميعاً إلى جانب الأمير ، لأن الأمر فى الواقع لم يكن من الخطورة بالدرجة التى صورها رياض للجالس على العرش . وربما أنه بسبب

ذلك إستقال رياض ، وخلفه فى الوزارة نوبار ، وذلك فى الرابع من شهر أبريل سنة ١٨٩٤ .

وهكذا كاد الإحتلال الإنجليزى لعباس وجاذبه ، وضيق عليه الخناق وحاربه . فقد كان الأمير محقاً يوم أقال الوزير الذى رأى فيه أنه إنجليزى أكثر من الإنجليز . كما كان الأمير محقاً يوم أبدى بعض الملاحظات على نظام الجيش المقيم بالسودان . ولكن هذا وذاك لم يرق فى نظر جبار الإحتلال فى مصر . فوجه إليه هذه الضربة المؤلمة . « مسكين هذا الخديو لا يعرف من أى جهة يأتيه الكدر والضرر » كما يقول أحمد شفيق باشا فى بعض مذكراته التى كتبها .

يد من حديد فى قفاز من حرير :

وفى صيف سنة ١٩٠٧ إستقال اللورد كرومر من منصبه بحجة اعتلال صحته . وودعه الوطنيون جميعاً بشىء غير قليل من الشماتة والسخرية . وقال الشعراء كثيراً فى هذا المعنى . ومنهم أحمد شوقى بك فى قصيدة له بلغت خمسة وخمسين بيتاً منها قوله :

أيامكم أم عهد إسماعيلا	أم أنت فرعون يسوس النيلا
أم حاكم فى أرض مصر بأمره	لا سائلا أبداً ولا مسؤولا
يا مالكا رق الرقاب ببأسه	هلا اتخذت إلى القلوب سبيلا ؟
لما رحلت عن البلاد تشهدت	فكأنك الداء العياء رحيلا
أنذرتنا رقاً يدوم وذلة	تبقى وحالا لا ترى تحويلا
أحسبت أن الله دونك قدرة	لا يملك التغيير والتبديلا ؟
قالوا جلبت لنا الرفاهة والغنى	جحدوا الإله وصنعه والنيلا
وحياة مصر على زمان محمد	ونهوضها من عهد إسماعيلا

في كل تقرير تقول : خلقتكم أفهل ترى تقريرك التنزيلا ؟
فارحل بحفظ الله جل صنيعه مستعفياً إن شئت أو معزولا
إنا تمنينا على الله المنى والله كان بنيلهن كفيلا !!

وانقضت أيام كرومر بخيرها وشرها ، وخلفه (السير ألدون غورست) . وكان هذا الرجل مستشاراً مالياً لمصر فى عهد كرومر ، كما كان صديقاً شخصياً للخديوى عباس . وكانت سياسة غورست تعرف بسياسة « اليد الحديدية فى القفاز الحريرى » . فقد وضع هذا الرجل نصب عينيه هدفاً واحداً ، وهذا الهدف هو القضاء على الحركة الوطنية قضاء أمبرماً . فكيف السبيل إلى تحقيق ذلك ؟

إتخذ غورست لنفسه إذ ذاك خطة تقوم على مسالمة الخديو ، وملاينته ومداهنته . كما تقوم فى نفس الوقت على مخاشنة الوطنيين . والتشدد عليهم ، وعدم الرأفة بهم : وإذا ذهبت تبحث عن عنوان لهذه السياسة الإنجليزية المعروفة فلن تجد لها خيراً من عنوان « فرق تسد » .

حاول غورست أن يفرق أولا بين الأمير الشاب عباس حلمى والزعيم الوطنى الشاب مصطفى كامل . كما عمل غورست كذلك على التفرقة بين الأحزاب المصرية التى أصبح لها وجود فعلى بين سنتى ١٩٠٦ ، ١٩٠٧ . وكانت هذه الأحزاب ثلاثة هى : الحزب الوطنى وزعيمه مصطفى كامل . وحزب الإصلاح على المبادىء الدستورية وزعيمه على يوسف ، وحزب الأمة وهو الحزب الذى سبق الحزبين الأولين إلى الظهور . وأخيراً أفلح غورست أيضاً فى التفرقة بين عنصرى الأمة المصرية ؛ أعنى المسلمين والأقباط . والعجيب أن القدر كتب لهذا الداهية الإنجليزى نجاحاً تاماً فى جميع هذه الخطط . !!

حفر داهية الإنجليز الخندق الأول من خنادقه بين عباس حلمى ومصطفى كامل

فبعد أن كانا متصادقين متضامنين صار الأخير يعمل وحده فى ميدان الجهاد.
ولم يقف الأمر عند هذا الحد بل أخذ مصطفى كامل يرمى الخديو نفسه بالخيانة .
« وتقابل[١] الشيخ على يوسف مع الخديو فى ١١ ديسمبر سنة ١٩٠٨ فأظهر سموه إستياءه الشديد من إفتراءات اللواء والحزب الوطنى ، وقال : كيف أقضى خمسة عشر عاماً فى حرب عنيفة مع الإنجليز ، والآن ينسى هؤلاء المفترون كل ذلك ، ويقولون إنى خائن . ولو ادعوا شيئاً آخر لما صعب على » .

وحفر الداهية خندقه الثانى بين الأحزاب المصرية بما زود الصحف يومئذ من أسباب الخصام الذى وصل فى كثير من الأحيان إلى حد المهاترة والإتهامات الباطلة . حتى لقد اتهمت (المؤيد) صاحب (اللواء) بأنه إنما يريد تقليد عرابى .

ثم حفر الداهية خندقه الأخير بين المسلمين والأقباط . فلا ينسى المصريون أنه فى عهد هذا العميد البريطانى الجديد ، بل بجهوده أيضاً تم مشروع خطير هو مد إمتياز قناة السويس أربعين سنة تنتهى ١٩٦٨ . واندفع بطرس غالى فى تأييد هذا المشروع ، فأحفظ عليه الرأى العام المصرى كما رأينا . وانتهى الأمر بمقتل هذا الرجل الذى قيل أنه كان فى نفس الوقت زعيما للطائفة القبطية بالديار المصرية . فأحدث مقتله ثغرة كبيرة فى صفوف الأمة ، وعاد الإنجليز يرمون المصريين بتهمة التعصب الدينى ، ففرقوا بذلك بين عنصرى الأمة . وتلك هى الثمرة الثالثة لهذه السياسة التى اتبعها ألدون غورست .

يضاف إلى كل ما تقدم أن قانون المطبوعات لسنة ١٨٨١ كان قد بعث من جديد فى عهد هذا المعتمد الجديد ، وكان القصد منه التضييق التام على الصحف . وإن كان ذلك فى الظاهر بناء على طلب من الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين لأغراض تختص بالمجتمع المصرى .

---

(١) مذكرات أحمد شفيق باشا — الجزء الثانى — القسم الثاني ص ١٢٤ .

وهنا يجدر بنا أن نقول أن الشيخ على يوسف حين علم بعزم الحكومة على بعث هذا القانون الذى هو وليد الثورة العرابية وظروفها فقط جاء إلى الخديو فى ١٩ مارس سنة ١٩٠٩ وقال لسموه :[١]

« إن هذا الأمر لا يصح بعثه بعد ربع قرن ، وإنه يسىء إلى الجميع من حيث الحرية التامة، وسنحتاج إلى استعمال هذه الحرية فى وقت ما فلا نجدها. فأجابه الخديو : إن ذلك صحيح ، ولكن المخابرات بيننا وبين انجلترة تقدمت تقدماً عظيما ، ولا يمكننا الرجوع إلى الوراء » .

وكانت أول جريدة ذهبت ضحية لهذا القانون هى من غير شك جريدة اللواء . وتلك كانت الثمرة الرابعة والأخيرة من ثمرات السياسة التى اتبعها (السير ألدون غورست) . وقد ظل هذا فى منصبه بمصر حتى يوم ١٢ يولية سنة ١٩١١ وهو اليوم الذى قطع فيه الموت كل صلة له بهذا الوطن .

ثالثة الأثافى :

مات غورست وكان من خير من يمثلون السياسة الإنجليزية التى شرحنا طرفا منها . والإنجليز وإن غيروا ساستهم فإنهم لا يغيرون سياستهم . فقد كان كرومر يعمل بوحى من هذه السياسة ، غير أنه كان رجلا يؤثر الشدة والصرامة ، كما يؤثر الشجاعة والصراحة ، وذلك فى مواجهة المواقف والأزمات التى تعرض له . وجاء غورست يعمل أيضا بوحى من هذه السياسة ، غير أنه كان يؤثر المكر والخديعة ، كما يؤثر الملاينة والمداهنة . ثم جاء كتشنر — وهو ثالثة الأثافى — فجرى على نفس هذه السياسة . ولم يكن كتشنر فى ذاته جديداً على مصر والمصريين . فقد عرفوه سرداراً للجيش المصرى ، وحاكماً للسودان . واصطدم به الخديو فى أزمة الحدود ، وكان من المنتظر أن

---

(١) مذكرات أحمد شفيق باشا — الجزء الثاني — القسم الثانى ص ١٧٤

يسير كتشنر فى نفس الطريق التى سار فيها سلفه ، ولكن الناس عرفوا بعد ذلك أنه كان ينوى السير على خطة كرومر . فقد رغب منذ أول الأمر عن مجاملة الخديو عباس ومراعاة خاطره . وامتدت رغبته كذلك إلى السيطرة على جميع مرافق البلاد . ولاقت الصحف على يديه الأمرين ، بعد أن سلط عليها شواظا من تلك النار المحرقة ؛ وهى نار قانون المطبوعات ! فعطلت جريدتا اللواء والعلم نهائياً ، ولم تلبث أن لحقت بهما جريدة الشعب . وساد البلاد جو من الارهاب . ولقى الوطنيون ألواناً من العنت والاضطهاد . واستبدل كتشنر بالهيأتين التشريعيتين هيئة جديدة واحدة سميت (بالجمعية التشريعية).وكان رأيها استشاريا فقط ، وإن خولت حق إبداء الرأى النهائى عند فرض أية زيادة فى الضرائب .

ولخص كرومر سياسة كتشنر قائلا :

« إن اللورد كتشنر أرسل إلى مصر ليتولى المنصب الذى خلا بوفاة السير ألدون غورست . وقد جاءت النتيجة محققة لحسن الإختيار وصواب حكمته . فلم يمض على اللورد كتشنر فى مصر وقت قصير ، حتى حاز ثقة كل فئات الشعب المصرى . ولم يكن ذلك لأنه ترك للمصريين الحرية فى حكم أنفسهم بأنفسهم ، بل لأنه شدد المراقبة على أعمال الخديو وتصرفاته ، وتولى حكم المصريين بنفسه . وأما التغيير الجوهرى الذى حصل فهو أن الحكومة أصبحت حكومة فردية بشكل أكثر ظهوراً عما كانت عليه فى أى دور من أدوار الإحتلال البريطانى . ولا شك أن هذا النوع من الحكومة عرضة للانتقاد ، وغير ملائم لحالة البلاد الفعلية . ومادامت القوة الفردية تستعمل فى مصلحة الشعب المصرى فلا حاجة هناك الى إحداث تغيير فعلى يتصل بذلك[1] .

---

(١) Cromer ; Abbas II.

خيبة الظنون :

لم تكن محنة عباس فى وزرائه فقط ، ولا كانت فى الإحتلال البريطانى ذاته فقط ، وإنما جاءته المحنة كذلك من قبل الباب العالى . وكان سلطان تركيا — على زمانه — هو السلطان عبد الحميد الذى اعتلى عرش السلطنة عام ١٨٧٦ . وكانت الإمبراطورية العثمانية إذ ذاك آيلة إلى سقوط حقيق .

وكانت مصر فى عهد عباس ما زالت تابعة لتركيا بالإسم ، ولانجلترة بالفعل ، ويذكر كرومر فى كتابه (عباس الثانى) أن هذا الخديو بدأ حكمه بداية غير حسنة مع السلطان ، إذ استهل حكمه فى مصر بأزمتين :

أولاهما — أزمة الفرمانات .

والثانية — أزمة مختاز باشا .

أما الأولى فمنشؤها أن الباب العالى كان يريد تحديد الحد الفاصل بين سينا والعقبة . وكان يريد سلخ الأخيرة عن الحدود المصرية . وقبلت مصر التخلى عن العقبة للدولة العلية . ولكن الباب العالى لم يكتف بذلك بل أراد أن تسلم له مصر أيضاً فى الطور . فعارضت إنجلتره فى ذلك ، وانتهت الأزمة لمصلحة مصر .

وأما أزمة مختار باشا فمصدرها محاولة قنصل فرنسا حمل الخديو على إقالة مصطفى فهمى باشا لميوله الإنجليزية على نحو ما وصفنا .

ووافق مختار باشا على هذه الفكرة ، وألح على الخديو إلحاحا شديداً فى تنفيذها ، فرأى الخديو فى ذلك إعتداء على سلطته ، وأرسل برقية إلى السلطان يشكو فيها من سلوك مختار باشا .

وتشتد الأزمة الفهمية على نحو ما وصفنا ، ويرى عباس أن الفرنسيين

كالإنجليز قد خذلوه خذلاناً مبيناً فى هذه الأمة ، فيفكر يومئذ ، ويفكر رجاله معه فى أن يولوا وجوههم شطر الآستانة .

إذ ذاك عزم عباس على زيارة السلطان ، وعلق أهمية كبيرة على هذه الزيارة ، ولكن السلطان خيب ظنه ، ولم يتحدث معه أثناء الزيارة فى شأن الأزمات التى وقعت بينه وبين رجال الإحتلال البريطانى ، مما لا بد أن يكون قد وصل إلى مسامعه عن طريق مختار باشا .

« ولكن الحديث بين السلطان وعباس دار حول الإحتياطات الصحية التى اتخذتها مصر لمكافحة الكوليرا ، واشتراك مصر فى المعرض الزراعى الصناعى ، ونحو ذلك [1] » .

هكذا خابت ظنون عباس فى عبد الحميد ، وتبين لعباس أنه كان مخدوعاً فى قدرة السلطان أو رغبته فى تحطيم الإنجليز . وكأنى بعباس هذا وقد عاد إلى مصر بعد هذه المقابلة المحزنة ولسان حاله يخاطب السلطان بقول أبى فراس :

فليتك تحلو والحياة مريرة ... وليتك ترضى والأنام غضاب
وليت الذى بينى وبينك عامر ... وبينى وبين العالمين خراب

وانظر إلى اللورد كرومر يعلق فى كتابه (عباس الثانى) على هذه الزيارة بقوله :

« إن الوفد الذى صحب الخديو لم يلق غير الفشل والخيبة . فإن السلطان — على ما جاء من السفير البريطانى فى الآستانة — نصح للخديو بطريقة أبوية أن يفوض أمره إلى الله ، وأن يرضى بما قسم له ويثق بفعل الزمن ، ويحافظ دائماً على العلاقات الحسنة بينه وبين انجلترة الخ » .

ثم مضى كرومر فى وصف هذه الزيارة ، ووصف عباس فقال :

---

(١) مذكرات أحمد شفيق باشا — جزء ثان — قسم أول — ص ٩٩ .

« لقد ذهب عباس شاهراً السلاح ، وعاد من الزيارة مخفوض الجناح [١] » .

شجرة الخلاف [٢] :

ولعل فرنسا — هى الأخرى — كانت من أشد المحن التى امتحن الله بها هذا الأمير المصرى الصبور . فمنذ نجحت إنجلترة فى إحتلال مصر سنة ١٨٨٢ والفرنسيون يعضون بنان الندم لتخلفهم عن الإنجليز فى مضمار الإستعمار ، حتى انفرد الإنجليز بتلك الغنيمة الباردة والبقرة الحلوب التى هى مصر !

ومن ثم أخذت السياسة الفرنسية تعمل على عرقلة السياسة البريطانية فى مصر ، واستعادة النفوذ الفرنسى فيها . وحين تولى عباس عرش هذه البلاد رأى الفرنسيون أن الفرصة سانحة لهم . ثم حين ظهر فى ميدان الجهاد مصطفى كامل ، وولى وجهه شطر فرنسا إستبشر الفرنسيون بالخير ، وأملوا فى النصر .

غير أن عطف الفرنسيين على مصر لم يكن عن حب حقيقى لها ، وإنما كان عن بغض حقيقى لعدوتهم إنجلترة . وقد كان حادث فاشودة مظهراً لهذا النضال الإستعمارى بين هاتين الدولتين .

ثم فى سنة ١٩٠٢ ماتت الملكة فيكتوريا بعد حكم زاهر طويل ، وخلفها على العرش إدوارد السابع — ملك السلام — كما كان يدعى بذلك . واستطاع هذا الملك — طمعاً فى تطويق ألمانيا — أن يحمل الإنجليز على بغض الألمان والتقرب من الفرنسيين .

وهذا التطور الذى حدث فى السياسة الأوربية هو الذى أدى أخيراً إلى عقد الإتفاق الودى المعروف بين فرنسا وإنجلترة ، وذلك فى ٨ أبريل سنة ١٩٠٤ . وهو يقضى بأن تطلق إنجلترة يدها فى مصر ، فى مقابل أن تطلق فرنسا يدها فى مراكش الغرب .

---

(١) Cromer. Abbas II. p. 45.

(٢) شجرة الخلاف هى شجرة الصفصاف شبه بها ابن الرومى صديقا له خدمه وخذله .

ولكن كم كان هذا الإتفاق ضربة قاضية للحركة الوطنية فى مصر ، ودرساً نافعاً للزعيم الشاب مصطفى كامل فى ذلك الوقت ؟ فقد تعلم هذا أن فرنسا لم تكن تؤثره بالحب أو العطف ، وإنما كانت تتخذ منه مطية لمضايقة إنجلترة ، لا أكثر ولا أقل .

وهكذا برح الخفاء ، وكشف الغطاء ، وتبين للناس جميعاً أن فرنسا كانت لمصر أشبه شىء بصديق ابن الرومى الذى شبهه هذا الشاعر «بشجرة الخلاف» أو شجرة الصفصاف «تورق للعين وتأبى الإثمار كل الإباء» ، أو كما قال .

كالذى غرّه السراب بما خيّـــل حتى هراق ما فى السقاءِ

وانظر إلى شاعرنا الكبير حافظ ابراهيم يحزن لهذا الإتفاق العجيب بين انجلترة وفرنسا ، ويظهر اليأس من المصريين حيث يقول[1] :

حطمت اليراع فلا تعجبى وعفت البيان فلا تعتبى
فما أنت يا مصر دار الأديـــب ولا أنت بالبلد الطيب
وكم فيك يا مصر من كاتب أقال اليراع ولم يكتب
فلا تعذلينى لهذا السكوت فقد ضاق بى منك ما ضاق بى
أيعجبنى منك (يومَ الوفاق) سكوت الجماد ولعب الصبى
وكم غضب الناس من قبلنا لسلب الحقوق ولم تغضبى
أمــور تمر وعيش يمر ونحن من اللهو فى ملعب
وهذا يلوذ بقصر الأمير ويدعو إلى ظله الأرحب
وهذا يلوذ بقصر السفير ويطنب فى ورده الأعذب
وهذا يصيح مع الصائحين على غير قصد ولا مأرب

---

(١) ديوان حافظ ابراهيم — نشر أحمد الزين ص ٢٥٦ .

سمحاء مظلومة :

على أن الإحتلال البريطانى البغيض كان يكيد لمصر وأهلها من طريق آخر ، هو طريق الدين . ولست أدرى كيف يخلط المفكرون دائماً بين الفكرة والمعتنقين لهذه الفكرة ، أو بين النظام والقائمين على هذا النظام . فالذى لا ريب فيه أن الفكرة سليمة مادامت تصدر عن عقول سليمة ، وأن النظام صحيح مادام يصدر عن مشرع حصيف . فما ظنك بالدين ، وهو ليس من صنع البشر ، وإنما هو من صنع خالق البشر ؟

أو كلما طرأ على المسلمين أو غير المسلمين ضرب من ضروب الضعف أو الخور . أو اعتراهم مرض من أمراض العقيدة أو الرأى ، وأصابتهم محنة فى أخلاقهم أو سلوكهم عزوا كل ذلك إلى الدين ، والدين براء مما يصفون!

غير أن السياسة لا قلب لها — كما يقول الشيخ على يوسف — أو قل أن السياسة لا تعرف دائماً غير لغتين ، إحداهما (لغة المصالح) والثانية (لغة المتاعب) . وهكذا كان المحتلون فى مصر ، كلما أرادوا التنصل من جريمة اقترفوها ، أو النقمة على المصريين لحركة قاموا بها دخلوا عليهم من طريق الدين ، فرموا دينهم هذا بطائفة من التهم الباطلة ، يذرون بها رماداً فى الأعين ، ويحدثون بها وقراً فى الآذان ، ويصنعون بها سدوداً منيعة ضد العقول الكبيرة فى الشرق أو الغرب ، فلا تحاول هذه العقول أن تفهم الحقيقة ، أو قل ، تجد مشقة كبيرة فى ذلك .

لقد انتقم الإنجليز من المصريين إنتقاماذريعافى حادثةدنشواى أخرجهم عن حدود الإنسانية ، وسلكهم فى زمرة المنعوتين بالهمجية . وحين أبلس جبار الاحتلال فى مصر — وهو اللورد كرومر — لم يجد أمامه باباً يهجم به على المصريين غير أن رماهم بتهمة التعصب الدينى الذى يخشى منه على حياة الأجانب المقيمين فى مصر .

هنالك انبرى له رجلان ، هما السيد على يوسف ومصطفى كامل ، وضيقا عليه الخناق ، وألزماه الحجة ، وأنزلاه عن العرش الذى يتربع عليه فى وادى النيل ، وذلك على النحو الذى سيصفه هذا الجزء من كتابنا والجزء الذى يليه إن شاء الله .

جامعة جديدة إلى جانب الجامعة الأزهرية القديمة :

وكان من سياسة الانجليز فى مصر قلة عنايتهم بالتعليم العالى ، وانصراف همتهم إلى نشر التعليم الأولى . من أجل ذلك شجعوا بكل ما ملكت أيديهم على نشر الكتاتيب . ونظموا لهذه الغاية حملات كبيرة ، وجمعيات عظيمة انبثت فى المديريات والأقاليم ، وأخذ بعضها ينافس بعضا فى جمع المال اللازم لإنشاء هذه المدارس الصغيرة .

ثم التفت الرأى العام المصرى التفاتة قوية إلى صنع الإنجليز ، وطفق المفكرون فى الأمة يتناظرون على صفحات الجرائد فى هذا الموضوع وهو : أيهما أجدى على المصريين : العناية بالتعليم العالى أم العناية بالتعليم الأولى؟ وكثر الجدل بين المتناظرين ، واشتغل الجميع طويلا بالتفكير فى هذا الموضوع الخطير ، وانتصر الرأى القائل بتشجيع التعليم العالى فى البلاد واتجه التفكير منذ ذلك الوقت إلى إنشاء جامعة مصرية حديثة تقف جنبا إلى جنب مع الجامعة الأزهرية القديمة .

وفى يوم ٣٠ سبتمبر عام ١٩٠٦ نشر مصطفى كامل الغمراوى «بك» من أعيان بنى سويف نداء نشرته أكثر الصحف العربية والأوروبية أهاب فيه بأغنياء مصر أن يجمعوا المال اللازم لإنشاء الجامعة ؛ وبدأ هو بهذا التبرع .

ثم فى عام ١٩٠٨ افتتح الأمير فؤاد بن اسماعيل هذه الجامعة ، ودعا شباب مصر يومئذ إلى الإقبال عليها ليأخذوا العلم من مورده ، ويستقوا الثقافة الصحيحة من منبعها . وشعر الناس إذ ذاك أن الاحتلال البريطانى — كما

قال الدكتور طه حسين (باشا) وزير المعارف بعد ذلك بنصف قرن — قد أضاع على البلاد كثيرا من الوقت وأنه لا بد أن يعوض هذا الوقت [١].

ولنا عودة إلى هذا الحديث فى بداية الجزء الخاص بمصطفى كامل بمشيئة الله تعالى. وبحسبنا أن نشير هنا إلى قصيدة من القصائد التى نظمها حافظ (بك) إبراهيم يحبذ فيها مشروع الجامعة. ومنها قوله :

إن كنتمو تبذلون المال عن رهب ... فنحن ندعوكمو للمال عن رغب
ذر الكتاتيب منشيها بلا عدد ... ذر الرماد بعين الحاذق الأرب
فأنشأوا ألف كتاب وقد علموا ... أن المصابيح لا تغنى عن اللهب
هبوا الأجير أو الحراث قد بلغا ... حد القراءة فى صحف وفى كتب
من المداوى إذا ما علة عرضت ... من المدافع عن عرض وعن نشب؟
ومن يروض مياه النيل إن جمحت ... وأنذرت مصر بالويلات والحرب؟
ومن يميط ستار الجهل إن طمست ... معالم القصد بين الشك والريب؟
فما لكم أيها الأقوام جامعة ... إلا بجامعة موصولة السبب
نبكى على بلد سال النضار به ... للوافدين وأهلوه على سغب
متى نراه وقد باتت خزائنه ... كنزاً من العلم لا كنزاً من الذهب
هذا هو العمل المبرور فاكتتبوا ... بالمال إن اكتتبنا فيه بالأدب [٢]

* * *

(وبعد) فذلك هو الجو السياسى الذى كان يتنفس فيه الشيخ على يوسف وأمثاله، وتلك هى الأفكار العامة التى عاش فيها وبدأ حياته الصحفية. وهؤلاء هم الرجال الذين كانوا بين راض به وساخط عليه.

وبودى لو أضاف القارىء لهذا التمهيد الذى عنوانه (مصر تحت نير الاحتلال البريطانى) تمهيداً آخر سبق أن كتبناه بعنوان (مصر بين الاحتلال

---

(١) من خطبة له فى الاحتفال بالعيد الفضى لجامعة القاهرة (فؤاد) — وذلك فى ديسمبر سنة ١٩٥٠.

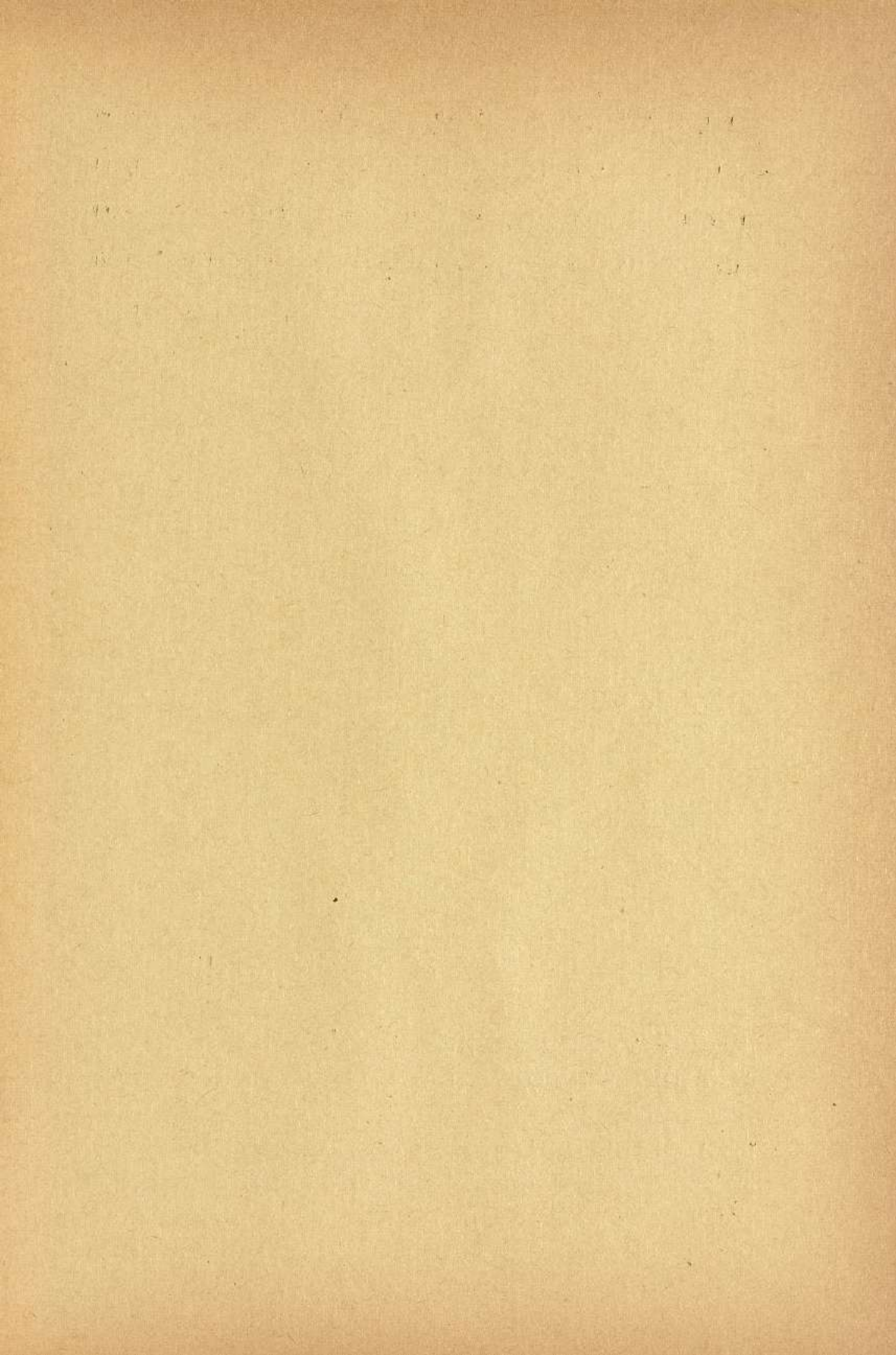
(٢) ديوان حافظ ابراهيم — نشر أحمد الزين — ص ٢٦٥.

الفرنسى والاحتلال الانجليزى) وذلك فى صدر الجزء الخاص بابراهيم المويلحى . وعندى أن كلا من هذين التمهيدين يكمل الآخر ، ويمد القارىء المدقق بفكرة إجمالية عن العصر الذى عاش فيه هذان الكاتبان الكبيران اللذان أطلقنا عليهما وعلى مصطفى كامل وأحمد لطفى السيد [1] اسم (كتاب عهد الاحتلال) .

---

(١) وكان بودى كذلك أن أضمن هذا الكتاب شهادة لكاتب ومؤرخ فرنسى عاش حياته فى انجلترا هو المسيو تيودور روذ ستين » صاحب كتاب « تاريخ مصر قبل الاحتلال البريطانى وبعده » .

ولقد قدم المستر بلانت — صديق المصريين المشهور — لهذا الكتاب بمقدمة جاء فيها: « إن هذا الكتاب بقلم رجل قد اتخذ هذه البلاد — وطنا ثانيا له . وهو فوق ذلك رجل تجري فى عروقه الغيرة على سمعة انجلترا وعلى شرفها . ولا سيما أنه يرى أن الشعب الانجليزى فى معالجته المسألة المصرية بصفة خاصة قد حاد من جادة الصواب ، وأو شك أن يضل نهائيا فى طريق غير شريف » الخ .



علي يوسف

١٨٦٣ - ١٩١٣



١٨٦٣ - ١٩١٣

الفصل الأول

حياة على يوسف

ربما كان لكل عظيم فى أمته سيرتان : سيرة شخصية — هى عبارة عن تاريخه وتاريخ أسرته ، وما كان لهذه الأسرة من مال أو جاه أو مجد أو شرف أو موهبة ، وسيرة قومية — هى عبارة عن تاريخ الأمة التى وجد فيها هذا العظيم ممثلا فى فرد أو تاريخ العصر الذى عاش فيه ممثلا فى رجل .

إذا صح ذلك فقد كنا مع المويلحى أمام شخص غلبت فيه السيرة الشخصية على السيرة القومية ؛ بمعنى أن الحديث عن أسرة المويلحى ، وعما كان لهذه الأسرة العريقة من مال أو من مجد ، وما كان لها من علاقات بالأسرة العلوية الحاكمة منذ ظهورها ونحو ذلك قد غلب على الحديث عن المويلحى من حيث أثره فى المجتمع المصرى ، أومن حيث مدى اشتراكه فى الحوادث العامة لهذا المجتمع المصرى ، بل من حيث نصيبه من التوجيه العام لمصر فى هذه الفترة الحالكة من فترات تاريخها الحديث ؛ وهى فترة الاحتلال الإنجليزى .

وليس معنى ذلك أننا نغمط المويلحى فضله فى هذا الميدان القومى ، أو ننقص من شأنه فى مجال الجهاد الوطنى ؛ فقد رأيت كيف وصفنا للقارىء بعض الجهود التى بذلها الرجل فى هذا السبيل . وكيف أثنينا عليها وعليه بما يستحق ، وكيف انتهينا من ذلك إلى أن المويلحى — وإن كان إلى الأدب بمعناه الصحيح أدنى إلى الصحافة بمعناها الصحيح — فقد سخر قلمه الرفيع لخدمة الأغراض الوطنية بقدر ما سمحت له ظروفه وأعانت مواهبه .

لكننا مع الشيخ على يوسف سنرى أنفسنا أمام رجل من طراز آخر

فى كل شىء ؛ أمام رجل غلبت سيرته القومية على سيرته الشخصية . ومعنى هذا أننا إذا ذهبنا نؤرخ لهذا الرجل من الناحية الشخصية البحتة لم نجد ما نكتبه عن أسرته التى انحدر منها ، ولا ما نكتبه عما كان لهذه الأسرة من مال أو جاه أو شهرة ، أو صلة قوية بالحكام ، أو انغماس قوى فى الحياة العامة وما إلى ذلك .

ولكننا حين نؤرخ للسيد على يوسف من الناحية القومية البحتة فهنا نجد أنفسنا أمام رجل قد يمكن أن يختصر تاريخ أمته فى تاريخه ، وتاريخ الزعماء الذين ظهروا إلى جانبه ، وأن يترجم للعصر الذى عاشوا فيه فى ترجمة حياتهم . فكأن أقلامهم كانت مقياساً لحرارة الشعب المصرى فى ذلك الوقت ، وكأن عقولهم كانت مرآة صادقة تعكس صورة صحيحة لهذا الشعب المصرى فى تلك الفترة ، وكأن مصر كانت إذ ذاك هى على يوسف ومصطفى كامل وأضرابهما ، وكأن هذين الرجلين كانا هما يومئذ مصر وأى غرابة فى ذلك ؟ لقد كانت حياة رجل كالسيد على يوسف تختصر فى كلمة واحدة ؛ وهى «صحفى» ، وما أضخم هذه الكلمة يومئذ . لقد ظلت تتسع وتتسع حتى شملت الحياة المصرية كلها من جميع جوانبها . وكذلك كان على يوسف ؛ لأنه الصحفى الأول فى فترة الاحتلال الانجليزى ، وكذلك كان الزعيم الشاب مصطفى كامل لأنه الداعية الأول لمصر فى تلك الفترة أيضاً . وكذلك كان أحمد لطفى السيد لأنه المعبر عن آراء الصفوة المثقفة فى تلك الحقبة وهكذا .

ذلك أول الفروق الواضحة بين المويلحى من جهة وعلى يوسف من جهة ثانية . وثم فروق أخرى كثيرة بينهما لا نستطيع أن نأتى عليها جملة ، لأنها ستتضح من ثنايا السطور .

سيرته الخاصة :

وصاحب الترجمة هو «السيد على يوسف بن السيد أحمد يوسف بن السيد يوسف بن السيد مبارك يوسف بن السيد شيخون يوسف بن السيد بركات

يوسف بن السيد مبارك بن السيد يوسف ، من ذرية سيدى محمد شيخون الحسينى الكائن ضريحه ناحية بلصفورة التابعة لمركز سوهاج بمديرية جرجا بصعيد مصر ، — ذلك نسبه حسبما هو مذكور فى سجل نقابة الأشراف الرسمى بالديار المصرية[١] .

وكان ميلاده فى جمادى الثانى عام ١٢٨٠هـ الموافق عام ١٨٦٣م ببلدة بلصفورة بالصعيد . وتوفى والده بعد ولادته بسنة واحدة . وكانت أمه من بلدة تسمى بنى عدى تابعة لمركز منفلوط بمديرية أسيوط ، وهى بلدة ذات شهرة كبيرة فى صعيد مصر بالعلم والعلماء . فاضطرت الأم بعد وفاة زوجها أن تحمل ولدها إلى هذه البلدة لتعيش فى كنف أخوتها ، ولينشأ الطفل اليتيم فى رعاية أخواله . وإذ ذاك علمه أخواله القرآن الذى أتم حفظه فى الثانية عشرة من عمره ، ثم بدأ يتلقى العلم على الشيخ حسن الهوارى أحد العلماء المشهورين فى تلك البلدة الصغيرة ، وفيها لازم الصبى أستاذه مدة قيل أنها تتراوح بين عامى ١٢٩١ و ١٢٩٩هـ .

فى تلك السنة — أعنى سنة ١٢٩٩هـ ، والفتى يومئذ لم يكمل من عمره تسعة عشر ربيعا — سافر إلى القاهرة ليتم تعليمه بالأزهر الشريف ، فأتمه على مشهورى الأساتذة فى ذلك الوقت .

فقد تلقى الفقه على أستاذه الشيخ حسن داود ، وكان فقيها على مذهب الإمام مالك . كما تلقى النحو والبلاغة على أستاذه الشيخ أحمد أبى الفضل ، وقرأ عليه كتاب الأشمونى وحاشية الصبان ، وكتاب السعد التفتازانى فى البيان والبديع والمعانى . وقرأ الفتى جزءاً كبيراً من كتاب جمع الجوامع فى الأصول ، وهو آخر ما كان يقرأ فى العلوم العقلية فى الأزهر الشريف . كما قرأ كتبا كثيرة فى الحديث والتفسير والمنطق والتوحيد وآداب البحث

---

(١) راجع إلياس زاخورة فى كتابه : مرآة العصر فى تاريخ رسوم كبار الرجال بمصر ص ٥٣٧ ط ١٨٩٧ .

والمصطلح ، وذلك على كبار الأساتذة يومئذ ، كالشيخ الإمبابى ، والشيخ محمد البحيرى ، والشيخ محمد المغربى وغيرهم .

غير أن الفتى كان فى أثناء تلك الفترة التى انقطع فيها للأزهر الشريف يختلس من وقت الأزهر زمناً غير قليل يقرأ فيه كتب الأدب والسير والتاريخ، حتى قليل يومئذ أنه نبغ فى النظم والنثر ،واستطاع فى عام ١٣٠٢ هـ — ١٨٨٥م أن يخرج ديواناً مطبوعا من نظمه ونثره ، وسمى هذا الديوان باسم « نسمة السحر » . وربما عرضنا على القارىء بعض نماذج من هذا الديوان عند الكلام على أسلوب السيد على يوسف .

وعلى حين غرة ، أو على غير انتظار وقف الفتى عن متابعة الدرس فى الأزهر . ولست أدرى لم كانت الكثرة المطلقة من شباب مصر فى ذلك الوقت تسأم الأزهر ، وتمل متابعة العلم الذى كان يلقيه الأساتذة هناك — لعله كان علماً يعنى فيه بالشكل أكثر من العناية بالروح أو الجوهر ، أو لعله كان علماً يعتمد فيه على الكتاب لا على حسن العرض أو جمال الطريقة . ومهما يكن من الأمر فقد طاف بذهن الفتى يومئذ طائف من المجد ألح عليه إلحاحا كبيراً فى أن يترك الأزهر وشيوخ الأزهر ، ويخرج إلى الحياة العامة نفسها ليجرب حظه فيها . ولكن ما نوع الحياة التى طمع فيها الشيخ على حينذاك ؟ لقد سمعت همة هذا الشاب طفرة واحدة إلى الصحافة . فلم لا يكون صحفيا ؟ ولم لا يتخذ لنفسه صناعة الكتابة ؟ الحق أن الفتى كان يأنس من نفسه منذ بداية حياته قدرة على مواجهة الصعاب ، وكان يشعر بأن بين جنبيه نفسا من تلك النفوس الكبيرة التى تمنحها الأقدار لطائفة من الناس ، فإذا هم قادرون على المضى فى الحياة بنجاح .

لم يكن مع الشيخ على يوسف حين فكر فى الصحافة شىء من المال . ومع ذلك فقد شوهد هذا الشاب يوما ما فى نظارة الداخلية وهو يطلب ترخيصا له بجريدة سماها « جريدة الآداب » . وما كاد يحصل بعد ذلك على

هذا الترخيص حتى عمد إلى صديق له بالأزهر الشريف ، هو الشيخ أحمد ماضى ؛ كان يعرف فيه ميلا قوياً للأدب والإنشاء ، كما كان يعرف أيضاً أن له بعض الثراء . فاستعان بماله وقلمه على إخراج هذه الجريدة التى بقيت تصدر إلى عام ١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ م . ولم نظفر نحن بعدد من أعداد هذه الجريدة إلى الآن . وإن كنا لا ننظر إلى عمل السيد على يوسف فيها وفى جريدة أخرى اشترك فيها ، وهى جريدة « القاهرة الحرة » لصاحبها أحمد فارس الشدياق [1] — إلا على أنه من قبيل التجربة والتمرين على الدخول فى هذا الميدان الجديد ؛ وهو ميدان الصحافة ، وقد ظهر السيد على يوسف فى هذا الميدان ظهوراً لم يكن له نظير فى مصر والشرق العربى كله فى مدى ربع قرن من الزمان ، وهى المدة التى اشتغل فى أثنائها بجريدة المؤيد .

فمن ذلك الوقت — أعنى فى سنة ١٣٠٧ هـ — ١٨٨٩ م فكر الرجل فى إنشاء هذه الجريدة الجديدة ، وهى جريدة المؤيد . وقد شجعه عليها ماشاهده قبل ذلك من إقبال الناس على جريدة الآداب ، وما عرفه من حبهم الشديد لها ولأقلام المحررين بها .

ثم ماهو إلا أن حصل الشاب على ترخيص له بهذه الجريدة الجديدة حتى عمد مرة أخرى إلى صديقه القديم الشيخ أحمد ماضى . فأمده هذا الصديق بمائة جنيه ، استعان بها على هذه الجريدة الجديدة التى صدر العدد الأول منها فى ٨ ربيع الثانى ١٣٠٧ هـ الموافق أول ديسمبر ١٨٨٩ م . غير أن الشيخ أحمد ماضى لم يلبث بعد بضعة شهور من إنشاء الجريدة أن اعتراه مرض أقعده عن العمل فيها ، وكف يده كذلك عن تقديم المعونة المادية لصاحبها . ولا شك أن الجريدة كانت فى أول نشأتها تحتاج إلى نفقات كثيرة ، وأن إيرادها

---

(١) ذكرت ذلك جريدة أبو الهول التى صدرت فى مصر — راجع العدد ١٨ من السنة الخامسة عشرة الصفحة الرابعة .

كان لا يكفى للانفاق عليها بحال ما . وتلك كانت أولى الصعاب التى واجهت السيد على يوسف ، وإن كانت هذه الصعوبة الأولى ليست شيئا بالقياس إلى ما ينتظر هذا الشاب ، وينتظر جريدته كذلك من صعاب .

فقد أبل الشيخ أحمد ماضى من مرضه ، ولم يكد يعود إلى العمل فى الجريدة حتى اختلف مع الشيخ على يوسف اختلافا أدى إلى الخصومة ،وترك الشيخ أحمد ماضى صديقه وحيداً فى هذا الطريق . ولكن عزيمة الشيخ على كانت ترافقه فى كل مرحلة من مراحل حياته ، فلم يضعف ولم يتردد ، بل فوض أمره فى هذه المرة للقدر الذى بعث إليه يومئذ بصديق جديد ، هو (سعد بك زغلول المحامى — سعد باشا فيما بعد) ففصل بين المتخاصمين ، وأرضى الشيخ أحمد ماضى بقدر من المال ، وحمله على ترك الجريدة نهائيا ليستقل بها الشيخ على يوسف . والظاهر أن سعداً لم يكتف بذلك حتى أمد الشيخ علياً بقدر آخر من المال يستعين به على إصدار جريدته . وسيقص علينا الشيخ على يوسف قصته هذه مع سعد زغلول فى الفصل الذى سنكتبه عن جريدة المؤيد خاصة .

منذ يومئذ وصاحب المؤيد يستعد لمواجهة صعاب كثيرة كانت كل واحدة منها خليقة بأن تعطل صدور الجريدة ، لولا ما أشرنا إليه من أمر هذه العزيمة التى اتصف بها الشيخ ، وكانت رد.آ له فى كل محنة من المحن التى صادفها فى حياته . وهكذا قدر للمؤيد أن يعيش مؤيداً من الله ومن الناس ، كما قدر له أن يحمل علم الجهاد الوطنى زهاء خمسة وعشرين عاما من حياة مصر ، وذلك فى أشد أوقاتها حلكة وظلاما ، بل فى أشد ظروفها حرجا واضطرابا وغليانا ، يومئذ كان يجثم على صدر البلاد طاغية من طغاة الاحتلال ، عاش فيها خمسة وعشرين عاما مقابلة لتلك المدة التى قضاها المؤيد فى ميدان الجهاد : هذا يمعن فى ظلمه واستعباده ، وذلك يمضى فى كفاحه وجهاده . « والحق أننا لنعجب كل العجب حين نتصور البلاد خالية

فى تلك الفترة العصيبة من جريدة وطنية عظيمة كجريدة المؤيد ، تقف لهذا الطاغية بالمرصاد ، وتذود عن مصر والإسلام جميع التهم التى نسجها له خياله وجبروته وتهالكه فى حب الاستعمار .

والحق — أن المواطن المصرى ليحمد لبلاده هذا الظرف الذى أنعم الله فيه على مصر برجل كالشيخ على يوسف يجاهد الانجليز بقلمه وعقله ، كما أنعم عليها بشاب كمصطفى كامل يجاهدهم فيها بلسانه وقلبه . ومن مجموع أولئك الرجال خلقت مصر لأعدائها طائفة غير يسيرة من المصاعب والمتاعب . والانجليز كغيرهم من دعاة الاستعمار فى كل زمان ومكان لا تؤثر فيهم غير هذه اللغة التى هى لغة التعب

وندع المؤيد جانبا لنمضى فى سيرة صاحبه .

كتب تشارلز آدمس فى كتابه (الإسلام والتجديد فى مصر) وصفاً للمؤيد وصاحبه فقال :

« لقد كان السيد على يوسف صحفياً ماهراً ، وله دهاء يشوبه المكر أحياناً . ولقد رفع المؤيد إلى مقام الصدارة فى العالم العربى . فأحاط الخديو عباس جريدة المؤيد برعايته ، وشملها بحمايته ، فأصبح الشيخ على يوسف يسير فى ركاب الخديو حيث سار ، ويخلص له إخلاصاً يفوق إخلاص مصطفى كامل للجالس على العرش ، وقد وجه الشيخ على يوسف سياسة المؤيد ، فجعله بوقاً للدعوة إلى الرأى السنى المحافظ ، وكان فى نظر خصومه — على الأقل — يهيج دفين التعصب الدينى »[1]

على يوسف والخديو عباس :

منذ اعتلى عباس عرش البلاد فى سنة ١٨٩٢ ظهرت له ميول وطنية عنيفة أزعجت رجال الاحتلال أيما إزعاج . وطفق أمير البلاد منذ ذلك الوقت

---

(١) عباس محمود : مترجم كتاب (الاسلام والتجديد فى مصر) — راجع هذه الترجمة ص ٢١٦ — ٢١٧ .

يفتش بنفسه عن رجال يعتمد عليهم فيما انتواه من إصلاح ، وعزم عليه من مقاومة لرجال الاحتلال . فكان إذا سمع برجل كالسيد عبد الله النديم دعاه واستدناه وأوحى إليه بإنشاء جريدة (الأستاذ) ، ثم إذا رأى تلميذاً نابهاً بالمدارس كمصطفى كامل فيه جرأة وشهامة ، وفيه صدق وصراحة ، وعليه سيما الفطنة والنجابة شجعه بماله ، وجاهه . وحين رأى صحيفة المؤيد تسير فى طريقها قدماً خطب ود صاحبها ، وأحب أن يعتمد عليه فى قيادة الحركة الوطنية . وهكذا لم يدخر عباس وسعاً — أول الأمر — فى تغذية الحركة الوطنية ، وحشد الرجال المخلصين من أفراد الشعب ، مادام النظار أنفسهم قد بدا منهم ميل لأن يخذلوه فى الظرف الذى يصطدم فيه بقوى المحتل .

غير أن الظروف أثبتت فيما بعد أن صاحب المؤيد كان أشد إخلاصاً لأمير البلاد حتى من الزعيم الشاب مصطفى كامل . وقد اعترف بذلك صاحب المنار ، وصرح به فى كتابه (الأستاذ الإمام) حيث قال :

« والخديو عباس هو الذى أوجد مصطفى كامل ، واستعمله فى الحركة الوطنية ، وهو تلميذ فقير مع مسيو (دولونكل) مندوب حزب الاستعمار الفرنسى الذى كان مناوئاً للاحتلال البريطانى فى مصر إلى العهد بمسألة (فاشودة) المشهورة ، وما أعقبها من اتفاق الدولتين سنة ١٩٠٤ . وقد جعل سموه لمصطفى كامل راتباً شهريا قدره خمسة وعشرون جنيها . ثم مازال يزيده حتى بلغ مائة جنيه . ومع هذا لم يكن مصطفى كامل مخلصاً له إخلاص الشيخ على يوسف ، بل انقلب عليه هو والحزب الوطنى باطناً[١] » .

وبقيت الصداقة بين عباس وعلى يوسف تنمو على الأيام حتى أصبح الشيخ جليس الأمير ، ومستشاره وحافظ أسراره ، لا يعمل الأمير عملا إلا بمشورته ، ولا يقدم على خطة إلا بعد أخذ رأيه . حتى الرتب والألقاب

(١) رشيد رضا : الأستاذ الإمام . حـ . ص .

كانت لا تمنح لأصحابها إلا بجهود الشيخ على ، كما حدثتنا بذلك المذكرات التى نعتمد عليها فى هذا الفصل [١] .

أجل — كان الشيخ على يوسف فى ركاب الخديو يسير معه أنى سار ، ويعبر عن رأيه فى كل مناسبة . ولكن التاريخ ينظر إلى الشيخ فى تصرفه هذا على أنه شجاع ومقدام . فقد آثر الخديو عباس ، وتولى الدفاع عنه وعن أفكاره فى وقت كان فيه أمير البلاد يعانى مايعانى من ظلم الاحتلال ، بل فى وقت كان فيه هذا الاحتلال أشبه بالوحش الذى كشر عن أنيابه ، واستعد لالتهام فريسته . والذى لاشك فيه أن عباساً كان شجى فى حلوق الانجليز ، وشوكة فى جنوبهم ، وأنهم كانوا يتربصون به الدوائر . فإذا جاء وطنى كالشيخ على يوسف ووقف إلى جانب هذا الأمير المظلوم كان وقوفه ضرباً من الشهامة التى يحمد عليها ويشكر كثيراً من أجلها .

نعم — تغيرت خطة عباس بعد الاتفاق الودى بين انجلتره وفرنسا سنة ١٩٠٤ ، وأصبح رجلا بادى الضعف ، ظاهر الاستسلام ، بعد أن قلّم الانجليز أظفاره ، وأغلقوا أبواب الرجاء دونه ، وأفهموه أنه لا ينبغى له أن يلتفت لغير مصالحه الخاصة . وإذ ذاك فقط تخلى عنه صديقه مصطفى كامل ، بل جاهره بالعداء ، وصارحه بالخصومة ، ونادى على رؤوس الأشهاد أنه أصبح لا يعبر عن رأيه ، ولا يعتمد عليه فى حركته .

أما الشيخ على يوسف فاحتكم فى هذا الأمر لعقله لا لقلبه ، وآثر يومئذ ألا يقطع صلته بالخديو عباس ، وألا يتركه وحيداً فى الميدان ، ولا يخلى بينه وبين السبع الانجليزى ينهش لحمه ، ويعرق عظمه أكثر مما فعل من قبل .

وقف الشيخ من أمير البلاد موقفه هذا ، ثم لم يمنعه ذلك من الذود عن مصالح الشعب المصرى ضد الاحتلال الانجليزى الذى كان لا يتوخى

---

(١) مذكرات احمد شفيق باشا — الجزء الثانى — القسم الثانى .

مصلحة الشعب المصرى. ولا يستطيع القارىء لصحيفة المؤيد أن يجد صفحة واحدة فقط يفهم منها أنها ضد هذا الشعب، أو يفهم منها أنها كتبت لمجرد الدفاع عن الخديو عباس، وإن كان فى هذا الدفاع أذى لمصر.

صحفى موهوب:

كان على عباس بعد اعتلائه العرش أن يسافر إلى الآستانة ليقدم للسلطان فروض الولاء والطاعة، فذهب معه فيمن ذهب إليها الشيخ على يوسف. وكان الشيخ موكلا حينذاك بإمداد المؤيد بوصف لرحلة الخديو عباس يوماً بيوم. ثم رأى الشيخ بعد ذلك أن يجمع هذه المقالات، فجمعها فى كتاب سماه «أيام الجناب الخديوى المعظم عباس الثانى فى دار السعادة». وأهم ما فى هذا الكتاب مقدمته التى كتبها الشيخ على يوسف، وهو فى عرض البحر الأبيض المتوسط فى طريقه إلى دار السعادة، وكان موضوع هذه المقدمة الكلام عن أهمية البحر الأبيض المتوسط السياسية والتجارية قديما وحديثا، وأهمية الموقع الجغرافى لمصر تبعا لذلك، قال:

«ونخلص من كل ما تقدم أن للقطر المصرى شأنا عظيما فى مدينة البحر الأبيض المتوسط الأولى، وفى تاريخ الديانات ووسائل انتشارها فى أرجاء العالم، وفى عصور المنازعات والمنافسات بين ممالك الأدوار السابقة. (يريد أن لكل مملكة دوراً فى السيطرة على البحر الأبيض). وفى هذا العصر الحاضر، سواء من جهة السياسة أو التجارة، أو تأثير الدين. وفضلا عن كل ما تقدم فإنها امتازت بخاصة كونها الطريق الموصل بين أغنى وأعمر بلاد فى الدنيا، ألا وهى أوربا وأقطار الشرق الأقصى. وامتازت أيضا بقربها من الأماكن المقدسة فى كافة الديانات الرسمية. وامتازت أيضا بكونها طريق اتصال لداخل أفريقية، بخلاف غيرها من الأقطار التى يعبر منها إلى داخل السودان، فانه يوجد بينها وبينه فاصل كبير من الصحارى والقفار المضللة.. وهذه الخصائص التى تعد من لوازم مصر وحدها

كافية لأن تحيط هذا القطر السعيد بالدسائس الكبرى ، والمنافسات المختلفة . فإذا أضفنا إليها أهمية نصيبها من آثار البحر الأبيض المتوسط كان لها — ولا شك — مركز خصوصى تنفرد به عن بقية الأقطار والممالك فى العالم . من فهمه حق الفهم وقف على كنه معنى قولهم إن الدولة التى تملك مصر تصير عدوة لكافة دول العالم . . . فواجب أن تكون كل قوى الدولة العلية — أيدالله عرش سلطانها — منصرفة إلى تقوية رابطة الاتصال بين الآستانة العلية — ملجأ الخلافة العظمى — ومصر باب الحرمين الشريفين ، والقدس الشريف . كما أنه من الجهة الأخرى يجب على كل وطنى انجليزى يحب مجد وطنه وعظمة دولته أن يعمل جهده لمنع حكومته من إطراد سياستها الحالية التى لا نتيجة لها سوى معاداة كل الدول ، وفتح أبواب العدوان عليها . وكيف يتصور أنها تستطيع مناظرة كل قوى أوروبا التى لا ترضى أن تترك لانكلترا وحدها تجارة الشرق الأقصى بأسرها ، ولا أن تجعل هذا الطريق الوحيد وديعة عندها تتصرف به طبق إرادتها . وعلى مايشاء هواها »[1] .

فانظر إلى هذا الشيخ الصحفى بطبعه كيف اتخذ من مشاهدة البحر موضوعا سياسيا تاريخيا عالجه إذ ذاك بعقلية واقعية سياسية . وفى ذلك مايدل على غلبة الصحافة على مزاج هذا الرجل أكثر من كل شيء . ولو أن كاتبا كالمويلحى أراد أن يتخذ من البحر موضوعاً للكتابة لاتخذه موضوعا أدبيا خياليا خالصا ، وذلك لغلبة المزاج الأدبي عليه . وسبحان من فرق بين عباده فى المواهب والطبائع .

وحين بلغت السفينة جزيرة كريد (العثمانية) سبح الشيخ فى ذكريات تاريخية طويلة ، واستعرض فى ذهنه حوادث هذه الجزيرة وثورتها على السلطان . وجرى قلمه بعد ذلك بشرح طرف من هذه الحوادث ، وكشف

---

(١) على يوسف : أيام الجناب الخديو المعظم عباس حلمي الثانى فى دار السعادة ص ١٤

فى أثناء ذلك عن ضمائر الدول التى كان يعنيها الأمر ، وأخذ يذكر أقوال الصحف الانجليزية فى هذا الشأن . « فلقد تغالت الجرائد الانكليزية فى تضليل القراء حتى أفهمت أوروبا أن كل يونان كريد من الأبطال أصحاب الشرف والشهامة ؛ إن برزوا للقتال أزهقوا أرواح المئات من خصومهم . وأما عساكر الترك فقد وصفوهم بأنهم ذئاب ميالون لهتك الأعراض ، ظامئون لشرب الدماء ، ولكنها دماء النساء اللواتى يدافعن عن شرفهن ، وقد عبرت هذه الجريدة المنصفة بهذه الكلمات القليلة عن مقدار ما كان يتكلف رسل الحرية من التمويه والتضليل فى سبيل إثارة الأخطار الأوروبية على الدولة العلية فى معرض الإغراء بها . ولكن لم تلبث هذه الستائر أن مزقت ، وظهرت الحقائق لأوروبا ، وتبين لليونانيين من جهة أخرى أنهم بحركتهم العدوانية ضد الدولة العلية يناطحون الصخور بقرن الوعل »[1].

وأتم الشيخ على يوسف تحرير اثنتى عشرة رسالة فى الآستانة بعث بها من هناك إلى جريدته المؤيد . وكان فى هذه الرسائل كلها يذود عن الخديو عباس خطر الكائدين والدساسين الذين حاولوا إفساد الأمور بينه وبين السلطان . ومنها دسائس أبى الهدى الصيادى من ناحية ، ودسائس ابراهيم (بك) المويلحى وجريدة المقطم من ناحية ثانية .

وباختصار جرى الشيخ على يوسف فى رسائله هذه على سياسة مضادة للسياسة التى جرى عليها المويلحى فى كتاب « ماهنالك » .

على يوسف والالقاب :

وتحدثنا مذكرات شفيق (باشا) كذلك عن هذه الزيارة ، وعن المأدبة التى أقامها السلطان فى يلدز لتكريم المصريين هناك قالت[2] :

---

(١) نفس المصدر ص ٢٠ .

(٢) المذكرات : الجزء الثانى ، القسم الأول ص ١٠١ .

وكان السلطان قد أنعم على ثمانية وعشرين منهم (أى من المصريين) بمداليات الامتياز الذهبية ، وعلى خمسين بالمدالية المذكورة من الفضة » .

نذكر منهم الباشوات : على آصف ، ومحمد صادق ، والبكوات : اسماعيل صبرى ، وأمين فكرى ، وأحمد زيور ، وأحمد الحسينى ، وأحمد تيمور ، وحسنى حلمى ، وعباس الدره مالى ، وقاسم أمين ، ومحمد فهمى ، ويوسف طلعت ، والشيخ على يوسف ، وأحمد لطفى السيد ، وسعد زغلول وغيرهم .

ولمناسبة الرتب والألقاب يجمل بنا كذلك أن نشير كذلك إلى أنه فى سنة ١٩٠٤ أنعم السلطان عبد الحميد على السيد على يوسف (بالمدالية الذهبية) اعترافاً بالمجهود العظيم الذى بذله فى الحصول على أكبر مبلغ من المال الذى جمع من تبرعات الشعب المصرى مساهمة منه فى مشروع السكة الحديدية الحجازية . ثم إنه عند افتتاح هذا الخط الحديدى الحجازى الذى يصل دمشق بالمدينة المنورة سافر السيد على يوسف ، وبصحبته محمد (بك) المويلحى ، وخطب السيد على يوسف فى دمشق خطبة عظيمة . وإذ ذاك أنعم عليه السلطان عبد الحميد بوسام آخر .

وفى عام ١٩٠٦ عاد السلطان فأنعم على صاحب المؤيد بالرتبة الأولى من الصنف الأول ؛ وهى الرتبة التى تخول لصاحبها لقب باشا ، ومن أجلها يخاطب (بحضرة صاحب السعادة) .

كما أنعم شاه إيران مظفر الدين خان بوسام كذلك على صاحب المؤيد . وهكذا أصبح صدر الشيخ مزدحماً بعدد كبير من الأوسمة ، كما أصبح اسمه مقروناً بألقاب التفخيم والتعظيم . كل ذلك واسم (على يوسف) مجرداً من جميعاً هذه الألقاب يرن فى الآذان رنيناً لا تبلغ بعضه هذه الألقاب جميعاً .

على يوسف والصحفيون الاجانب :

وكان الشيخ على يوسف من أوائل المصريين الذين طالبوا بالدستور . يحدثنا شفيق (باشا) : أن مكاتبا لجريدة النيورك هيرالد أتى إلى مصر ، وتحادث مع الرجال الممتازين بها ليعرف الشعب الأمريكى بسير الحالة بعد تغيير النظارة الفهمية ، وكان من أهم الرجال الذين حرص هذا المكاتب الأمريكى على مقابلتهم الشيخ على يوسف الذى أفهمه أن المصريين — وهو معهم — يلحون فى طلب الدستور .

ووصل إلى الاسكندرية فى ٢١ مارس سنة ١٨٩٥ المسيو فرنسوا دولونكل النائب الفرنسى الذى دافع عن القضية المصرية فى البرلمان الفرنسى عند وقوع حادث تغيير الوزارة الفهمية . فاستقبله مصطفى كامل مع جمهور غفير من الناس . ومكث هذا السياسى بمصر زهاء عشرين يوماً ألقى فى خلالها خطبا مهمة بمصر والاسكندرية ، وجمع له الزعيم الشاب مصطفى كامل أموالا طائلة من الشعب المصرى ، بحجة أنه مستعين بهذا المال على الدفاع عن مصر على هذا الوجه .

وفى ١١ ابريل اجتمع جمهور من الصحفيين فى (نيو أوتيل) بالقاهرة تلبية لدعوة وجهها إليهم المسيو دولونكل . وألقى خطابا بدأه بشكر الصحفيين ، ودلل على أن حياة مصر حياة حقة لوجود الصحافة فيها . ثم قال : « قد تكوّن فى فرنسا وألمانيا وانجلترا رأى عام موافق لرأيكم ، وأصبحنا لا يفوتنا شىء مما يحدث عندكم » .

وبعد أن انتهى من خطابه وقف الشيخ على يوسف وشكره على عواطفه ثم قال من خطبة طويلة : إننا نحمد الله إذ ألفينا من الجرائد الفرنسية المحبة خير ترجمان يردد صدى صوتنا الحق ، وينصر الحقيقة المحبوبة .

وإذا كنت أيها الرصيف الفاضل قد اشتهرت بحب مصر التى تقدر

خدمتك الجليلة حق قدرها فكن كما كنت دائما نصيراً للحقيقة ، نصيراً للضعيف الذى يطالب بالحق فى دائرة قانونية .. إلخ » .

وفى نهاية الحفلة وقف مصطفى كامل فألقى خطبة مستفيضة شكر فيها (دلونكل) من أجل مصر ، وحمد لفرنسا ماتبذله للقضية المصرية من تعضيد مشكور . ثم انفرط عقد الاجتماع[1] .

على يوسف واللغة العربية :

وحين كان السيد على يوسف عضواً عن مدينة القاهرة فى الجمعية العمومية تقدم إلى الجمعية باقتراح طلب فيه أن يكون التعليم فى المدارس الابتدائية باللغة العربية ، وكان ذلك سنة ١٩٠٧ يوم كان سعد زغلول ناظراً للمعارف . ودارت مناقشة بين الرجلين حول هذا الموضوع استطاع فيها السيد على يوسف اقناع سعد بوجاهة الاقتراح ، فعمل به بعد أن كان مصمما على رأيه الذى كان فى الوقت نفسه رأى الاحتلال ورجاله فى مصر .

على يوسف والأستاذ الإمام :

كان صاحب المؤيد — فيما يصوره لنا التاريخ — صديقا للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده ، يرى فيه الرجل الوحيد الذى يمكن أن يعتمد عليه دون سواه فى إصلاح الأزهر الشريف . غير أن العداء كان على أشده بين الخديو عباس والأستاذ الإمام . وكان من أسبابه إذ ذاك عدة أمور منها « اتهام بعض الوشاة النمامين للشيخ بأنه غير مخلص لسموه ، ولا راض بإمارته ، وأنه يعاكسه ويشاكسه . بل اتهامه بما هو أكبر من ذلك — بأنه يكره آل محمد على ، ويؤلف عصبية فى مصر لنزع الإمارة منهم ، وجعلها جمهورية . ولكن الأستاذ الإمام رحمه الله كان أكبر عقلا وأصدق وطنية من أن يفكر

---

(١) المذكرات — الجزء الثانى ١٩٧ .

فى مثل هذا فى وطنه الساقط تحت ضغط دولة أجنبية قوية مسيطرة عليه[١].

« غير أن الشيخ على يوسف اتخذ لنفسه موقفاً وسطاً بين الخديو عباس والأستاذ الإمام . فظل وفياً لهذا الأخير موالياً له ولرجال حزبه ، ولاسيما حسن عاصم ، وسعد زغلول ، وكان يخبرهم بجميع أسرار الخديو ومايتكره من أعماله وآرائه ، ويستشيرهم فيها ، وذلك ليقينه أنه لايصل إلى سموه شىء من مكاشفته . وكان يحاول التوفيق والتقريب ما استطاع ، ولايطعن فى أحد من أركان هؤلاء الرجال ، كما يفعل مصطفى كامل بدون تفريق بين الحق والباطل ، حتى أنه نصر اليهود على الأستاذ الإمام فيما قرره من دروس الأزهر من بيان مساوىء اليهود فى تفسير الآيات التى أنزلها الله فيهم . ولم يندفع الشيخ على مع الخديو فى مضارة الأستاذ الإمام » .

وكان الشيخ على فى الوقت نفسه حريصاً على ألا يمس شعور عباس ، فكان لا يعارضه إلا عند الضرورة . وحين اتجه التفكير إلى تعيين الأستاذ الامام شيخاً للجامع الأزهر ، كان السيد على يوسف يريد ذلك فى قرارة نفسه — ولكنه أظهر خلافه مرضاة لعباس . وعجب بعض أصدقاء الأستاذ الإمام من موقف الشيخ على يوسف فى ذلك : فقال لهم حسن عاصم (باشا) : سبحان الله : أتريدون من صعيدى فقير صار جليساً للخديو ومستشاره وأمين سره أن تسمو نفسه إلى تركه لأجلكم . . ؟ .

على يوسف فى لندرة وباريس سنة ١٩٠٣

«كان الشيخ على يوسف من المنتمين للسراى ، فانتهز فرصة زيارة الخديو للندرة ، وسافر إليها ليتتبع أخبار هذه الزيارة كيما ينشرها فى المؤيد ، ثم بارحها إلى باريس ، وتقابل مع بعض السياسيين فيها ، وتكلم معهم بخصوص

---

(١) انظر تاريخ الأستاذ الإمام للشيخ رشيد رضا .

المسألة المصرية كما سيجىء . ثم أرسل إلينا من لندرة فى ٥ يوليو خطابا يقول فيه : « كانت مأدبة المستر موزلى — وقد كان قاضياً بمصر — فى نيوسان ستيفان كلوب وهو كلوب المحافظين — مساء أمس ، وأجاب الدعوة اثنان وعشرون شخصاً بينهم عضوان فى البرلمان ، ومديرو جرائد ستاندرد والديلى تلغراف والديلى نيوز وغيرهم من الكتاب والأعيان . ومع أنى كنت سمعت من المستر موزلى نفسه أنه لا خطب ولا كلام ، بل حفلة تعارف وسمر بسيط ، فقد جر الطعام إلى المدام ، والمدام إلى الكلام . وانتهى الأمر بالقوم إلى أن كانوا فى حلبة خطابة . فخطب منهم سبعة ،منهم عضو فى البرلمان وأصحاب الجرائد الثلاث ، وشخص اسمه المستر ديسى مؤلف كتاب (الخديو فى مصر) والمستر موزلى . واضطررت أن أتكلم أيضاً ، وكان مدار الخطب كلها مظاهرة للجناب العالى الذى شربوا نخبه مراراً . وحيوه مراراً بكلمة (هورا) . وأضاف إلى ذلك أنه رد عليهم بالشكر ، وبسط القضية المصرية ، وما للخديو من منزلة بين أمته » .

ووردت لنا منه أيضاً رسالة من باريس يصف فيها احتفاء الصحفيين الفرنسيين به ، وماتبادلوه من الأحاديث بخصوص مصر وسياسة فرنسا .

ثم أرسل إلينا رسالة أخرى جاء فيها :

« سيذهب وفد من مجلس النواب الفرنسى إلى لندرة ليجتمع مع مندوبين من برلمان انجلترا للمفاوضة فى المسائل المختلف عليها بين الدولتين . وقد طلبت مقابلة مسيو (أتين) وكيل مجلس النواب الفرنسى بواسطة دولونكل ، لأعرف منه إن كانت مسألة مصر من جملة المسائل التى يجرى الكلام فيها أم لا ؟ وقد كتبت لصاحب لى فى انجلترا ليعرف شيئا من ذلك أيضاً لأعرف مايمكننى الوقوف عليه من أسرار المخابرات فى شأن من يكون فى اللجنة المخصصة لذلك . ولعل هذا هو السبب فى كثرة الأسئلة التى تتوارد على من لندرة فى المواضيع المصرية » .

وكتب الشيخ على يوسف بعد ذلك ما يأتى :

« عاد النواب الفرنسيون . وقد قابلت (دولونكل) وهو منتفخ بالآمال الكبار ، ويقول : إن المسألة المصرية لابد أن تعرض أول المسائل على مجلس التحكيم الذى يراد عقده . وقد كان فى المأدبة البرلمانية على يسار المستر تشمبرلين ، وعلى يمين السير شارل ويلك ، وتكلم مع الاثنين فى المسألة . ومن رأيه أن تشمبرلن لا يبقى طويلا . بل الوزارة كلها ستغير وتأتى وزارة الأحرار . ولما خطب قال : لابد من عرض المسألة المصرية فى مقدمة المسائل . ولكنه لم يرد أن يتعمق معى فى الكلام حتى يعرض ما لديه رأساً على الجناب العالى . وهو مسافر غداً إلى لندرة التى بها (مسيو أتين) وكيل مجلس النواب ، وبعد مقابلته يتوجه إلى ديفون . وربما اقتضى الحال تأخير سفره يوم الخميس أو الجمعة التاليين » [١] .

وزار الشيخ على يوسف لندن مرة أخرى فى يوليو سنة ١٩٠٧ وذلك بوصفه عضواً فى اللجنة البرلمانية المصرية ، وأقام الأحرار فى لندن احتفالا لتكريم هذه اللجنة رأسه المستر روبرتسون . وكتب الشيخ كلمة ترجمت إلى الإنجليزية وألقيت فى هذه الحفلة . وفى هذه الكلمة دفاع سريع عن مصر ضد الاحتلال البريطانى الذى تم فى ظروف سماها الشيخ ظروفا استثنائية . وانتقد الشيخ فى هذه الكلمة رجال الإحتلال البريطانى وتأخيرهم الأكفاء من الوطنيين عن خدمة وطنهم ، وتقديم غيرهم عليهم فى مضمار هذه الخدمة الوطنية . وطالب الشيخ بعقد الجمعية العمومية لأن روح التشريع أوشك أن يضيع تماما من البلاد ، كما طالب أيضاً بتحويل المحاكم المختلطة حق الفصل فى قضايا الأجانب بدلا من المحاكم القنصلية ، إلى آخر ذلك كله من المطالب . ومع ذلك فقد وجدنا فى صفحات المؤيد من يرد على مقالات

---

(١) انظر فى جميع النصوص المتقدمة مذكرات احمد شفيق (باشا) القسم الثانى من المذكرات — ص ٢٦ وما بعدها .

كتبها بعض الصحفيين ، ووجهوا فيها اللوم الشديد للشيخ على يوسف وزميله حافظ عوض ، لأنهما لم يطالبا أثناء وجودهما فى انجلترا باستقلال مصر ، ولكنهما اكتفيا بالشكوى من الاحتلال البريطانى [1] .

على يوسف والدستور والحرية :

كان مراد (بك) الداغستانى شيخ أحرار تركيا قد نشر رسالة فى أوروبا باللغة الفرنسية يطلب فيها من الدول العظمى أن تتداخل فى شؤون الدولة العلية لإصلاح إدارتها الداخلية . فكتب السيد على يوسف بمؤيده رداً قاسياً عليه ! قال فيه : إن هذه السياسة الخرقاء لو نجحت ذهبت باستقلال الدولة العلية . والدولة إذا فقدت استقلالها فقدت نفسها .

وقرأ عزت (باشا) العابد — وكان صديقاً شخصياً لصاحب المؤيد — هذه العبارة فذهب مسرعاً إلى السلطان عبد الحميد ، وقال إن المؤيد يدافع دفاعا منطقياً ، ولكنه يسىء التعبير . فأمر السلطان بمنع دخول المؤيد جميع الممالك المحروسة .

وأخذ المؤيد على عاتقه عام ١٩١٠ نشر كتاب (طبائع الاستبداد) للكواكبى . وكان هذا الكتاب أشد على نفس السلطان من كل مانشره الكتاب الأحرار فى مصر وغيرها من بلاد الشرق والغرب ، فأصدر السلطان أمراً آخر بمنع دخول المؤيد فى الممالك العثمانية . كل ذلك برغم أن السيد على يوسف كان يلتزم دائما جانب الدفاع عن السلطان عبد الحميد وعن سياسته فى العمل على تشجيع ماسماه (بالجامعة العثمانية) .

وأعلن الدستور العثمانى ، وبعد إعلانه بخمسة أيام كان السيد على يوسف فى بيروت . وهنالك ألقى خطبة طويلة شكر فيها الجيش شكراً حسناً على عمله . ولكنه نصح لهذا الجيش بأن يقف بعد ذلك بعيداً عن

---

(١) راجع المؤيد : العدد ٥٢٣٤ — ٥ أغسطس سنة ١٩٠٧ .

الدستور وأن يتخذ من نفسه حارسا أميناً لهذا الدستور ، فلا يقترب رجاله من الأعمال السياسية والادارية ، قائلا لهم هذه الكلمة المشهورة التى أثرت عنه وهى :

« إن السيف والحرية والدستور لا يبيتون فى قراب واحد » .

واجتمع السيد على يوسف مرة بالجراح العثمانى الشهير (جميل باشا) وهو أحد أعضاء جمعية الاتحاد . فسأله الشيخ على يوسف فى حضرة سعد زغلول هذا السؤال : « هل تبقى جمعية الاتحاد عاملة مستمرة بعد انعقاد مجلس المبعوثان ؟ » فقال « نعم تبقى كرقيب على المجلس حتى يستقر أمر الدستور على حالة وطيدة » . ومعنى ذلك أنه كان من رأى السيد على يوسف أنه لا ضرورة لبقاء جمعية الاتحاد قائمة ذات سلطة مستقلة محسوسة للناس بعد مباشرة مجلس المبعوثان عمله ، لأن ذلك يؤذن بعدم الثقة بنواب الأمة .

نفهم مما تقدم أن السيد على يوسف كان من أحرص الناس على الحرية من جهة ، وعلى الدستور من جهة ثانية ، أما الجامعة العثمانية ، فيظهر أن صاحب المؤيد — بتأثير من الخديو عباس راعى المؤيد — قد أصبح فيما بعد لا يتحمس كثيراً لها ، بل غدا قليل الإيمان بها . والشيخ على يوسف — كما عرفنا — ذو عقلية سياسية واقعية ، تعاف الجرى وراء الخيال ، وتعرف الخضوع لحقائق الأشياء [1] .

على يوسف والهلال الاحمر :

أغارت إيطاليا على ولاية طرابلس الغرب التى كانت تحت سيطرة تركيا ، ففكر الشيخ على يوسف فى تأسيس جمعية الهلال الأحمر ، وأوفد باسمها عدة

---

(١) نحن نعرف أن العلاقات قد توترت بين السلطان والخديو عباس حتى قيل : أن عباسا فى سنة ١٩٠٢ قبل الاشتراك فى مؤامرة حاكها رجال تركيا الفتاة لخلع السلطان عبد الحميد ، وأنه أعطى رجلا منهم هو اسمعيل بك كمال أربعة آلاف من الجنيهات كمساعدة من سموه . ولكن بعض خاصة الخديو نصحوا له بالبعد عن فتنة كبيرة كهذه الفتنة ، فاقتنع بهذا الرأى .
(مذكرات شفيق باشا — قسم ثان — جزء ثان ، ص ٨) .

بعثات طبية لمواساة الجرحى فى طرابلس ، ومواساة فلول الجيش العثمانى هناك . وكان من بعض هذه البعوث رجال مشهورون ؛ منهم على (باشا) ابراهيم ، وحافظ (باشا) عفيفى ، ونصر فريد (بك) . والأخيران من أركان الحزب الوطنى ، ومن أقوى دعائمه ، ومنهم كذلك الدكتور محجوب ثابت ، والدكتور سليمان (باشا) عزمى وغيرهم .

ولما شبت نار الحرب العثمانية اليونانية المسماة فى التاريخ (حرب البلقان) أرسلت هذه الجمعية عدة بعوث طبية إلى هناك . ويقال إنه كان من رأى الأستاذ لطفى (باشا) السيد الذى كان يرأس تحرير (الجريدة) — لسان حال حزب الأمة وقتئذ — العدول عن جمع الإعانات من طريق الهلال الأحمر للجيش العثمانى المقاتل . وإذ ذاك انبرى له السيد على يوسف مفنداً رأيه فى ذلك . وانضمت إليه . إذ ذاك بعض الصحف الوطنية ، وأهمها صحف الحزب الوطنى . ومن ثم أقبل الجمهور المصرى على جمع هذه الإعانات استجابة لنداء الشيخ على يوسف وجمعية الهلال الأحمر .

لقد كانت هذه الجمعية يداً طولى للسيد على يوسف على مصر . وغيرها من بلاد الشرق ولم تزل تقدم الخير الجزيل لها إلى اليوم . وفى الحديث الشريف « من سنّ سنة حسنة فله أجرها إلى يوم القيامة » .

على يوسف وامتياز قناة السويس :

وإن تنس مصر لا تنس للشيخ على يوسف موقفه المجيد بإزاء مشروع خطير ، هو مد امتياز قناة السويس إلى أجل آخر . فقد عارض الشيخ فى هذه الفكرة الخطيرة بكل ما أوتى من قوة ، وحاول جهد طاقته إقناع زملائه النواب فى الجمعية العمومية بخطر الموافقة على مد هذا الأجل . ولولا خشية الإطالة لبسطنا للقارىء طائفة من أقوال الشيخ فى ذلك . ولكننا نستعفى القارىء هذا ، ونحيله إلى أعداد جريدة المؤيد فى شهرى يناير وأبريل من عام ١٩١٠ . فثم يجد ما يدله على وطنية الشيخ ، وغيرته على مصالح قومه ضد الأجانب الذين يأتمرون فيما بينهم عليها .

ونحن نعرف أن هذه الفكرة كانت السبب الحقيقى فى مقتل بطرس (باشا) غالى ، وأن الانجليز عادوا إلى اتهام المصريين يومئذ بتهمة التعصب الدينى . وحين عرضت فكرة الامتياز على الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين، كان يدافع فيها عن وجهة نظر الحكومة أحد أعضاء النظارة حينذاك سعد زغلول (باشا) ، وكان يدافع فيها عن فكرة الشعب المصرى الشيخ على يوسف صاحب المؤيد . واشتد النضال بين الرجلين حول هذا الموضوع . ولم يكتف الشيخ بذلك حتى جمع حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية . وأصدر الحزب يومئذ قراره فى الفكرة . وهو قرار يقضى برفضها . ومع ذلك لم ينجح الوطنيون فى غرضهم ، ووافقت الحكومة المصرية على مد هذا الأجل [1] .

على يوسف والجامعة الاسلامية :

نظر الباحثون من الأوروبيين إلى كل حركة قام بها المسلمون قصد الإصلاح والتجديد على أنها نزوع منهم إلى تحقيق هذه الفكرة التى اشتهرت باسم «الجامعة الإسلامية» . وقال بعضهم إن هذه الفكرة لا وجود لها بالفعل فى أذهان المسلمين ، ولكن الموجود منها بالتحقيق إنما هو نزوع المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها إلى النهوض . وهذا كلام صحيح فى جملته . وقد وجدنا السيد على يوسف يميل إليه ويوافق عليه ، بل وجدنا جريدة المؤيد تقول ما نصه :

« الجامعة الاسلامية قسمان : دينية وسياسية . والدينية موجودة بوجود العقيدة الإسلامية ، والسياسية غير موجودة، ولم توجد ، ولن توجد لعدم وجود الرابطة بين الأمم الإسلامية ؛ وهى المصلحة . ذلك أن المسلمين

---

(١) راجع (محمد فريد) للرافعى حيث تجد محاضر الجلسات التى تثبت عدم الموافقة بالاجماع على المد

إذا أوجدوا جامعة سياسية إسلامية أوجد غيرهم جامعة مسيحية وهكذا ، فتكون المضرة عليهم بسبب ذلك[١] » .

وفى مذكرات الخديو عباس الثانى التى نشرتها جريدة المصرى ما يؤيد ذلك أيضاً . وقد جاء فيها قوله[٢] :

« وكانت سياسته — أى سياسة على يوسف — وآراؤه الشخصية قائمة على الوحدة العربية ، وإن لم يفتنه — فى يوم من الأيام — ما كان فى الاتحاد العربى من عظمة . وكان يرى أن من الخطأ أن تقام سياسة شعب على اتفاق روحى بحت ، بينما كان من الصعب إقامتها على أساس الجنس . وكان من رأيه أن فترة الحروب الصليبية قد انتهت إلى الأبد . وكنت أرى معه أنه على حق » .

هكذا بقى صاحب (المؤيد) يولى هذا الموضوع جانبا كبيراً من عنايته ، وكان يكتب فيه بنفسه تارة ، ويستعير أقلام غيره من الشرقيين أو الأوربيين تارة أخرى .

والخلاصة أن فكرة الجامعة الإسلامية لم تكن إلا متنفساً صغيراً لبعض الكتاب المصريين ، يتنفسون من خلاله فى فترات قليلة ، وذلك ريثما ظهرت فى الميدان فكرة أخرى تنافسها ، وتحاول أن تشق طريقها إلى أذهان المصريين المحدثين . وهذه الأخيرة هى فكرة (مصر للمصريين) . ومن الجائز أن تكون هذه الفكرة نفسها من وحى الإنجليز الذين أرادوا منذ الاتفاق الودى سنة ١٩٠٤ أن يصل نفوذهم فى مصر إلى الحد الأقصى . وإذ ذاك تمخض الذكاء الانجليزى عن فكرتين تحققان له هذا الغرض المطلوب : أولاهما فكرة مصر للمصريين التى أريد بها فصل مصر عن تركيا . والثانية إلغاء الامتيازات الأجنبية فى مصر ، حتى لا يصبح لأية دولة أوروبية فيها ظل السلطان ما إلى جانب انجلترة .

وهكذا كان الشيخ على يوسف يؤمن بالجامعة الإسلامية من الناحية

---

(١) المؤيد عدد ٥١٠٨ سنة ١٩٠٧ .

(٢) جريدة المصرى بتاريخ ١٣ مايو ١٩٥١ .

الدينية ، ولا يؤمن بها من الناحية السياسية . وهذا معنى قول عباس الثانى فى وصف سياسة على يوسف :

كانت سياسته تستند أحيانا على نفوذ الخليفة ، ولكنها لم تكن على الخصوص تركية إسلامية[1] .

على يوسف والجامعة العربية :

كانت العصبية العربية فى دورها الثانى يوم فكر زعماؤها فى إنشاء إمبراطورية باسم :

الجامعة العربية ، وأريد بهذه الإمبراطورية أن تشتمل على شبه جزيرة العرب ، وسوريا ، والعراق ، ومصر ، والسودان ، وطرابلس ، وشمال إفريقية .

غير أن فكرة (الجامعة العربية) فى دورها الثانى لم ترق إلى حد (الجامعة الطورانية) برغم ما ظهر فى الأولى من صبغة الدين ، وما أفادته من فكرة (الجامعة الإسلامية) التى دعا اليها جمال الدين . ذلك أن الجامعة العربية كان ينقصها التنظيم ، ووحدة السير ، تلك الوحدة التى عرفتها الجامعة الطورانية وسارت عليها منذ البداية .

ولم تبرح سوريا ومصر المركزين الرئيسيين لحركة الجامعة العربية . (وإن رأى شكيب أرسلان أن مصر هى الأولى والأصلح للقيام بهذه الحركة).

وأما البرنامج المصرى للجامعة العربية فيرمى إلى توحيد جميع الأقطار العربية ، وعلى رأسها الخديو . ولكن يبدو أن هذه الأقطار العربية خضعت للوصاية البريطانية فى أول الأمر . وحينئذ أصبح على العرب أن يتحدوا لمقاومة هذا النفوذ وتمزيقه والتخلص منه .

---

(١) نفس المصدر المتقدم .

ومهما يكن من شيء فإن الخديو عباس يعزى تشجيع هذه الحركة[١].

علي يوسف ومشيخة السجادة الوفائية :

شاءت الظروف بعد ذلك أن يترك الشيخ علي يوسف حرفة الصحافة ، وأن يتعلق بأمر آخر لا صلة له بالصحافة . وهذا الأمر الجديد هو مشيخة السادة الوفائية فى الديار المصرية[٢] .

والحق أن العجب ليملأ نفس الباحث حين يرى رجلا سياسياً صحفياً يبلغ من المجد والشهرة حداً لا يطمع فيه أحد ، ويسطع نجمه فى سماء الصحافة والسياسة إلى هذا الحد الذى لا يتطلع اليه أحد ، ثم يترك هذه الحرفة العزيزة على نفسه ، بل الحرفة التى هى السبب الوحيد فى شهرته ومجده الى حرفة أخرى لا تحتاج الى هذه المواهب العالية ، أو الذهنية السليمة الناضجة ، أو التجارب الطويلة القيمة .

ولكن القارىء يخف عجبه قليلا حين يعلم من ظروف الرجل بعض ما حمله على هذا الانحراف المفاجىء فى أخريات حياته .

ولعل أول هذه الظروف التى نشير اليها عناده النفسى الذى كان طابعاً عاما لحياته منذ بدايتها . وسيعلم القارىء فى فصول أخرى أن الشيخ علياً أراد أن يصهر إلى هذا البيت العظيم من بيوتات مصر ، وهو بيت السادة الوفائية ، وخطب لنفسه بنتا للسيد عبد الخالق السادات ، فقبل والد الفتاة الخطبة أول الأمر ، ثم مالبث أن رفضها مستعلياً على صاحب المؤيد بعد ذلك . فلم يكن من صاحب المؤيد ومن ابنة السيد عبدالخالق إلا أن اتفقا على عقد الزواج فى بيت غير بيت السيد عبد الخالق ، وبدون إذن منه ، وهنالك ثارت ثائرة الوالد ، ورفع على ابنته وعلى صاحب المؤيد قضية كان لها شأن يذكر فى تاريخنا الاجتماعى فى القرن الماضى ، ونعنى بها قضية الزوجية ، وفيها

---

(١) حاضر العالم الإسلامى للاستاذ لوثروب ستودارد ، الأمريكى ترجمة الأستاذ عجاج نويهض . المجلد الرابع ص ١١٩ وما بعدها .

(٢) انظر نسب السادة الوفائية فى هامش صفحة ١٠٨ من هذا الجزء .

حكم بالحيلولة بين الزوجين ، ثم وضعت الأمور فى نصابها الحقيق ، فأعادوا كتابة العقد فى بيت السيد عبد الخالق وبإذن منه .

وعلى الرغم من ظفر الشيخ على يوسف بما أراد فى هذه المسألة ، فان رفض البيت الوفائى له يومئذ حز فى نفسه ، وبقى شوكة فى جنبه ، وشجى فى حلقه ، حتى أتيحت له فرصة جلس فيها على عرش المشيخة الوفائية ، فاعتبر ذلك حلا لتلك العقدة التى غاصت فى أعماق نفسه مدة من الزمن .

أما السيدة صفية السادات زوجة الشيخ على فبدأت حياة زوجية فيها شىء من الرضى أول الأمر ، ولكنها لم تلبث أن كدرت معيشة زوجها بعد ذلك . فقد كانت تشعر بالاعتزاز بجمالها ، أو الاعتزاز بمالها وبفضلها على أقرانها فى الحسب ، وفضلها فى الثقافة التى كان والدها قد وصلها بها منذ الصغر ، أضف إلى ذلك كله تلك الشدة التى قاستها منذ ظهورها على مسرح المجتمع المصرى فى أثناء اشتغال هذا المجتمع بالنظر فى هذه القضية العجيبة التى سنأتى على ذكرها فيما بعد .

ثم إن حياة الشيخ على يوسف بعد هذه الحادثة ما لبثت أن ساءت فى منزله ، وطفقت زوجته بصلفها وجبروتها تكدر عليه عيشته . وربما أنه بسبب ذلك رأينا الشيخ ينصرف إلى مكتبه (بالمؤيد) يعمل فيه نحواً من عشرين ساعة فى اليوم والليلة تاركا منزله وزوجته .

ومنذ عام ١٩٠٧ — وقد أثرى الشيخ ثراء عظيما من مؤيده — أقحم هذا الشيخ نفسه فى مضاربات عقارية لبيع الأراضى . وخسر فى هذه المضاربات معظم ثروته . وهو وإن كان رجلا لا يهتم بالمال ، ولم يكن البخل من خصاله بحال من الأحوال ، إلا أنه حزن يومئذ لضياع ثروته ، وندم على فعلته ، وتكاثرت همومه ؛ ودخل اليأس قلبه من كل جهة ، وقلت بهجته بالحياة نفسها ، وزاده بالحياة ضيقا سوء معاملة زوجته له . وبقى الشيخ على هذه الحال التى وصفنا حتى أصيب بذبحة صدرية كادت

تقضى على حياته ، ولكنه نجا من الموت ، وإن لم ينج من الضعف الذى لازمه منذ ذلك الوقت ، وحدّ من نشاطه ، وأثر فى قوته .

هكذا اصطلحت على الشيخ أسباب كثيرة : فمن عناد نفسى أو صراع داخلى ، إلى ارتباك مالى ، إلى تعاسة زوجية ، إلى ذبحة صدرية . فليس عجيبا بعد ذلك أن يترك الرجل فى نهاية الأمر هذا العمل الذى توفر عليه نحواً من خمس وعشرين سنة . فقد أصبح لايجد فى نفسه قوة على أدائه ، ولا يأنس من أعضائه نشاطا على النهوض به . وحين أتيحت له فرصة السجادة الوفائية أحب أن ينتهزها ليلقى عصاه عندها ، ويستقر بها ، ويركن إليها ، كما يفعل المسافر فى رحلة شاقة حين يؤوب إلى منزله ، ويستلقى استلقاء على فراشه ، لينال قسطا من الراحة من طول السفر .

وفى ٦ مارس سنة ١٩١٢ أقيمت له حفلة تقليدية بسراى عابدين لم يسبق لها نظير ، وخلعت عليه الخلعة الخاصة التى تمنح فى العادة من ولى الأمر بهذه المناسبة ، وذلك بحضور السادة العلماء ، وعلى رأسهم شيخ الأزهر ، والنظار ، والكبراء ، ومن إليهم .

إذ ذاك بعث أحمد فتحى زغلول (باشا) إلى السيد على يوسف يقول : « ياشيخ : والله إنى أريد أن أهنئك تهنئة دونها كل التهانى ، ليس بمنصبك الجديد ، ولا بأسف الناس على اعتزالك الصحافة بعد أن خدمتها تلك المدة الطويلة ، وبعد أن لاقيت فى سبيلها كل صعب فذللته ، وسرت فى كل حزن فسهلته .

إنما أهنىء فيك همة بنيت لها بعزيمتك الصادقة قصراً تقصر دونه الهمم ، ومجداً لم يأته الفتور من بين يديه ولا من خلفه ، وبذلك الدرس العالى الذى ألقيته على الأمة بعملك المجيد ، ونجاحك الباهر ، وفوزك المبين .

كنت لاحول لك إلا قوة إرادتك ، وصارعت الدهر فصرعته ، وقلبت أعداء الحوادث خداماً لغايتك السامية حتى استويت مكانك الذى أنت فيه الساعة سيداً مكرما مغبوطا .

فعل هذا كله مصرى صميم ، وشيخ معمم ! إنما هذبته نفسه ، وقومته حكمته الذاتية ، وحواه وجدانه النير ، وساعده عقله الرصين الخ [١] :

ويومئذ أيضا كتب السيد على يوسف يودع الصحافة بكلمة هذا نصها [٢] :

« إلى سادتى وإخوانى ورصفائى قراء المؤيد

بعد ثلاث وعشرين سنة أنشأت فيها المؤيد ، وقمت بتحريره مسئولا عنه قد اضطررت منذ أمس بمقتضى أسباب عائلية قوية أن أودع مهنة الصحافة التى أحترمها وأعتبرها من أشرف الأعمال المفيدة للهيئة الاجتماعية . بل اضطررت أن أودعكم راجيا أن تكونوا حفظة كراما خيرين ، تذكرون الحسنة وتنسون السيئة « إن الحسنات يذهبن السيئات » .

على أنى مع هذا الوداع إنما أترك وظيفة التحرير فى المؤيد ، وقد صار قوة كبرى فى خدمة الأمة ، بحيث لم أصبح فيه إلا عاملا من جملة عمال كثيرين ، وكاتبا بين كاتبين ، فهو لا يخلو يوما واحـــدا من آثار أقلام عشرات من كبار الكتاب المفكرين ، ولا يضيره ألا يكون فيه واحد من هؤلاء ، وان تتخلى عنه الأمة التى أصبح هو وديعة فى ذمتها إن تخلى عنه قلم من بين أقلام المحررين .

وفضلا عن هذا فانى إذا تركت قلمى بجانبى فلم أكسره ، وإن عطلت وظيفة لى فى المؤيد فلم أعطل فكرى وضميرى . وسأقوم بما يجب على لوطنى كلما دعانى هذا الواجب بقدر ما أستطيع .

كما أنى سأبذل جهدى فى القيام بأعباء (جمعية الهلال الأحمر) لجعلها جمعية ثابتة قادرة على الدوام أن تؤدى وظيفتها المقدسة التى تطلبها منها عواطف الإنسانية الروحية . أسأل الله أن يوفقنى وإياكم فى خدمة الأمة والملة لما يحبه ويرضاه » .

---

(١) ذكريات من حياة المرحوم السيد على يوسف : بقلم عطية على شلبى أفندى ص٧ — ٨

(٢) المصدر السابق ص ٩ .

أخلاق السيد علي يوسف :

لعل أظهر ما يمتاز به الرجل صفتان كان لهما أكبر الأثر فى تكوين شخصيته التى عرفها له التاريخ .

أما أولاهما فشدة عزمه وقوة إرادته . والإرادة القوية تزيدها المصاعب قوة على قوة ، وتمنحها الشدائد صلابة على صلابة . فاذا هـــذه الإرادة كالسيف القاطع ، أو كالصخرة التى لا تعرف الضعف ولا الوهن . وكذلك كانت حياة الشيخ من أولها إلى آخرها جهاداً متصلا ضد الظروف المحيطة به ، ومقاومة مستمرة لشتى العقبات التى اعترضته .

والأخرى من هاتين الصفتين اللتين كونتا شخصية الشيخ صفة الدهاء والمكر . وبهذا الدهاء أصبح الشيخ سياسياً ناجحاً ، وصحفيا بارزاً ، وكاتبا لا يشق له غبار . وإذا صح ما يقال من أن (الأسلوب هو الرجل) فان أسلوب السيد على يوسف — على ما سنرى — كان أدل عليه من سواه . فقد نضح دهاء هذا الرجل على الورق ، وتكلم مكره بين السطور ، فجاءت كتاباته كلها لذعا وسخرية ، وهى فى الوقت نفسه إصابة مباشرة للهدف الذى أراده ، وحزٌّ فى المفصل الذى قصد إليه . ولعل هذا الدهاء هو وحده مصدر النجاح الذى أصابه الشيخ فى ميدان الصحافة المصرية ، فى وقت كانت فيه مصر — على ما عرفت — تحت نير الاحتلال البريطانى البغيض الذى وقف للصحافة المصرية والقومية المصرية موقف العناد والمقاومة ، بل موقف الإصرار على إماتة الشعور الوطنى ، وقتل الروح المعنوى ، ووأد الحياة المصرية نفسها قبل أن تنمو وتزدهر ، وتسير فى طريقها إلى السمو الحقيق . وفى مثل هذه الظروف يظهر كتاب وأدباء من طراز على يوسف يكتبون بهذا الدهاء الذى يصبح طابعا للحياة الصحفية ، والحياة الأدبية . لا غنى عنه إذ ذاك بحال من الأحوال .

وللشيخ بعد هذا صفات أخرى تتصل بشخصه وتنبيء عنه .

ومن هذه الصفات كرمه وسخاوته ، ومروءته وأريحته . وقد وصف المنفلوطى هذا الجانب من طبيعته حيث قال :

« ورأيته يضم إلى كنفه كثيرا من أصدقائه الذين نبا بهم الدهر بعد سقوط دولة عبد الحميد ، وتنكر لهم الناس جميعاً ، خصوصاً أولئك الذين كانوا يزدلفون إليهم أيام إقبالهم ؛ ويمرغون وجوههم على أعتاب قصورهم . وكان يلاقى فى سبيل ذلك من عنت العانتين عليه ، ولوم اللائمين له مالا يستطاع احتماله »[1].

وإن ننس لا ننس ما وصف به الشيخ على يوسف من الثبات على المبدأ حين كانت المبادىء المختلفة تتعاور غيره من الرجال فيتقلبون بين هذه المبادىء كلها كما يتقلب الناس فى مختلف الثياب !

فلقد أخلص الشيخ أولا للخديو عباس ، وثبت على إخلاصه له طول حياته ، وأخلص الشيخ لصديقه الأستاذ الامام ورجال حزبه ، وبقى وفياً لهم لم يتحول إلى غيرهم ، ولم يتخل عن واحد منهم حتى فى الوقت الذى تخلى فيه عباس عن رجال هذا الحزب ، وناصبهم العداء ، ونظر اليهم على أنهم خصومه الألداء . وكان الشيخ فوق هذا وذاك حكيما حليما فى معاملة خصومه فى الرأى ، أو خصومه فى السياسة . وما منى الانجليز فى مصر بشىء مثلما منوا بأناة هذا الشيخ ورويته ، وصبره وحلمه وحنكته .

هكذا أصبح الشيخ بما اجتمع له من جميع هذه الصفات رجل مصر وواحدها فى كثير من الأزمات العنيفة التى مرت بها ؛ أو قل ثانى اثنين فى مصر فى ذلك الوقت ؛ هما مصطفى كامل والشيخ على يوسف . وكم كان

---

(١) نفس المصدر ص ١١

الوطن بحاجة إلى هذين الرجلين معا يحارب بهما الإنجليز فى ميدان السياسة ، ويذود بهما عن نفسه ضد مطامع الاستعمار .

هذا بخطابته ، وحماسته ، وقوة قلبه ولسانه ، وحذقه أساليب الدعاية لمصر فى جميع أقطار العالم ، وذاك بقلمه وحكمته وسكونه فى عقر جريدته ، يرسل منها المقالات تلو المقالات ، يناقش فيها القوم حقوق مصر ، ويرد فيها على مزاعم الطاعنين فى أهل مصر ، ويلازم فى كل هذا جانب اللين والدهاء ، ويتوخى فى كلامه أساليب السخرية والرثاء ، ويثبت للعالم كله أن استمساك الأمة الإنجليزية بالشرف كذب ومحض إدعاء .

وهكذا بينما كانت (اللواء) تطلع على الناس فى أساليبها الحماسية المعروفة بتأثير مصطفى كامل ، إذ (بالمؤيد) تطلع عليهم بأساليبها الهادئة الرزينة التى تعرف طريقها إلى العقول السليمة ذات الطابع الواقعى السياسى . فإذا أصحاب هذه العقول متفقون مع صاحب المؤيد فى الرأى الذى ذهب اليه . كانت (اللواء) تحسن أن تثير العواطف ، وتهيج المشاعر ، وتحمس الجماهير . على حين كانت (المؤيد) تحسن أن تعرض القضايا السياسية ، كما تحسن أن تناقشها وتنقدها ، وتدافع عن وجهة نظر الأمة فيها ، وتحارب خصومها بسلاح المنطق والبرهان .

على أن حياة الشيخ على يوسف لم تكن وقفاً على الكتابة فى الصحف ، أو بعبارة أخرى لم يكن الشيخ على يوسف صحفيا فقط ؛ وإنما كان زعيما وصحفيا فى وقت معا .

أما الصحافة فى هذا البحث الذى نكتبه شاهد على نبوغه فيها إلى درجة أثارت إعجاب المصريين والأوروبيين على السواء ، حتى قال عنه بعض هؤلاء (إنه أعظم صحفى فى العالم) .

وأما الزعامة فقد سلمت له من وجهين :

أولهما : أنه كان رئيسا لحزب له أهميته فى تلك الفترة — فترة

الإحتلال — وهذا الحزب هو حزب « الإصلاح على المبادىء الدستورية » ، كما سنوضح ذلك فى فصل خاص به .

وثانيهما : أنه كان ينظر إلى صاحب المؤيد على أنه لسان الشعب المصرى فى ذلك الوقت . فكان كلما حزب الأمر ، وادلهمّ الخطب ، نظر الناس إلى هذا الشيخ على أنه لسان الأمة الناطق ، وعقلها المفكر ، وقلمها الذى لا تملك غيره فى الرد على الخصوم ، أو الدفاع عن حقوق هذا الشعب الذى يعانى من ظلم الغاصبين شيئاً غير قليل .

وهكذا جمع الشيخ بين الصحافة والزعامة ، أو بين القلم والسياسة ، وتركزت فى قلمه آمال أمة بأسرها ، وكانت له خطة واحدة فى قيادتها . ومع ذلك لم يسلم من أذى المصريين والمحتلين ، ولا نجا من سخطهم وكرههم ، بل قاسى من ذلك الشىء الكثير .

وإليك وصفاً للشيخ على يوسف بقلم الشيخ عبد العزيز البشرى . قال رحمه الله :

« ليس بالطويل البائن ، ولا القصير المتردد . على أنه كان إلى الطول . يظهر فى مرأى العين نحيلا هزيلا . ولكنه كان مكتنز اللحم ، مستطيل الوجه ، واسع مساحة الجبهة ، أزرق العينين ، طويل الهدبين ، كثيراً ما ترى له فى إطراقه نظرة غريبة ساجية ، ضيق الفم ؛ على أن فى شفتيه الحمراوين شيئاً من الغلظ . تعلوه صفرة ما أحسبها من أثر مرض ، وشعر لحيته الدقيقة المنسقة يميل إلى الشقرة ، رقيق الصوت لينه إذا تحدث ، فاذا رفع صوته ضمر بعض الضمور ، وتسلخ بعض التسلخ ، فلم يكن من تلك الأصوات التى تصلح للخطابة .

وكان بعد رجلا شديد العقل ، قوى النفس ، حديد العزم ، وافر الشجاعة ، لا تتعاظمه قوة خصم بالغة ما بلغت قوة ذلك الخصم وبأسه . وإذا تحداه متحد ركب رأسه فى نضاله ، لا يبالى أين يقع المصير . وقد صح فيه قول الشاعر :

إذا همَّ ألقى بين عينيه عزمه ونكّب عن ذكر العواقب جانباً

وكان فى كثير من الأزمات التى تعرض لها المؤيد كثيراً ما يقول :

« والله ما يعنينى أن يكون الناس جميعاً فى صف واحد ، وأنا والحق الذى أعتقده بإزائهم فى صف واحد » . ومما يشاع عنه كذلك أنه كان يقول :

« أنا لا أبالى أن أخسر هذا البلد ، ففى إمكانى أن أعود فأكسبه بثلاث مقالات ! » .

ومضى عبد العزيز البشرى يصف الشيخ عليا فقال :

« فاننى لا أعرف رجلا سياسيا عظيما كان أقل الناس أنصارا وأكثرهم خصوما كما كان الشيخ على يوسف . وخصومه على كثرتهم لقد كانوا من جميع الطبقات ، وكانوا من جميع الهيئات . وأنهم ليحيطون به إحاطة الطوق من كل جانب ، وكلهم عامل على إسقاطه ، جاهد ما امتد به الجهد فى هدم المؤيد ، مذك عليه الأقلام والألسن من كل ناحية . يدمغه بتهمة الخيانة الوطنية فما دونها فى غير هوادة ولا إشفاق ... ثم إذا الشيخ يتجمع ، وإذا هو يشرع القلم شرع الرمح الردينى ، وإذا هو يطعن الطعنة البكر ها هنا مرة ، وها هنا مرة ، فلا يصيب إلا الكلى والمفاصل ، وإذا هؤلاء الخصوم يتطايرون عنه تطاير الشعراء عن ظهر البعير إذا انتفض ، وإذا المؤيد يرن فى البلد رنينه ، بعد ما تردد تأوهه وطال أنينه .

وقد عرفت أن الشيخ على يوسف كان مبغضاً إلى الكثرة فى البلاد .

وإن هذا البغض ليرجع فى الأكثر إلى أسباب صناعية . منها المناقشات الصحفية ، ومنها الغيرة من موضعه يومئذ من ولى الأمر . ومنها أنه كان هناك رجال أقوياء ببسطة الجاه وسعة الغنى ، وفيهم كذلك من ذهب لهم فى العلم والأدب صيت وذكر ، وكان هؤلاء لا يستريحون إلى سياسة القصر ،

فهم بالضرورة ينقمون من كل رجل يواليه القصر ، وخاصة إذا كان رجلا كالشيخ على يوسف جبار العقل ، جبار القلم !

ومع هذا كله ففى يوم الحِلّ ، يوم تحدث الأحداث القومية ينفض الناس قلوبهم حتى يتساقط منها كل ماعاق بها من الحقد على الشيخ على يوسف ، ويتلعون أعناقهم نحو المؤيد ، شاخصة أبصارهم ، مرهفة آذانهم ، معلقة فى انتظار ما يقول الشيخ أنفاسهم ، فاذا النمر الجبار يثب على فريسته من عدوان العادين وثبته ، فلا يزال يوسعها تمزيقا بمخلبه ، وضغما بأنيابه ، حتى مايدعها إلا أعظما وجلوداً (١) .

* * *

هكذا كان الشيخ على يوسف رجلا شعبياً بكل ماتحمل هذه الكلمة من معنى ، وذلك على الرغم من اتصاله بالقصر وتقربه من السلطان . وربما أنه بسبب ذلك لم نستطع أن نلم بسيرته فى فصل واحد فقط . فقد سبق القول فى بداية هذا الفصل أن الجانب القومى فى هذه السيرة التى أمامنا غلب على الجانب الشخصى فيها . ومن ثم فنحن بحاجة إلى أن تتم هذه السيرة فى فصول أخرى ، يتناول كل فصل منها جانبا واحداً من الجوانب التى لم نتحدث عنها . فلنتبع هذا الشيخ فى باقى مراحله ، ولننظر إلى طائفة أخرى من الأحداث التى مرت به فى حياته ، وكان الشعب فيها من ورائه يؤيده ويؤازره ، وترى فيه زعيما من زعمائه المخلصين ، وقائداً من قادته المحنكين .

وذلك ماسنفعله فى الفصول الباقية من فصول الكتاب إن شاء الله .

وفاة السيد على يوسف :

وتوفى السيد على يوسف فى ٢٥ أكتوبر ١٩١٣ بعد حياة قضاها فى الجهاد العنيف من أجل الوطن والحرية ، كل ذلك وسيف الاحتلال البريطانى مسلط فوق الرءوس ، وخطامه آخذ بأنوف الكثرة المطلقة من المصريين ،

---

(١) عبد العزيز البشرى . المختار . الجزء الأول ص ٢١٠ — ٢١٢ .

والاستعمار الأوروبى نار تتأجج فى صدور المستعمرين ، وشواظ يلقى به المستعمرون فى وجوه المصريين وغير المصريين . والمدنية الأوروبية تلبس لباس الراقصة اللعوب تريد أن تبتز الشبان أموالهم ، وتزعزع أخلاقهم ، وتفقدهم كل إيمان بأنفسهم وبماضيهم وتاريخهم !

فى تلك الظروف العصيبة يصبح الأدب فى ثورة ، والصحافة فى هياج ويحتدم النزاع بين الوطنيين العزل من جانب ، والاستعمار المدجج بالسلاح من جانب آخر . والعجيب أن قلم السيد على يوسف كان فى تلك الآونة شيئاً يخشاه المستعمرون ، ويحسب له رجال السياسة منهم ألف حساب. ومن ثم كانت وفاة هذا الرجل خسارة كبيرة على أمته ، كما كان انسلاخه قبل ذلك من ميدان الصحافة كارثة عظيمة على بلاده .

واستمع إلى (أحمد فتحى زغلول باشا) يقول فى رثاء السيد على يوسف :

« مات على يوسف . مات الشيخ على يوسف . مات الصحافى على يوسف مات السيد على يوسف ، أحقاً كل هؤلاء ماتوا ؟ فأى خسارة خسرنا ؟ وكم فقدنا ؟ . . .

أجل — ماعرفتُ الإقدام أنفذ فى قلب الزمان مثلما عرفته من على يوسف ولا أدركتُ بالحس إلى أى شأو تبلغ الهمة بصاحبها مثلما شهدت ذلك فيه .

رجل رمت به الأيام فى معترك الحياة وهو وحيد ، والجو أقتم ، وظلمات الحوادث تتكاثف على الأمة ، والله يعلم كيف تنكشف تلك الغمة . ساورته الشدائد وهو فى مؤيده ، وشب بنفسه ، واختط فى الحياة طريقة بذاته ، لا معين له من طارف أو تليد ، ولا ناصر له من أب أو قريب أو نسيب . ولو أنه كان من أولئك الذين يطويهم الزمان فى ثناياه ، وتطوح بهم الحياة أنى شاءت ، لما اجتمعنا اليوم لتأبينه ، بل لما عرفه الكثير منا ، بل لما عرفه أحـــد . لكنه كان رجلا استعصت نفسه الكبيرة على الزمان فقهرته ،

وكبرت همته على الحوادث فأخضعها، واستقبل الشدائد بعزم وثبات، يخدمهما فكر صحيح، ونظر ثاقب، ورأى سديد، فصيرها من عوامل مجده، وأحالها خداما لمرامه :

رام الصحافة فكان شيخها، وتطلع إلى مجالسة الملوك والأمراء فتربع فيها، واشتاقت نفسه إلى المعالى فاغترف منها ما اشتهى، لكنه ما اكتفى، وما كان ليكتفى وله تلك النفس التواقة إلى نيل مالم ينله أحد من قبل.

هل سمعتم أن الأحساب عرض يكتسب؟ هل علمتم أن الشؤون الذاتية مما يطمع فيه أحد؟ ما علمنا ولا سمعنا. لكنا رأينا قوة الإرادة تعلو على الأحساب. ورأينا صدق النية يتخطى الأنساب. فتعلمنا ما كنا نسمعه من الحكماء من أن مراد النفس أكبر منها على الدوام، ومن أن قدرة الانسان فى الوجود لاحد لها إلخ (١).

أما (السيد مصطفى لطفى المنفلوطى) فرثى الشيخ على يوسف بكلمات منها قوله :

« هكذا تقوم القيامة. وهكذا ينفخ فى الصور، وهكذا تطوى السماء طى السجل للكتب...

ما كنا نرجو لهذه الأمة غير هذين الرجلين : حيث الأمس الشيخ محمد عبده، وحيث اليوم الشيخ على يوسف. فقد كانا لها طودين شامخين رابضين على أكتافها، يمسكها الأول أن تزل بها مزالق المدنية الخالبة فيذهب دينها، ويمسكها الثانى أن تطير بها أعلام السياسة الكاذبة فتذهب جامعتها. واليوم لانرجو لها من بعدهما أحداً، فويل للأمة فى دينها، وويل لها فى جامعتها. الخ » (٢)

---

(١) ذكريات من حياة المرحوم السيد على يوسف : لصاحبها عطية على شلبي أفندى ص ١٦

(٢) نفس المصدر ص ١١.

ورثى الشاعر الكبير حافظ ابراهيم قلم الفقيد وجريدة المؤيد بقصيدة منها :

صونوا يراع عليّ في متاحفكم … وشاوروه لدى الأرزاء والنوب
واستلهموه إذا ما الرأى أخطأكم … يوم النضال عن الأوطان والنشب
قد كان سلوة مصر في مكارهها … وكان جمرة مصر ساعة الغضب
في شقه ومراميه وريقته … ما في الأساطيل من بطش ومن عطب
كم ردّ عنا وعين الغرب طامحة … من الرزايا وكم جلى من الكرب
له صرير إذا جد النزال به … ينسى الكماة صليل البيض والقضب
ماضر من كان هذا في أنامله … أن يشهد الحرب لم يسكن إلى يلب[1]
فلو رآه (ابن أوس) ما قرأت له … (السيف أصدق أنباء من الكتب)
ألا فتى عربي يستقل به … بعد الفقيد ويحمى حوزة الأدب
ويمنع الحق أن يغشى تبلجهُ … ما في السياسة من زور ومن كذب
أودى فتى الشرق بل شيخ الصحافة بل … شيخ الوفائية الوضاحة الحسب
أقام فينا عصاميا فعلمنا … معنى الثبات ومعنى الجد والدأب
وراح عنا ولم تبلغ عزائمنا … مدى مناها ولم تقرب من الأرب

* * *

كم أرجفوا بعد موت الشيخ وارتقبوا … موت (المؤيد) فينا شر مرتقب
وإن يمت تمت الآمال في بلد … لولا (المؤيد) لم ينشط إلى طلب
صُبابة من رجاء بين أضلعنا … قد بات يرشف منها كل مغتصب
ألم يكن لبني مصر وقد دهموا … من ساسة الغرب مثل المعقل الأشب؟
كم انبرت فيه أقلام وكم رفعت … فيه منابر من نظم ومن خطب
وكان ميدان سبق للأولى غضبوا … للدين والحق من داع ومحتسب
أي الصحائف في الطرين قد وسعت … رد (الإمام) مزيل الشك والريب؟

---

(١) اليلب الدروع من الجلود : (القاموس المحيط) .

أيام يحصب (هانوتو) بفريته   وجه الحقيقة والإسلام فى نحب[1]

لولا (المؤيد) ظل المسلمون على   تناكر بينهم فى ظلمة الحجب

تعارفوا فيه أرواحا وضمهمو   رغم التنائى زمام غير منقضب

فى مصر ، فى تونس ، فى هند ، فى عدن

فى الروس ، فى الفرس ، فى البحرين ، فى حلب

هذا يحن إلى هذا وقد عُقدت   مودة بينهم موصولة النسب

* * *

أبا (بثينة) نم يكفيك ما تركت   فينا يداك وما عانيت من تعب

جاهدت فى الله والأوطان محتسبا   فارجع إلى الله مأجوراً وفز وطب

واحمل بيمناك يوم النشر ما ذنشرت   تلك الصحيفة فى دنياك وانتسب

---

(١) النحب من نحب من باب كضر بمعنى صاح وبكى : مختار الصحاح .

الفصل الثاني

على يوسف وجريدة المؤيد

فى الثامن من شهر ربيع الأول عام ١٣٠٧ للهجرة ، الموافق لأول ديسمبر عام ١٨٨٩ للميلاد أصدر الشيخ على يوسف جريدته ، « المؤيد » . من أولى الجرائد اليومية فى الديار المصرية . وهى وإن سبقها إلى الظهور — فيما نعلم — جريدتان يوميتان ، هما جريدة (صدى الأهرام) التى صدرت عام ١٨٧٦ ودامت إلى عهد الثورة العرابية ، (وجريدة الطائف) لصاحبها السيد عبد الله النديم ، لسان حال الثورة ، فمن المحقق أن المؤيد هو أدوم الجرائد اليومية فى مصر فى القرن الماضى ، وأطولها عمراً ، وأجلها خطراً ، وأعظمها أثرا ، وأرفعها منزلة .

والحق أن صدور جريدة يومية لها هذا الخطر يعتبر حادثاً هاماً فى تاريخ مصر الحديثة يستحق فى الواقع كل التفات واهتمام ، وخاصة إذا كان قد أقدم على هذا العمل الخطير شاب أزهرى فقير كعلى يوسف ، كان لا يملك من الوسائل المادية أو المعنوية ما يؤهله لتحمل هذه التبعية التى تثقل كواهل العصبة أولى القوة . وقد مر بك بعض الصعاب التى اعترضت هذا الشاب فى طريقه ، ولكنه تغلب عليها بواحدة فقط من صفاته ؛ هى قوة العزيمة .

ونحن حين نستحضر فى أذهاننا صورة رجل نشيط كان يوماً ما مديراً لسياسة جريدة كبيرة كجريدة المؤيد ، وحين نستحضر فى أذهاننا طوائف الرجال العظماء الذين كانوا يختلفون إلى إدارة هذه الجريدة يوماً بعد آخر ، وحين نستحضر فى أذهاننا كذلك صورة لشتى الأحاديث القيمة التى كانت

تدور فى إدارة الجريدة ، وفى حضرة مديرها — نقول : حين نستحضر فى أذهاننا كل ذلك نعرف أى رجل ذلك الذى كان يلتقى فى مكتبه بكل هذه العقول على اختلافها ، وتنصبُّ فى جريدته كل هذه الأفكار على تباينها . ثم جاءت جريدته صدى لجميع هذه الأفكار والآراء ، وكان على مدير سياستها إذ ذاك عمل هام ، هو إحداث الإنسجام التام بين جميع هذه المواد ، ثم تقديمها إلى جمهور القراء شرابا سائغا ، وطعاما شهيا ، بل معرضا جميلا لآثار العقل المصرى تارة ، والعقل الشرقى تارة ، والعقل الأوربى تارة ، والعقل الأمريكى فى بعض الأحيان .

ولقد عبر الخديو عباس فى مذكراته عن ذلك فقال :

« كان المؤيد فى الواقع يحفل بالمقالات العظيمة بأسلوبها البارع وأفكارها العميقة . وكان الشيخ بأسلوبه اللاذع ، وبلاغته التى لا تغيض ، وعاطفته التى كان يطامن من غلوائها — لحسن الحظ — فلسفة إنسانية فائقة قد غدا أستاذاً بفضل اتصاله اليومى بالشخصيات البارزة فى كل علم وفن . وكان يتحدث إلى القراء فى مسائل تستثير مخيلاتهم ، لأنها تمس مستقبل البلاد وتاريخها فى الوقت نفسه [١] » .

وفى الحديث عن الظروف التى نشأ فيها « المؤيد » يجعل بنا أن نلفت النظر أولا إلى أن الاحتلال البريطانى فى مصر استطاع بنفوذه وجبروته أن ينشىء له جريدة مصرية عربية تتحدث بلسانه ، وتعبر عن آرائه واتجاهاته ؛ وهى جريدة المقطم التى تم إنشاؤها عام ١٨٨٨ . إذ ذاك عز على الوطنيين فى مصر أن يكون للإحتلال البريطانى فيها جريدة ، ولا تكون لهم فى بلادهم مثل هذه الجريدة ، وانتظر الناس يومئذ فى شوق وتلهف أن تصدر جريدة وطنية تناهض جريدة المقطم وتقف لها بالمرصاد . وحين أبدى

---

(١) راجع جريدة المصرى بتاريخ الاحد ١٣ مايو سنة ١٩٥١ .

الشيخ على يوسف رغبته فى إصدار جريدة « المؤيد » وجد معونة صادقة له من جانب الوطنيين جميعا . وفهم الشيخ على يوسف منذ أول الأمر ما على « المؤيد » من واجب نحو هذا الوطن المحتل ، وأدرك هذا المعنى إدراكا حسناً وقام على تنفيذه كذلك بضمير حسن .

وهكذا ظهرت جريدة « المؤيد » فى الوقت الصحيح ، واختار لها القدر الرجل الصحيح ، واتخذت لنفسها إذ ذاك المنهج الصحيح . وهذه كلها خطوات وفق فيها صاحب « المؤيد » توفيقا عاد بالخير والبركة عليه ، كما عاد بالخير والبركة على أمته .

* * *

وافتتح الشيخ على يوسف أول عـــدد من أعداد جريدة المؤيد بقوله :

بسم الله الرحمن الرحيم

أفتتح المقال بحمد من نسأله التأييد فى القول والعمل ، واستهل ببراعة الشكر لمن فى قوته أن يعصمنا فى كل الأحوال من الخطأ والزلل . فلله الحمد سبحانه خط قلمه فى اللوح ما الكل عليه الآن ، وما يكون وما كان . ونثنى بميمون الصلوات على خير خلقه المبعوث إلى كافة الناس بشيراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً ، مؤيداً بالحق المبين ، ذى القوة المتين ، مدبر هذا العالم ، ومبدع نظام الأمم فى توجيه إرادة العمل إلى إظهار جريدة سياسية يومية تلازم منهج الحق أمام الخلق ، وتنادى على منبر الأمة بصوت الذمة . تناجى القراء بلسان عربي مبين خدمة لأبناء الوطن وقياماً بواجبات بلاد نحن صور هيولاها ، وكنه حقيقة معناها .

أقول تلك الأوطان وهى عبارة يفسرها ما قد حوته من الناس . وما لنا ألا نقوم بشعائر تطالبنا بها الاحساسات الطبيعية ، والحاجات الوطنية ،

وذواعى الحياة المدنية والأدبية ، وكمال التحقق بحقيقة وحدة الجامعة الجنسية . فنسألك اللهم أن ترشدنا إلى الخير ما أردنا وأحسن ماتريد ؛ وأن تؤيدنا بعنايتك الصمدانية . فانك الفعال لما تريد ؛ وأن توفقنا فى تأدية حقوق الخدم ، لنأمن زلة القدم وذلة الندم ، ويامن اليك إنابة الضعفاء فى السراء والضراء أنت حسبنا ونعم الوكيل .

(مقاصـــد المؤيد)

علمنا الدهر بمطالعة الأخبار ، ووعظنا بغرائب الآثار ، ودربنا بالإنذار والاعتبار ، وجلا عن قلوبنا ظلمات الجهل ، فأبان لنا أن أعمال السلف مدرسة الخلف ، نتلق فيها أن خدمة الأوطان من أوجب الواجبات ، وألزم الفرائض . من أضاعها قضت عليه شريعة الطبيعة بالحرمان الأبدى والشقاء الدائم .

فما قصدنا من نشر المؤيد إلا تأدية ذلك الفرض عن طهارة طوية ، وإخلاص نية . وإنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرىء مانوى ، ولكل عامل وجهة يقصدها ، عليها يكون الجزاء . وليس فى عمل العاملين ، وجد المجدين أبر ، ولا أفضل من نصيحة مستنصح ، وإرشاد مسترشد . وما دام الكل فى حاجة إلى التعاون والمشاركة فلا غنى لهم عن تبادل الأفكار ، ومعرفة الأخبار ؛ عما يدعو اليه صلاح شأنهم . وقوام معيشتهم .

والناس رجلان : حاكم ومحكوم ، وبينهما مطالب متبادلة ، وحقوق متكافئة . إن سكت عنها صريح المقال أبان عنها لسان الحال . ووظيفة الجرائد الصادقة فى البلاد شرح مطالب الفريقين ، وترجمة أفكار الهيأتين .

والمؤيد جريدة وطنية يقصد أن تكون على هذا المبدأ سفير الخير ، وبريد المطالب . وكما أنه سيشرح إحساسات الهيئة المحكومة مجتهداً فى إظهار ما بزواياها من خفايا الحاجات بين يدى الهيئة الحاكمة ، وإن كانت هى أوسع

علماً ، وأصدق خبراً وأطول باعا ، وأدرى بطلائع الأوقات ، وأعرف بمواقع الحاجات . فكذلك يبين للأمة مايحسن فيه الطلب ، وينال بهالأرب، ويسمع به النداء ويقبل عنده الدعاء ، ويكون به استجلاب المنافع ، وفيهرفع المضار ، غير ناكث عهداً، ولا خافر ذمة . وكيف ونحن بعض من نطالب بحاجاتهم، ونعمل للحصول على مرضاتهم . ومهماجدَّ سوانافى خدمتناواجتهد، أو هجرت عينه الغمض فلا تقوم النافلة مقام الفرض ، وليس من المروءة ألا نشارك من جاد علينا بخدمة الوطن ، وندع نواظرنا لفتور الوسن .

فلا يسعنا إلا أن نقوم بهذا الواجب معترفين لمن سبقنا بما له من فضل السبق ، وأحقية الشكر على ما أداه من الخدمة الجزيلة فى هذه البلاد .

فاليكم يابنى مصر جريدة نشأت فى مهد الإخلاص حميدة المبدأ والغاية. تناجيكم ولا تسر النجوى لسواكم . وقد أخذت على عهدتها بث الأفكار المفيدة ، والأخبار الصادقة ، والمبادرة إلى نشر الحوادث الداخلية ، من الإعتبار والتحذير ، أو الترويج والتبشير ، لأن الميل إلى اقتطاف الأخبار ، والرغبة فى استطلاع ما يكون من الأفكار من ودائع الفطرة البشرية ، غير تاركة شأن التجارة الداخلية والخارجية . بل من واجباتها البحث فى حقيقة الأسعار ، ومبادلة التجار ، والأخذ والعطاء ، وحركات الأسواق ، وهبوطها وصعودها ، والنظر فى أسباب الارتفاع والانحطاط . ومن واجباتها نشر كل ما يهم الوطن معرفته من الحوادث معتمدين فى ذلك على البرهان القوى ، والسند الثبت ، والعقل والنقل ، وحكم الظروف واختلاف المقال ، ورعاية المصلحة الوطنية ، والخدمة الحقيقية، بعد التروى الصادق ، والبحث الدقيق ، وإرسال النظر خلف كل سانحة . ونسأل الله العالى الأعلى أن يكشف عن بصائرنا حجاب الإلباس فى الأشياء، حتى نرى الحقائق كما هى ، كيلا نضل ونشق . والسلام على من اتبع الهدى .

(إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد) .

ومضى الشيخ يكتب فى جريدته ويفسح المجال معه لكبار المصريين والشرقيين فى وقت معا ، وما لبثت المؤيد أن أصبحت فى وقت قصير سجلا لتاريخ مصر السياسى ، وتاريخها الإدارى ، وتاريخها العلمى ، وتاريخها الاقتصادى .

ولكن عز على أعدائها يومئذ أن يروها تنمو وتزدهر ، وتنير السبيل لكل من يريد العمل فى سبيل هذا الوطن ، فوضعوا فى طريقها العقبات ، وحاكوا لها المؤامرات أملا فى القضاء عليها قبل أن تستأثر بحب الأمة ، وتصبح جزءا من كيانها ، وعنصراً من عناصر وجودها ، وعاملا فى نهوضها من كبوة الاحتلال البريطانى .

وقد ذكرنا للقارىء (أولى) تلك الصعاب التى واجهت الشيخ فى مستهل حياته الصحفية ، وهى الصعوبة التى نجمت عن اختلافه مع شريكه أحمد ماضى ونريد أن نمضى معه فى ذكر الصعوبات التى تغلبت عليها إرادة الشيخ وهزمتها ، وأفسحت الطريق لجريدته فلبثت تعمل فى الميدان الوطنى قرابة ربع قرن.

(فالثانية) من تلك الصعاب التى نتحدث عنها أنه اتصل بمسامع الخديو توفيق بعد صدور الجريدة أن « المؤيد » لسان حزب وطنى يعمل سراً على عزله عن العرش ، كما عزل إسماعيل من قبل ، فأوجس الأمير خيفة من هذه الصحيفة ، وفكر فى قتلها وهى فى مهدها . ولكن المنية عاجلته ، فمات فى العام الثالث فقط من حياة هذه الصحيفة .

(والثالثة) من تلك الصعاب التى واجهت صاحب «المؤيد» أن الحكومة المصرية أصدرت أمراً منعت فيه جميع الدواوين الحكومية أن تمد المؤيد بمعلومات رسمية مهما كان نوعها . وكانت الحكومة المصرية مدفوعة إلى ذلك بوحى من الوكالة البريطانية التى نظرت إلى جريدة المؤيد — بعد اجتيازه مرحلة الطفولة — على أنها جريدة وطنية مناهضة للسياسة البريطانية . فأرادت الوكالة يومئذ أن تفقد المؤيد قيمتها كصحيفة إخبارية ، ليكون ذلك سبباً فى زوالها إلى الأبد .

(والرابعة) من هذه المصاعب التى نشير إليها نظر الأجانب فى مصر والنزلاء والقناصل بها إلى هذه الجريدة على أنها نذير السوء ، وعلى أنها كارثة حلت بالاحتلال الأجنبي فى مصر . وإذ ذاك لم يجد الأجانب ما يدخلون به على هذه الجريدة غير باب واحد ؛ وهو باب التعصب الدينى الذى رموها به رمياً بغير تبصر أو تعقل . وانبرت جريدة المؤيد تدافع عن نفسها ، وعن المصريين معها ضد هذه التهم الخطيرة ، حتى أصبحت بعد قليل من الزمن لسان الشعب المصرى .

(والخامسة) من الصعاب « قلم المطبوعات » . وكان سيفا مصلتا على رقاب الصحف عامة ، وصحيفة المؤيد خاصة . وكان يرأس هذا القلم إذا ذاك بعض الأجانب . فكان هذا الأجنبي يقعد المؤيد كل مرصد ، ويقسو عليها كل قسوة ، ويناقشها الحساب لأتفه الأسباب .

وقد ذكرنا من قبل فى (التمهيد) كيف عارض صاحب المؤيد معارضة قوية فى إصدار قانون المطبوعات الجديد ، كما أشرنا إلى المناقشة التى دارت بينه وبين الخديو عباس بشأن هذا القانون . فلا حاجة بنا إلى إعادة القول فى ذلك .

(والسادسة) من تلك المصاعب خوف الباب العالى شر هذه الجريدة . وقد كان السلطان — كما رأينا فيما مضى من فصول هذا الكتاب — يخاف كل شىء ، بل يخاف على حد تعبير المتنبى غير شىء . ومنذ أن علم بأمر هذه الجريدة الوطنية الجديدة فكر فى إعادة التجربة التى جريت أيام سعيد ، حين بعث السلطان يومئذ إلى القاهرة برجل يقال له (اسكندر افندى شلهوب) ليقوم فيها بنشر جريدة (السلطنة) . وقد بعث السلطان فى هذه المرة (بحسن باشاحسنى) من الآستانة إلى القاهرة ليتولى فيها إصدار جريدة (النيل) لا لشىء إلا لمحاربة المؤيد وصاحبه فى ذلك الحين . ولكن مصير جريدة النيل لم يكن خيراً من مصير جريدة السلطنة . فقد سقطت الجريدة

الأخيرة كما سقطت سابقتها فى مجال الصحافة . وهكذا حبط عمل السلطان ، وبقيت «المؤيد» وحدها تملأ الميدان ؛ والشعب المصرى من ورائها يؤيدها بكل قوته .

(والسابعة) من هذه الصعاب (قضية التلغراف) وغيرها من القضايا التى شغلت بال الرأى العام ؛ وهى القضايا التى كان يقف فيها الشعب المصرى فى جانب ، وتقف السلطات الانجليزية نفسها فى جانب آخر ، وكان الظفر فيها غالبا للشعب المصرى على الغاصب الأجنبى . وكانت « المؤيد » مسرحا لقصة هذا الجهاد الطويل الذى كان على المصريين أن يبذلوه فى سبيل التخلص من عار الاحتلال البريطانى .

الحق — لقد كانت كل واحدة من هذه الصعاب خليقة بأن ترد الشيخ عن عزيمته ، أو تهيئ من قوته ، أو تعود بالأذى الحقيق بل التعطيل الأبدى لجريدته . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن . وبقيت « المؤيد » — كما قلنا — مؤيدة من الله ومن الشعب المصرى الذى آثرها بحبه ، وحاطها برعايته . بل بقيت المؤيد معرضاً لأقلام الكثيرين من صفوة المصريين ، ومدرسة عالية يتعلمون فيها دروساً فى السياسة والكتابة . ومن هذه الصفوة — على سبيل المثال — قاسم أمين ، وسعد زغلول ، وعبدالسلام ذهنى ، وتوفيق البكرى ، وأحمد تيمور ، وإبراهيم الهلباوى ، والسيد مصطفى لطفى المنفلوطى ، وذلك الشاب الذى كان بعد طالباً فى مدرسة الحقوق ؛ وهو مصطفى كامل وغيرهم . كما كان يكتب فيها من غير المصريين الأستاذ كرد على ، والمستشرق ا. ميجو والشيخ عبد القادر المغربى والأخير من أصدقاء الشيخ محمد عبده وتلاميذه منذ كان الإمام فى بلاد الشام مدة من الزمان . ومازال عضواً فى مجمع فؤاد الأول للغة العربية إلى يومنا هذا .

ولا ننس كذلك أنه كان من محررى المؤيد كاتب اشتهر عن طريق هذه الجريدة شهرة كبيرة ؛ وهو الشيخ عبد الحميد الزهراوى وكثيرون غيره من كتاب الشام والمغرب وسائر الأقطار الشرقية الإسلامية .

وأخذت (المؤيد) تنمو وتزداد، حتى أصابت من ذلك حظاً لم يحلم به صاحبها. فقد بلغ مجموع النسخ التى طبعت من المؤيد فى السنة الأولى ثمانمائة، وفى الثانية مائتين وألفاً. وفى الثالثة ألفين. وبقيت على ذلك فى السنتين الرابعة والخامسة. ثم فى السادسة بلغت ألفين وثمانمائة. وفى السنة السابعة أربعة آلاف. واستمرت على ذلك حتى شهر أغسطس سنة ١٨٩٦ م. ثم ما كادت تظهر القضية التى سنشير إليها — وهى قضية التلغرافات — حتى كان متوسط مايطبع من المؤيد يومياً ستة آلاف نسخة. أما ما كان يطبع فى أيام المرافعات فكان يتراوح بين عشرة آلاف نسخة وإثنى عشر ألف نسخة؛ وهو مالم تصل إليه جريدة ما فى مصر والبلدان العربية إلى ذلك الوقت [١].

ولقد أخذت «المؤيد» على عاتقها منذ بداية الأمر أن تعالج على صفحاتها وبأقلام أولئك الكتاب موضوعات شتى:

منها الموضوعات الوطنية، كموضوع الأمة والحكومة، وموضوع السخرة، وموضوع الاحتلال العام، وموضوع الأمانى القومية وغير ذلك.

ومنها الموضوعات الأدبية كموضوعات الترف، والعدل، وقيمة الوقت، والتمدن، وأسباب التقدم، والاصلاح الخلقى الخ.

ومنها الموضوعات الادارية كهيئة الحكومة المصرية، وكالتقارير والقوانين والمشروعات والتعديلات التى تصدرها الحكومة.

ومنها الموضوعات القضائية وما يتصل بالمحاكم المصرية على اختلافها والأحكام التى تصدر عنها، والاقتراحات التى تريد أن تدخلها على القانون لتعديله، مع الاشارة إلى بعض القضايا الشهيرة الخ.

---

(١) راجع فى ذلك: إلياس زاخورة فى كتابه (مرآة العصر) السابق الذكر.

ومنها الموضوعات العلمية والتعليمية كموضوع التربية والتعليم فى مصر ، وكالتقارير التى يكتبها رجال التعليم من مثل عبد الله (باشا) فكرى وغيره . مع العناية بأخبار المؤتمرات الهامة ، كمؤتمر برلين الطبى ونحو ذلك .

ولقد كانت المؤيد تعنى عناية كبيرة بأخبار الدولة العلية وبانكلترا ، فكتبت فى موضوع الجلاء . وكانت تهتم اهتماماً خاصاً بتقارير المعتمد البريطانى .

كما كانت المؤيد تقصر بعض جهودها على السودان ، فكتبت فى العلاقة بينه وبين مصر ، وأخذت تنادى باسترجاع هذا القطر ، وتكتب عن رحلات ستانلى فى السودان الخ .

على أن جريدة المؤيد لم تكن تغفل إلى جانب ذلك كله أمر القارة الأفريقية : فكتبت عن الحبشة مع إيطاليا ، وعن الروسيا وإيطاليا فى الحبشة ، وعن المستعمرات الأوروبية فى داخل القارة الأفريقية ، وعن زنجبار ومراكش الخ .

أما المقالات السياسية الخالصة فكانت تحتل مكانها الممتاز فى صحيفة المؤيد . ودع عنك السياسة المصرية الانجليزية ، وانظر إلى السياسة الدولية فثم تجد (المؤيد) آخذة بنصيبها من هذا المجال : فمرة تكتب عن (الدول والسلام) ، وأخرى عن (منظر أوروبا السياسى) وثالثة عن (انكلترا ومستعمراتها) ورابعـــة عن (الدول العظيمة فى الشرق) وخامسة عن (إمكان نزع السلاح) ، وسادسة عن (بسمارك) ، وثامنة عن (السياسة الاستعمارية فى أوربا) بوجه عام وهكذا .

وأخيراً لم تخل صحيفة المؤيد من باب هام ، هو باب (التراجم) وفيه قدمت الصحيفة للقراء صوراً من عظماء الرجال فى مصر وبلاد أوروبا . وممن ترجمت لهم هذه الصحيفة فى عامها الأول من رجالات مصر : عبد الله (باشا) فكرى ، وشفيق (بك) منصور ، ومحمد بيرم التونسى[1] .

---

(١) راجع منتخبات المؤيد . السنة الأولى . سنة ١٨٩٠ . المجلد الأول .

وعلى هذا النحو سارت (المؤيد) اليومية سبع عشرة سنة كاملة . حتى إذا كان عام ١٩٠٦ وجدنا هذه الصحيفة الوطنية الشهيرة — وقد توطد مركزها فى مصر ، وبلغت من الشهرة حداً لم تصبه جريدة وطنية من قبل — تظهر فى ثوب جديد ، وتبدأ طوراً جديداً . ولندع لصاحبها يتحدث عنها فيقول :

المؤيد فى طوره الجديد :

ظهر المؤيد اليوم لحضرات قرائه فى طور جديد من مظهر وجوده . إذ يرونه فى حجم أكبر ، وشكل أظهر ، ومادة أغزر .

ولما كان الشىء بالشىء يذكر فقد عن لنا أن نرجع بالقارىء إلى ذكرى أطوار المؤيد من يوم نشأ إلى هذا اليوم الذى يخطو فيه للأمام خطوة جديدة .

قبل سبعة عشر عاما هجرية وبضعة أشهر ، وفى أواخر سنة ١٨٨٩ أفرنجية كان صاحب الجريدة يصدر صحيفة أدبية أسبوعية باسم (الآداب) . وكان كثيرون من القراء يعجبون بها ، ويلتذون من قراءتها . فكانت همته منصرفة يومئذ إلى تحسينها وجعلها أفيد مما هى عليه . ولم يكن يفكر فى إصدار صحيفة سياسية يومية للأسباب الآتية :

فقد سنحت لى فرصة بعد ذلك قُدمت فيها إلى دولة الوزير الجليل رياض (باشا) وكان يومئذ رئيس الوزارة المصرية فى عهد المغفور له الخديو السابق توفيق (باشا) فأشار علىّ بعض المقربين من دولته أن أسترخص منه إصدار جريدة سياسية يومية . ولكنى ترددت كثيراً فى ذلك لعلمى أن جريدة يومية سياسية تصدر من مصرى مسلم بعد خلو القطر من جرائد مصرية مسلمة سبع سنين ، جريدة قادرة على أن تعيش بين الصحف القوية التى كانت قابضة إذ ذاك على أميال القراء اختياراً أو اضطراراً ، جريدة لا تتأثر بدسائس الدساسين ووشايات الواشين من الأوروبيين وغير الأوروبيين — تحتاج إلى رأس مال أكثر من مالى ، وإلى حول أكبر من حولى ، وإلى معارف جمة ، ووسائل عدة ، أنا خلو من كثير منها .

ولكن وجد دافع قوى لى بعد ذلك من استحسان دولة الوزير أو إشارته . فتقدمت إلى نظارة الداخلية مسترخصا بهذه الجريدة . وفى اليوم الذى التمست فيه الرخصة نلتها ، وظهر العدد الأول من المؤيد فى ٨ ربيع الأول سنة ١٣٠٧ (أول ديسمبر سنة ١٨٨٩) فى حجم أربع صحف قليلة المواد ، كما يرى القراء نسخته المنقولة برمتها فى الصحيفة الرابعة من عدد اليوم . وحسبهم فارقا بين مانشأ عليه وما صار إليه أن يروا العدد الأول كما هو فى صفحة واحدة من صحفه الثمان !

سار المؤيد فى طوره الأول الجديد كالوليد يأخذ كل يوم من الوجود حصته ، ومن مكانه بقدر حركته . وبينما هو يحبو حبو الطفل فى مهده إذ عصفت به ريح خبيثة من مكائد مناظريه الذين كانوا يخشون أن تعيش جريدة مصرية لمسلم ، فيستحوذ على أميال المصريين وعواطفهم . وقانون التنازع فى هذه الحياة يجعل النصال أشد فى زحزحة الغير عن مكانه من هذا الوجود ، سنة الله فى خلقه ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

جاءت هذه الريح من حيث تعصف الرياح بكل عمل يحتاج إلى التآزر فى أمة لم يفهم فيها تماما معنى التضامن فى الأعمال من حيث هو ، ولم تنم فى نفوس أفرادها ملكة حب الارتفاق كما ينبغى . ودب دبيب الخلف بين مدير المؤيد (وكان المرحوم الشيخ أحمد ماضى) وبين صاحب امتيازه كاتب هذه السطور ، بسبب ما دس أولئك الدساسون . وليس من حق هذا القلم الآن أن يزيد فى التفصيل إكراما لرفات صديق فى عالم آخر غير هذا العالم . ولكن نتج عن هذا الخلف احتجاب المؤيد عن قرائه وقتئذ من ٣٠ سبتمبر إلى ٢ نوفمبر من سنة ١٨٩١ . وكانت اليد الحاسمة لهذا الخلف هى يد ذلك الغيور المفضال سعد (بك) زغلول (وكان وقتئذ محامياً) إذ اختاره الشريك المرحوم حكما للفصل فى مواضع النزاع . فانتهى حكمه بترك المؤيد لصاحب امتيازه بعد ما أرضى محكمه بمال من عنده ومن آخرين من فضلاء الشبيبة المصرية . ويومئذ خاطبنى سعد (بك) زغلول قائلا :

لقد صار لك المؤيد بلا منازع ، فإن كنت كفؤاً لعملك فاجعل من همتك وثباتك فيه رأس مالك ، وبرهن على ثقة إخوانك بك .

وكانت هذه الكلمات أشد تأثيراً على نفسى من كل مشجع ومرغب فى عمل .

ظهر المؤيد بعد ذلك الاحتجاب ، وكنت خالياً من رأس مال له سوى القلم والصبر والاحتمال . وكانت رئاسة النظار يومئذ فى يد عطوفتلو مصطفى فهمى (باشا) . والدسائس ضد المؤيد أقوى منها قبل . وقد هال أعداءه ظهوره ثانيا ، فوشوا إلى الحكومة أن هناك جمعية سرية ذات مقاصد خفية أخذت على نفسها الإنفاق على المؤيد ، والكتابة فيه ضد الحكومة والاحتلال ، وكادت ريح الشر تؤذى أولئك الأفاضل الذين مدوا يد المساعدة بالشكل الذى شرحناه للمؤيد وصاحبه ، لولا أن مقرباً من الوكالة الانكليزية ، ومن عطوفة رئيس النظار (ونعنى به المرحوم محمد بك بيرم) تولى يومئذ تحقيق تلك الوشايات بنفسه ، فظهرت له الحقيقة التى شرحناها . وانتهى الأمر بمقابلة حضرة سعد (بك) زغلول لعطوفة رئيس النظار ليدحض بالبراهين القاطعة تلك الدسائس البالغة ، وقد كان ذلك ، ووثق الرئيس بالحقيقة التى شرحها كل الثقة ، وأعجب بفضله وشمائله ، وشكره على خالص غيرته .

ومن ذلك اليوم استمرت صلة حضرة البك بعطوفة الباشا إلى أن صارت على أكمل وجوهها ، كما يعرف القراء .

وجد للمؤيد من ذلك الحين أنصار ، كما وجد له حساد وأعداء . وكلما ازداد هؤلاء كثر أولئك . وأنا بين هذه الجواذب والدوافع اعمل جهدى لكى يثبت المؤيد ويعيش ، فلا يكون العار على المصرى أن يسجل عليه الغش كلما شرع فى عمل . ثم وجد بعد ذلك اضطهاداً من الحكومة ، ظهر بأقبح مظاهره ، حتى وصل إلى حد إقفال أبواب الدواوين فى وجه صاحبه وكتابه ومخبريه . ولم ينته هذا الدور حتى جاءت وزارة دولة رياض (باشا)

فى يناير سنة ١٨٩٣ ويومئذ ألغى عمل (قلم المطبوعات) الذى أنشىء لمضايقة المؤيد ليس إلا، يوم كانت وظيفة البارون دى مالورتى مدير قلم المطبوعات محصورة فى مطاردة المؤيد وصاحبه فى كل ديوان؛ يحاكم هذا ويطرد ذاك من المستخدمين الذين كانوا يتهمون بإعطائنا الأخبار. فلما تولى الوزارة دولة رياض (باشا) منحه إجازة لم يعد بعدها إلى العمل، وخلص المؤيد من عوامل الاضطهاد الشديدة التى كادت تقضى عليه، واستمر فى طريقه ينمو حتى كانت فى سنة ١٨٩٦ قضية التلغرافات المشهورة التى لم تنته حتى بلغ المؤيد بفضل إقبال الأمة عليه أضعاف ما كان عليه قوة وانتشاراً. ولا يزال بفضل الله عز وجل وبمؤازرة الفضلاء من الكتاب، وبإقبال القراء عليه فى المزيد إلى أن بلغ هذا الطور الجديد.

فالقراء يعلمون من مجمل هذا التاريخ أن اليد الأولى فى ظروف إصدار جريدة المؤيد كانت لدولة الوزير الجليل رياض (باشا). وأن اليد الثانية فى خلاصه من الورطة التى سقط فيها سنة ١٨٩١ كانت لحضرة المفضال سعد (بك) زغلول، والذين اشتركوا فى تلك المبرة معه. وأن اليد الثالثة التى تجلى بها فى مظهرها الفخيم سنة ١٨٩٦ كانت للأمة. وهو لا يزال فى ظلها الظليل.

أما صاحب هذه الجريدة فلا يعتبر نفسه إلا عاملا بسيطا لظهور الجريدة كبقية العمال الذين يشتغلون لصدورها من محرر وصاف حروف وطابع. وكفاه فخراً أن بقية العمال يتغيرون، وهو عامل مستمر إلى ما شاء الله أن يكون كذلك.

وتبع هذا النمو فى الانتشار والترقى على الاستمرار اختلاف الآلات التى يطبع بها المؤيد. فيوم كان عدد مشتركيه لا يتجاوزون ستمائة نسخة، وعدد ما يباع منه لا يتجاوز الستين فى القاهرة كانت الآلة التى يطبع بها صغيرة حقيرة تدار باليد الواحدة، وتطبع بالكبس، ولا يزيد ما يطبع فى الساعة على مائة نسخة. وكأن هذا شأنه فى السنتين الأوليين. ثم ازداد عدد

ما يطبع منه رويداً رويداً حتى كان فى آخر سنته الرابعة ألفا وأربعمائة نسخة ، فاضطررنا إلى شراء آلة من معمل (ألوزيه) وهى التى تدار باليدين معا ، وتطبع بكابس اسطوانى إلى ستمائة نسخة فى الساعة الواحدة . وكان هذا من ١٦ يناير سنة ١٨٩٤ حيث ظهر المؤيد فى أربع صحائف كما كان ، ولكن فى كل صحيفة ستة أعمدة .

ثم تضاعف الانتشار حتى بلغ عدد ما يطبع منه خمسة آلاف ، وكثرت المواد والاعلانات عليه حتى اضطررنا إلى جلب مطبعة ألمانية كبرى تطبع بكابسين اسطوانيين ، وتدار بالبخار . فظهر المؤيد فى ثمان صحائف من ١٦ يوليو سنة ١٨٩٩ .

وقد ذكرنا فى ذلك العدد ما يأتى بحروفه :

أصدرنا الجريدة منذ اليوم فى ثمان صفحات طبقا لرغبات جمهور القراء . ونسأل الله تعالى أن يوفقنا دائما لخدمة الأمة ، ويمدنا بمعونته لنزيد فى مواد وصفحات الجريدة كلما استطعنا إلى ذلك سبيلا .

ونحن اليوم نشكر الله عز وجل على أن تضاعف انتشار الجريدة ، وأن وفقنا بطبعها على آلة طبع من أحسن طراز أخير من اختراع الخواجة (ماربتونى) الفرنساوى المشهور باختراعاته المطبعية . ولما كانت هذه أول مطبعة من نوعها أوصى بها من مصر ، وجلبت إليها ، وبُدئ عملها منذ اليوم ، فقد دعونا الكثيرين من حضرات العلماء والذوات والأعيان لتشريف إدارة الجريدة وقت الشروع فى الطبع . وهـذا نص الدعوة التى وزعناها لذلك :

« بمشيئة الله تعالى سنبتدىء من يوم الثلاثاء ٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ فى طبع جريدتنا المؤيد على نمط جديد ، وفى حجم أكبر بواسطة آلة الطبع الكهربائية (روتاتيف) التى تطبع بواسطة صناعة جديدة غير الحروف

المعتادة ، وتنجز فى الساعة الواحدة طبع اثنى عشر ألف نسخة من الجريدة ذات الثمان صحف ، مقطوعة ، ملصوقة ، مطوية ، معدودة . فندعو.... تكم لتشرفوا إدارة الجريدة فى الساعة الثالثة بعد الظهر من اليوم المذكور لتشاهدوا إدارة هذه الآلة البديعة لأول مرة فى مصر ، ولكم جزيل الشكر؟

تحريراً فى ١٣ شعبان سنة ١٣٢٤

علی یوسف

* * *

منذ ذلك الوقت اتخذت «المؤيد» شكلا جديداً ، وأخذت تظهر للقراء (جريدة يومية سياسية تجارية) فى ثمان صفحات . وكان مقر مطبعتها بشارع محمد على بالقاهرة ، وكانت تحتوى دائما على عشر مواد ، وربما زادت أحياناً إلى اثنتى عشرة . وكانت خمس — على الأقل — من هذه المواد تتجدد بتجدد الأفكار التى تهم صاحب الجريدة ، وأما الباقى من هذه المواد فمرتبة فى أبواب تعتادها الجريدة كل يوم .

خذ لذلك مثلا — العدد رقم ٥٠٠٤ وقد صدر بتاريخ ٢٨ أكتوبر سنة ١٩٠٦ فانه يبتدىء هكذا :

فهرس :

رأى جريدة الغازيت فى كفاءة المصريين .

ما هى الحكومة النيابية ؟

أطوار المسألة الشرقية .

استئناف النيابة .

التمثيل العربى .

أخبار بريد أوروبا .

مكاتبات .

الحوادث .

التلغرافات .

إعلانات قضائية وتجارية .

فالمواد الخمس الأولى مواد متجددة . والمواد الخمس الأخيرة يجدها القارىء عادة فى كل عدد ، وربما أضيفت إليها مادة بعنوان (الإسكندرية) يؤتى فيها بأخبار هذه المدينة وأحوالها وأحيانا تضاف إليها كذلك مادة أخرى بعنوان (إنتقاد) تشمل عرضاً سريعاً لبعض المؤلفات الحديثة والترجمات والمجلات ، وتشمل نقدا لها .

والقارىء إذ يلقى نظرة عجلى إلى الأعداد اليومية التى صدرت فى أثناء هذه السنة — ونعنى بها سنة ١٩٠٦ — يستطيع أن يفرق بين موضوعات صحفية يطرقها الكاتب ثم لايعود اليها مرة ثانية ، وأخرى يطرقها الكاتب مرارا ويعالجها معالجة دقيقة قوية مفصلة .

ولا شك أن (المقالة الإفتتاحية) فى المؤيد كانت أهم مادة فيه . وكثيراً ما كان يكتبها السيد على يوسف بنفسه . وكثيراً ما يتركها لكاتب غيره ، وربما كان هذا الكاتب أحد محررى المؤيد . وربما كان موضوع المقال فى هذه الحالة الأخيرة صفحة من تاريخ رجل عظيم كنابليون ، أو اقتراحا هاما فى إصلاح الأزهر ، أو التعليم بالمدارس الحديثة ، أو كلمة مترجمة عن الفرنسية أو الإنجليزية لكاتب أجنبى له شهرة فى عالم الفكر أو السياسة ، أو تقريراً صحفياً لبعض المصريين ممن زاروا لندن وغيرها من العواصم الأوروبية ، واشتغلوا هناك بدرس المسألة المصرية ، وأحبوا أن ينقلوا للقراء صورة من فهم الأوربيين فى بلادهم لهذه المسألة .

وقد أعجبت — من جانبى — إعجابا عظيما بطائفة من المقالات نشرها المؤيد فى مكان الصدارة تحت عنوان « المقالات الأمريكية » وليعذرنى القارىء حين استطرد قليلا إلى ذكر شىء عن هذه المقالات الطريفة ، وهى

عبارة عن مجموعة من المقالات المفيدة كتبها رجل أمريكى له شهرة واسعة فى صحافة «المجلات» واسم هذا الرجل (آرثر بريز باين). وكان يبعث بمقالاته دائما إلى إحدى مجلات (هرست) الأمريكية. وكانت تلق رواجا كبيراً جداً فى بلاد أمريكا، على الرغم من أنها لم تكن تتصل بأمور السياسة.

وكان من المعجبين بهذه المقالات أيما إعجاب شاب شرقى اسمه (سليم) — كان مقيما بأمريكا، وكان ينشر بها مجلة باللغة العربية. واشتهت نفس سليم أن يحظى بلقاء هذا الصحافى الشهير فى مكتبه، ويشهد بنفسه كيف يكتب مقاله عادة. ونجح سليم فى ذلك، على الرغم من أن مقابلة هذا الصحافى كانت أعسر على طالبها من مقابلة رئيس الجمهورية الأمريكية نفسه. وإذ ذاك سأله سليم قائلا: كيف تكتب مقالاتك دائما؟

قال الرجل «أقضى نهارى فى مراقبة الناس وأحوالهم ومطالعة أفضل المؤلفات. فمتى اختمر المعنى الذى اخترته موضوعا للمقالة فى عقلى أتيت غرفتى هذه، وكتبت مقالتى على الآلة الكاتبة بيدى».

واستمتع قراء المؤيد — فى طوره الجديد — بطائفة صالحة من مقالات هذا الرجل — برغم أنها إلى طبيعة المجلة الأسبوعية أو الشهرية أدنى منها إلى طبيعة الجريدة اليومية.

هذا كله فيما يتصل بالمقالة الافتتاحية — أما ماعداها من المقالات الأخرى فى جريدة المؤيد فالحق أنها كانت تعتبر مرآة صادقة للمجتمع المصرى، وخاصة فى العشرة الأعوام الأولى من بداية القرن العشرين، وكانت المؤيد تفسح صدرها للكثيرين من كتاب المصريين، فيعالجون على صفحاتها شتى المسائل الاجتماعية، فضلا عن مشكلات السياسة والتعليم والتربية والدين. وقد عجبت كل العجب حين رأيت أصحاب هذه المقالات يخوضون فى كثير من المشكلات التى لم نزل نحن نخوض فيها إلى يومنا هذا ونحاول إقناع الحكومة بها. مثال ذلك: مسألة الضرائب التصاعدية، وفرض ضريبة

على التركات [١] ، ومطالبة الحكومة بمحاربة البغاء [٢] ثم مطالبة المتعلمين من الأزهريين بتوسيع ثقافتهم ، وتزويدهم بالعلوم الكونية والاجتماعية والتشريعية ونحوها ، حتى حمل ذلك الأستاذ فريد وجدى على التفكير فى إنشاء مدرسة لهذا الغرض، يتعلم فيها الطلبة هذه العلوم بالمجان [٣]. ثم من ذلك تشجيع الفتيات على مواصلة التعليم . ومطالبة الحكومة بمجانية التعليم [٤] ، إلى كثير من هذه الأمور التى لم يزل بعضها أمل الكثيرين من المصلحين ، والغاية التى يسعون وراء تحقيقها إلى اليوم .

وإذا كانت حادثة (دنشواى) هى أهم الحوادث التى حدثت فى عام ١٩٠٦ فقد اتخذ منها الزعيم الشاب مصطفى كامل فضيحة كبيرة ، فضح بها الانجليز أمام العالم المتمدن ، واتخذ منها الصحافى الداهية — على يوسف — قضية كبيرة بسطها بسطاً قوياً للرأى العام الشرقى .

ووجدنا جريدة المؤيد تكتب فى هذه الحادثة ثلاثاً وعشرين كلمة ضافية ، نشرت فى ثلاثة وعشرين عدداً متوالية ، وقدم لها الشيخ على يوسف بكلمة للمستر بلانت هى قوله :

لا مبالغة فى أنه بمقتضى ديكريتو (قانون) ١٨٩٥ قد يحكم على المصرى بالموت خوزقة . أو صلباً إذا ضرب الجندى الانجليزى منعا له من انتهاك حرمة زوجته [٥] .

وهكذا اتخذ المحرر من هذه القضية مادة أدبية واجتماعية وسياسية وقضائية

---

(١) راجع جريدة المؤيد . العدد ٥١٦٥ بتاريخ ١٦ مايو سنة ١٩٠٧ حيث تجد مقالا بقلم الأستاذ نجيب شقير المحامى .

(٢) نفس المصدر . العدد التالى للعدد الأول .

(٣) نفس المصدر . العدد ٥١٦٧ .

(٤) نفس المصدر . العدد ٥١٧٤ . حيث تقرأ حديثا جرى بين مراسل المؤيد وناظر المعارف سعد (باشا) زغلول .

(٥) بلانت Blant ص٢٢ .

طعن فيها الإنجليز طعنة نجلاء ، ودحض الحجج التى يستندون عليها فى رمى المصريين بهذه التهمة الشنعاء ، وهى تهمة التعصب الدينى .

ثم كان من الموضوعات التى عالجها المحرر فى أثناء ذلك العام — وهو عام ١٩٠٦ — موضوع الحكومة النيابية فى مصر ، فقد كتب فيه عشرة فصول طوال ، وربما عدنا بعد قليل إلى شرح ماجاء بفصل منها على سبيل المثال .

وعلى شاكلة هذه الموضوعات أو الأفكار عالج المحرر : موضوع المسألة الشرقية ، وموضوع الجامعة المصرية ، وموضوع الأزهر ، وما يجب له من إصلاح ، وفكرة الجامعة الإسلامية ، والرد على مزاعم الصحف الأجنبية الصادرة فى مصر ، وغيرها من البلاد الأوربية ، وذلك كله فضلا عن موضوع السياسة الإنجليزية فى مصر . وقد خصها بطائفة من مقالاته الجيدة ، كان من أهمها ما كتبه فى عامى ١٩٠٦ ، ١٩٠٧ وعرف (بمقالات قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء) ، وقد أفردنا لها فصلا خاصاً من فصول الكتاب .

والمهم أن صاحب المؤيد كان يقف بإزاء هذه الموضوعات العامة إما موقف المحامى الذى يدافع عن موكله ، إذا كان الموضوع مما يتصل بسمعة المصريين ، والرد على مزاعم الأوربيين . وإما موقف المعلم القدير الذى يحرص على نفع تلميذه ، إذا كان الموضوع مما يتصل بالحكومة النيابية ، والحياة الدستورية ، ونحو ذلك .

فى الحالة الأولى كان صاحب المؤيد يتوخى أن يرد على الانجليز بأقوال نفر منهم ، ليجعل بعضهم لبعض عـــدواً فى قضية الكفاءة المصرية ، أو السمعة المصرية ، أو الحكم الذاتى فى مصر .

ومن ذلك أنه نقل رأى جريدة « الغازيت » فى كفاءة المصريين ، وقدم للقراء خلاصة لهذه الآراء القبيحة التى روج لها الإنجليز . ثم بدأ رده على ذلك مستشهداً بكلام أحدهم ، وهو المستر ادوار إيسى الذى قال ماخلاصته :

« إن الطريقة التى اتخذناها لتعليم المصريين كيف يتولون أمورهم بأنفسهم

على قاعدة تمرينهم عن طريق الأحكام العادلة المستقيمة تحت إدارة الإنجليز إنما هي طريقة غرور ووهم ، رغم مابذلنا من العناية ، وأظهرناه من الأمانة في السعي وراء تحقيق تلك الأمانة . . . وأن كل نجاح لنا في مصر كان في حقيقة الأمر سيراً بها إلى الوراء . . . الخ » .

وفي الحالة الثانية — أعني الحالة التي يمثل فيها الشيخ علي يوسف دور المدرس للشعب المصري في مدرسة الصحافة — يتحدث الشيخ إلى هذا الشعب حديثاً سهلا ، وهو في الوقت نفسه محكوم بالمنطق والقواعد التي يعرفها كل من مارس مهنة التعليم من حيث هي . فتراه يخاطب القارئ قائلا:

« وسنجعل بحثنا سهل المأخذ كأنه دروس تلقى على طلبة ، ونتدرج من السهل البسيط ، إلى ماهو فوق السهل ؛ لأن الموضوع قديم . ولكن طريقة البحث فيه والإفاضة عنه جديدة »[1] .

ثم يمضي الشيخ في هذا الدرس من دروس التربية الوطنية ، فيقسمه إلى نقط يتحدث في أولاها عن (الوطن) وعن حقوقه وواجباته، فيقول لقرائه:

« أن الوطن لايشترى بمال ، ولكنه شيء يرثه الوطني عن آبائه وأجداده . وهو ثمرة اجتهادهم ، وبذلهم النفس والنفيس في سبيل بلادهم ومن ثم فنحن مدينون بالشكر لعمل أسلافنا . ولما كانوا قد مضوا من هذا العالم ، فلانستطيع أن نبلغهم شكرنا شخصيا . وانما كل ما نقدر أن نفعله من هذا القبيل هو أن نعترف بفضلهم . وهذا الاعتراف يكون بأن نعنى بما خلقوه لنا ، ونصونه من الأذى والسقوط . فإذا كنا نتمتع الآن بالحرية والراحة من فضل اجتهاد رجالنا العظماء وسعيهم ، وجب أن نحرص على تلك الحرية بمزيد الغيرة والاهتمام . حتى إذا جاءت الأجيال الأخرى من بعدنا أكرموا آثارنا، وأجلّوا تذكارنا ، كما نكرم نحن آثار أسلافنا ، ونجل تذكارهم . فعلينا إذن واجب مضاعف :

---

(١) راجع العدد ٥٠١٠ من سنة ١٩٠١ .

الأول : أن نهتم بالمحافظة على ما خلفه لنا أسلافنا ، حتى لايزول ولايشوه .

والثانى : أن نزيد على ما خلفوه لنا ، ليتمتع به أولادنا وأحفادنا » . إلى آخر ماقال .

أرأيت إذن إلى هذه الطريقة السهلة التى كان يكتب بها الشيخ على يوسف ؟ أرأيت إليه كيف كان مدرساً بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة عند إطلاقها ، وكيف التزم الطرق المعروفة فى فن التربية ؟ الحق أن المحرر لم يكن فى هذه الفصول وأمثالها صحفياً بقدر ما كان معلما . ولا شك فى أنه كان يقصد إلى ذلك قصداً لينجح فى أداء المهمة التى أخذها على عاتقه ، وهى مهمة تعليم الشعب المصرى هذه المبادىء التى لم تزل جديدة عليه بعض الشىء .

* * *

سار الشيخ على يوسف فى كفاحه سيراً حميداً على هذا الوجه حتى جاء الوقت الذى عدل فيه الشيخ فجأة عن طريق الصحافة ، حين بدا له يومئذ أن يكون شيخاً لسجادة !

وإذ ذاك أيضاً كانت جريدة (المؤيد) قد أمعنت فى سياسة الاعتدال والهدوء ، وهى سياسة لم تعد تتفق وهوى النشء الجديد الذى أصبح يؤثر الحركة والتمرد ، فاختفى شيخ الصحافة الحديثة من الميدان ، وترك صحيفته ليد القدر ، تصرفها كيف تشاء .

* * *

وقبل أن ندع هذا الفصل الذى نتحدث فيه عن جريدة المؤيد يجمل بنا أن نذكر شيئا عن مكاتبى هذه الجريدة ، وإليهم يوجه الشيخ على يوسف هذا المقال :

« إن أحسنوا عملا ، وصدقوا خدمة ، وتنزهوا عن الغايات ، وتنبهوا

لمصادر الأخبار والأعمال ، وخبروا حقيقة البلاد وحاجاتها ، ودرسوا أخلاق الأهالى وعوائدها ، وسبروا أدواء النفوس وأدويتها ، ودروا قيمة ما تتحمله ذممهم ، وتتكفل به هممهم من مطالب الهيئة الانسانية ، كأنها الأمانة التى عرضها الله على السموات والأرض فأبين أن يحملنها وحملها الإنسان . بما يكون على أيديهم من المنافع والمضار للهيئات بعد أن يسطره البنان أو يفصله البيان ، أو يحيط بكنهه جنان ، فحكمهم حكم أرباب الجرائد على السواء أمام محكمة العالم .

أيها الأفاضل المكاتبون الذين يعتمد المؤيد عليكم ، ويدع ثقته فى أخبار البلاد مستندة إليكم — لا تحملوه أن يعتذر بلاذنب ، أو أن يصلح خطأ يقع فى إصلاحه خطأسوا كم . فذلك مما تأباه نفوسكم ، وتأنفه هممكم . وأن قيمة الإنسان ما يحسنه ، إلى آخر ما قال [١] .

ولقد كان لجريدة المؤيد مكاتبون فى شتى أنحاء العالم . ومنهم على سبيل المثال :

الدكتور على (بك) زكى (فى باريس) والمسيو اميجو Emigo (فى لندن) [٢] والأستاذ توحيد السلحدار (فى برلين) والأستاذ زكى بك مغامز (فى الآستانة) . إلى مكاتبين آخرين فى كل من مراكش وتونس والجزائر . وكان هؤلاء يخافون على أنفسهم بطش الحكومة الفرنسية ، فلم يعلنوا عن أسمائهم . وكان للمؤيد مكاتبون آخرون أيضا فى كل من الهند ، وأفغانستان ، وإيران ، واليمن ، والحجاز ، والشام ، و فلسطين ، ومكاتب المؤيد فى هذه الأخيرة هو القلقيلى الصحفى المعروف هناك [٣] .

وبعد أن ترك الشيخ على يوسف جريدة المؤيد ، تولاها من بعده

---

(١) منتخبات المؤيد ص ٣

(٢) كان هذا الرجل من كبار موظفى شركة قناة السويس ثم تركها ليكاتب المؤيد .

(٣) اعتمدنا فى معرفة أسماء هؤلاء المكاتبين على صديقنا الشيخ المحترم عطيةأفندى شلبى

الدكتور سيد كامل الذى كان قدمه الشيخ فى يوم من الأيام إلى الخديو عباس، وتعلم بعد ذلك على نفقة سموه فى فرنسا . فلما عاد إلى مصر اختاره الشيخ لتولى تحرير الصحيفة . فظل يعمل بها إلى أن عين سكرتيراً للجناب العالى الخديو [١].

ثم تولاها من بعده كذلك الأستاذ حافظ (بك) عوض ، ومن بعده الأستاذ محمد أبو شادى ، ثم محمود (بك) الباجورى . ثم زالت من الوجود تلك الصحيفة التى كانت سجلا لأعظم محنة مرت على مصر فى تاريخها الحديث، ونعنى بها محنة الاحتلال البريطانى .

ولا نستطيع أن ندع هذا الفصل الذى خصصناه لجريدة المؤيد دون أن نتحدث فى نهايته عن هذا الموضوع وهو :

سياسة المؤيد بين سياسات الصحف المعاصرة :

عبر المستشرق المعروف (براون) فى الفصل التاسع عشر من كتابه (بونابرت فى مصر) عن رأيه فى جريدتى المؤيد والمقطم فقال :

« . . ذكرت فى الفصل السابق ماذكرت من منافع حرية الصحافة . وأما فى هذا الفصل فإننى أذكر شرورها وسيئاتها . فان فى مقدمة المؤثرات الضارة فى مصر ، بل المؤثر الرئيسى الضار هو جريدة المقطم . وهى الجريدة المعتبرة لسان حال المصالح الانجليزية الخاصة فى مصر . فقبل أن يظهر الشيخ على يوسف ، وقبل أن يعرف من أمره شىء عزم ثلاثة من المسيحيين السوريين ، وهم أصحاب مجلة علمية شهرية فى بيروت على الانتقال إلى القاهرة . فلما جاءوها نالت مجلتهم رواجاً تستحقه . ولا تزال رائجة إلى الآن . ولما كان أصحاب المجلة المذكورة ذوى مقدرة ، وكانوا متشبعين بالنشاط والاقدام الذى عرف به جنسهم ، رأوا فى الاحتلال الانجليزى فرصة سانحة لتوسيع

---

(١) وذلك على أثر سفره الى الآستانة على رأس وفد من أعيان مصر بقصد تهنئة الخديو بنجاته من الاعتداء الذى وقع عليه سنة ١٩١٤ .

نطاق أعمالهم فأنشأوا جريدة يومية — هى المقطم — قبل أن يظهر المؤيد بسنة ، أو أقل .

أما السياسة التى اتخذتها هذه الجريدة الجديدة — ولا تزال جارية عليها حتى الآن بمزيد الاصرار — فهى ذات غرضين : تأييد المصالح الانكليزية فى مصر ، والعدوان على الإسلام ، والمملكة العثمانية كلما سنحت الفرصة .

ولما كانوا لا يهمهم شىء فى صالح البلاد التى نزلوها ، وهم يذكرون دائما أن تداخل الدول الأوربية هو الذى اضطر محمد على إلى الاقلاع عن سوريا ، انصرفوا إلى عملهم برغبة وحمية . ومع أن المؤيد مالبث طويلا حتى فاز على جريدتهم بسعة الانتشار ، والاقبال العام ، فانهم تمكنوا حالا من جعل المقطم فى المنزلة التى له الآن . وهى أنه — بدون ريب — أعظم كفاءة من جميع الجرائد المسيحية العربية . وإذا استثنينا سعى المقطم وراء تعزيز السياسة التى تدافع عنها ، فالحق أولى أن يقال إنه يستحق أعظم ثناء على كيفية تحريره وإدارته .

فى أول عهد الاحتلال — حيث كانت الجريدتان المتناظرتان المؤيد والمقطم — فى حداثتهما كانت السياسة المصرية ، وبالتالى الصحافة المصرية تجرى على خطة الأحزاب المجردة . فظن كل من تداخل فى السياسة المصرية أن الواجب يقضى عليهم بانكار كل مزية أو فضيلة فى كل من عارض آراءهم . ولذلك بينما كان أولياء الأمور الانكليز يتلمسون فى ظلمات الأغلاط طريقا وسط ما تكاثف من ضباب الصعاب التى قامت فى طريقهم ، فيجربون العلاجات ، الواحد بعد الآخر للمتاعب التى اعترضتهم من الأهالى والصحافة لم يجدوا معينا لهم على الإطلاق .

وكانت خطة المقطم أن يؤيد الانكليز دائما . فلم يجد أصحابه لسذاجتهم طريقة لتأييد مصلحة انكلترا إلا التغالى والتفانى فى إطراء كل مايفعله الانكليز ، أو ينوون فعله بدون تمييز ومحاسبة فى ذلك الإطراء .

وكان المؤيد يعارض ويقاوم كل عمل استحسنه المقطم ، أو أخذ بناصره . فكانت كل واحدة من هاتين الجريدتين تجرى على خطة ؛ من شأنها أن تفسد عليها الغرض الذى ترمى إليه ، وتعرض مبدأها للخزى عندما يفشل المشروع الذى أيده المقطم وأطراه مدحا ، أو عندما ينجح المشروع الذى ذمه المؤيد ونقضه .

ومن ذلك اليوم حتى الآن لم يستفد المقطم شيئا من تلك الحوادث . ولا يزال اليوم يجرى على تلك الخطة نفسها . وأما المؤيد فإنه استفاد ، وتعلم وبلغ من دراية الشيخ على يوسف ومقدرته أنه رأى الخطأ الكامن طى هذه السياسة ، فعزم على أن يجرى على خطة أفضل . إلا أن إقدامه هذا لم يكن سهلا ، فإنه كان لا يزال شابا ، ولم يعترف له الشيوخ الذين كانوا زعماء الحزب الوطنى الإسلامى بالكفاءة اعترافا كاملا . ولم تكن جريدته قوية إلى حد أن تختار لنفسها الخطة التى تريدها . وكان وجودها ونفوذها ومستقبل صاحبها أيضاً متوقفا بتمامه على مساعدة الرجال الذين ادعوا لأنفسهم الزعامة . وحسبوا أن من حقهم إصدار الأوامر لا الاستفادة من الآخرين . وفضلا عن هذا اعترض الشيخ عليا أمر آخر أشد خطراً ، وهو أن يتخذ سياسة تستميل الذين لا سبيل إلى استمالتهم ، وأن يوفق إلى خطة لتأييد تلك السياسة .

وكان يعتقد يومئذ ما لا يزال يعتقده الآن — أسوة بجميع المصريين وسائر الشرقيين غير المسيحيين — أن صداقة انكلترا ممكنة وموافقة ، أكثر من سائر الدول الأخرى .

على أنه كان من رأى الحزب الوطنى المصرى يومئذ التظاهر بتفضيل فرنسا . وعليه — كان ينتظر من الجرائد الإسلامية أن تؤيد فرنسا ، وأن تعتبر الفرنساويين أصدقاء الإسلام وأنصاره . ولو أن الشيخ علياً طعن

على هذا الرأى ، وعارض هذه الخطة ، لكان تهوره هذا الضربة القاضية على المؤيد .

تجلت له هذه الحقيقة ، ولكنه رجل لاتثنى الصعاب عزيمته ، ولاتخيفه الأخطار ، بل كان يرى الصواب صوابا ، والخطأ خطأ . ورأى أن الواجب يفرض عليه — بصفته من علماء الدين — أن يذيع الحقائق ، وينشر الحق . ولكن لابد من الفشل إذا اقتحم الأميال والتحزبات السائدة اقتحاما . وعلم أنه إذا طلب الفوز والنجاح فلا يتم له ذلك إلا تدريجيا ، وأن يسعى وراء تحويل الآخرين شيئا فشيئا إلى أمياله وآرائه ، بنشر مبادئه على مهل ، وأن يبثها فى النفوس بطريقة خفية .

وانتشار الجريدة وكتاباتها لاتدل فى الشرق غالبا على قوة صاحبها ونفوذه الحقيقى . لأن صاحب الجريدة يتمكن غالبا من جر الفوائد ، وإنجاز المقاصد بواسطة نفوذه الشخصى خارجا عن جريدته ، بأكثر من استطاعة أعظم نصير لها فى أعمدة الجريدة . كذلك كان حال الشيخ على . فقد كان هناك رجال من ذوى النفوذ يصغون بكل اهتمام لكل ماأراد الشيخ أن يقوله لهم فى محادثة خصوصية ، ويقبلون آراءه ، ويعملون بها . إلا أنهم ينكرون على الجريدة التهور بإذاعة تلك الآراء نفسها على العموم .
وقد عمد الشيخ على — بإقدام وتحفظ — إلى تكييف آراء أنصاره ، وكان يدخل فى أذهانهم الآراء التى يريدها ، كما يدخل الطبيب حبوب الدواء المر ، وهى محلاة بالسكر .

وتمكن على مهل وبثبات من التغلب على العقبات القائمة فى طريقه ، فأخذ الناس يميلون إلى رأيه ، حتى مال إليه أولئك الذين أنكروا عليه تلك الآراء ، واعترفوا بصواب عمله .

ومرت الأيام ، وانقضى بمرورها ذلك الميل المندفع القديم الذى كان يذهب إلى عدم التسليم . وطرأت تغييرات كثيرة ، وظل الشيخ فيها يتقدم

ويفوز . وكما أن الأجسام الساقطة تستجمع فى سقوطها قوة وسرعة ، فان النهضة العقلية أيضاً تستجمع قوة وسرعة فى صعودها وارتقائها ، ورغماً عن جميع الصعاب التى لا يكللها إلا الشجاعة والصبر والكفاءة أدرك الشيخ على غايته ، وبدون أن يعلم كيف ولماذا ، بل بدون أن يعلم أنه نال مايريد وإذا بالمصريين قاطبة قد اعتمدوا سياسة الشيخ ، وهى السياسة التى يمكن تحديدها بقولنا : إنها سياسة السلام والترقى .

وقدكان فى مصلحة مصر وانكلترا بالذات أن يقتفى أصحاب المقطم أثر الشيخ على يوسف فى خطته هذه . ولكن سبق القول إن سياستهم اليوم لاتزال كما كانت .

ثم قال :

« إن مظاهر الجرائد الانكليزية المعادية لتركيا ، وكتاب السير وليم موير ضد الإسلام ، وكتابات غيره أيضاً إنما تؤثر تأثيراً قليلا على المسلمين فى مصر وسواها ، لما هو معلوم من أن هؤلاء دائرة ضيقة . وأما اندفاع جريدة محلية يقول عنها الانجليز أنفسهم إنها لسان حال الإنجليز للتبرير على من ذكرنا فى الطعن ، فليس له إلا نتيجة واحدة ، وهى ازدياد الرعب فى النفوس ، وعدم الثقة بما يدعيه الاحتلال من المقاصد الحسنة .

هذا هو السبب الأصلى الأساسى لما يتهم به المصريون من قلة التحمس ، وعدم الاعتراف بالجميل .

وعليه — نجد أن الجريدة التى قال عنها المستر هرتمان فى كتابه أنها نالت نعمة لدى اللورد كرومر هى وحدها التى انفردت بوضع العقبات فى طريقه . ومع وجود مبادىء هى لسان حال الانجليز فى مصر — معادية للاسلام نجد أننا عبثاً ننتظر من المسلمين فى مصر وسواها أن ينظروا إلى الاحتلال الانكليزى إلا وهم يشعرون بالغيرة .

ولو أن المقطم جرى على سياسة الموالاة والمسالمة ، وحاول هداية الانكليز بالإرشادات الصحيحة الصادقة ، وحسن تقدير الأعمال التى تمت — لو فعل المقطم ذلك لخدم الانكليز والمصريين أيضاً خدمة لاتقدر[1] » .

* * *

ولا ننس فى خاتمة هذا الفصل أن نشير إلى هاتين الجريدتين وهما :

المؤيد الأسبوعى العربى .

المؤيد الأسبوعى الفرنسى .

وقد كان يدير سياسة كل منهما ، ويسأل عنهما الشيخ على يوسف .

أما الأول فكان يصدر يوم الجمعة من كل أسبوع . وأما الثانى فكان يصدر يوم الأحد . وكانت تنشر فيهما أجود المقالات التى اطلع عليها القراء فى المؤيد اليومى ، وخاصة منها المقالات ذات الطابع التوجيهى فى المجتمع والسياسة . وقد يضاف إلى ذلك بعض المقالات الأخرى مما لم يسبق نشره .

ألا — ما أضخم العمل الذى كان يتولاه الشيخ على يوسف وحده ، ويسهر على تنظيمه وإخراجه بمفرده !

وبهذا العمل الضخم . والجهد المتصل استحق هذا الرجل أن يكون شيخ الصحفيين فى زمانه ، ورمزاً للصحافة المصرية كلها فى عصره . ولسنا نعدو الحقيقة والتاريخ حين نضيف إليه كل ذلك .

---

(١) راجع جريدة المؤيد — العدد ٥٢٧٥ بتاريخ ٢٣ / ٩ / ١٩٠٧

الفصل الثالث

على يوسف وقضايا المؤيد

أشرنا فى الفصل الماضى إلى بعض الظروف التى نشأ فيها المؤيد ، وهى ظروف عصيبة حقاً ، كان فيهـــا اللورد كرومر صاحب السلطان الفعلى فى البلاد . وكان لهذا الداهية الإنجليزى صحف منها جريدة المقطم ، تعبر عن رأيه ، وتفصح عن سره ، وتكشف عن سياسته ؛ وهى سياسة تقوم على الضغط بمختلف الوسائل التى لا يعنينا منها الآن غير وسيلة الصحف . فقد أملت عليه سياسته إذ ذاك أن يحوط صحافته فى مصر بالرعاية التامة ، ويمدها بالمال للازم ، ويؤثرها بالأخبار الحكومية ، لتصبح ذات قيمة صحفية عظيمة فى نظر القراء .

أما الصحافة الوطنية فقد أعد لها كل ما استطاع من وسائل العنف والاضطهاد . وفضلا عن أن هذه الصحافة الوطنية كانت — فى رأى كرومر نفسه — تعانى الفقر والعوز ، كما كانت عزلاء من كل سلاح ، فان هذا اللورد سلط عليها يومئذ « قانون المطبوعات » وجعله لها بالمرصاد . ثم لم يكتف الطاغية بذلك حتى رأيناه يوحى إلى الحكومة أن تصدر أمرا مشدداً لكافة الدواوين ألا تمد المؤيد بأى قدر من المعلومات . فأوصدت الحكومة بابها فى وجه السيد على يوسف ، على حين فتحته يومئذ للدكتور فارس نمر ولغيره من أصحاب جريدة المقطم ، لينشروا فيها ما شاءوا من الأخبار . ولقد بلغ الأمر ببعض هذه الصحف الموالية للسلطان الإنجليزى إذ ذاك أنها كانت تنشر الأحكام القضائية قبل أن ينطق بها القضاة !

قضية التلغرافات :

وما قضية التلغرافات التى نبسطها الآن إلا أثراً من آثار هذه السياسة الإنجليزية الخرقاء ، وصفحة من صفحات الجهاد الذى منى به الشعب المصرى فى شخص ذلك الصحفى الذى نمضى فى ترجمته الآن . وهو السيد على يوسف.

فى مايو سنة ١٨٩٦ أصدرت نظارة الحربية أمراً بعدم إعطاء المؤيد بنوع خاص أية معلومات تتعلق بالحملة المصرية على دنقلة . وكان معنى ذلك أن الجرائد الأخرى تستطيع أن تحصل على هذه المعلومات من نظارة الحربية متى رغبت هذه الصحف فى شىء منها .

فما العمل ؟ وكيف يحتال السيد على يوسف على هذا الأمر ؟

أيضرب صفحاً عن أخبار الحملة المصرية فى السودان ، وأخبار هذه الحملة يومئذ تهم الشعب ، وجنود هذه الحملة يومئذ هم أبناء الشعب ؟

لا — لاينبغى لصحفى كالسيد على يوسف أن يضرب صفحاً عن أخبار هذه الحملة ، ولا ينبغى له أن يقف موقف المتفرج من الانتقادات المرة التى توجه إلى الحكومة المصرية فى الفينة بعد الفينة ، وذلك منذ اندفعت فى إعداد هذه الحملة بضغط من الإنجليز .

وإذن فلن يعدم ذلك الصحفى يومئذ حيلة يتغلب بها على سياسة ذلك الداهية الإنجليزى ، بل ذلك النمر البريطانى الجاثم بصدره على أنفاس الشعب المصرى وحكومته فى ذلك الوقت ونعنى به اللورد كرومر .

« وفى ٢٦ يوليو سنة ١٨٩٦ ، والساعة الثالثة بعد الظهر ، ابتدأ أحد موظفى مكتب التلغراف بالأزبكية — تحت إشراف نجيب أفندى اسكندر رئيس هذا المكتب — فى تناول إشارة تلغرافية من السردار إلى ناظر الحربية يبلغ عدد كلماتها ٥٦٦ كلمة . وانتهى منها فى الساعة العاشرة والنصف مساء . . . وفى هذا التلغراف يعتذر السردار عن تأخره فى مخاطبة الناظر ،

لأن الكوليرا التى تفشت فى الجيش كانت شغله الشاغل عن ذكر إحصاء تقريبى عن عدد الإصابات . وعدد الوفيات . ثم نعى إليه بعض ضباط الجيش إلى آخر ماجاء بهذا التلغراف » . [١]

ثم فى يوم ٢٨ يوليو فوجىء ناظر الحربية بهذا التلغراف منشوراً بنصه فى جريدة المؤيد ، فهاج وهاجت معه السلطات الانجليزية فى نظارة الحربية ، ودعا إليه ملحم (بك) شكور ، فأمره أن يبحث فى الموضوع من مختلف جهاته ، فلم يهتد الرجل إلى شىء .

« ثم فى يوم ٣٠ يوليو توجه الدكتور فارس نمر أحد أصحاب جريدة المقطم إلى مكتب تلغراف الأزبكية ، وشكا إلى وكيله من أن مكاتب المقطم فى بيا كان قد بعث إليه برسالة تلغرافية فى يوم ٢٨ يوليو ، فنشرتها صحيفة المؤيد فى نفس هذا اليوم ، وطلب التحقيق فى ذلك . فاهتم اسكندر افندى نجيب بالأمر ، لأنه يعلم أن شكوى الدكتور فارس نمر لا تقل عن شكوى نظارة الحربية » .

وتوالت على مكتب تلغراف الأزبكية شكاوى من هذا النوع ، بعضها من صحف مصرية ، وبعضها من صحف أجنبية تصدر فى مصر ، وحارت الحكومة فى الأمر ، وحار السلطان الانجليزى كذلك . غير أن القرائن كانت تدل على أن الذى كان يعين السيد على يوسف فى الوصول إلى هذه الأخبار البرقية رجل من أقباط مصر ؛ هو توفيق أفندى كيرولس . ولست أدرى بالضبط إن كان ذلك بدافع من تلقاء نفسه ، أم بإيعاز وإغراء من صاحب المؤيد . وعبثاً حاولت الحكومة والسلطات الانجليزية أن تحمل هذا الرجل — وهو توفيق افندى كيرلس — على الاعتراف بأنه هو الذى يوصل الأخبار إلى السيد على يوسف .

---

(١) راجع مجلة الشباب لمحمود عزمى — العدد الثانى من السنة الأولى بتاريخ ٢٤ فبراير سنة ١٩٣٦ حيث تجد مقالا عن قضية التلغرافات بامضاء محمد أمين عبده المحامى .

ولكن — لا بد أن ينجح اللورد كرومر فى إدانة السيد على يوسف ، وفى تقديمه إلى المحاكمة . فأنى له ذلك وقانون المطبوعات ليست به مادة تعاقب الصحيفة على الأنباء متى كانت صحيحة ؟ وإذن فلا بد من التفكير فى طريقة أخرى لإدانة هذا الرجل . هنا فكر اللورد كرومر فى أن القانون العام يعاقب الموظف الذى يعمل على إفشاء أسرار الحكومة . وعلى هذا فليتقدم اللورد بمحاكمة توفيق أفندى كيرلس بهذه التهمة . ومحاكمة السيد على يوسف بتهمة اشتراكه معه فى هذه الجريمة . وهكذا أصبح للقضية جسم على حد تعبير القانون ، ونظرت فيها المحكمة .

واستدعى صاحب المؤيد إلى ساحة القضاء ، فسئل يومئذ عن المصدر الذى توصل به إلى هذه البرقيات . فأجاب بأن سرّ المهنة يحول دون التصريح بذكر المصدر . ثم سئل عن معرفته بتوفيق أفندى كيرلس ، فأجاب بأنه إنما يعرفه معرفة سطحية .

وهكذا أخفقت النيابة هى الأخرى فى أن تصل إلى شىء تستند عليه فى معاقبة السيد على يوسف .

هنا جن جنون الطاغية الانجليزى ، ولم يبق أمامه إلا أن يفكر فى طريقة واحدة ، وهى تهديد توفيق أفندى كيرلس بكل الوسائل الممكنة حتى يعترف بأن صاحب المؤيد هو الذى كان يحرضه على هذا الفعل . «وبين هذه الآلام والعواصف المضطربة استضعف توفيق كيرلس ، وقبل أن يحرر اعترافا يذكر فيه أن الشيخ على يوسف على هو الذى حرضه على مافعل» . ولكن القدر المواتى لصاحب المؤيد ساق هذا الموظف المسكين توفيق أفندى كيرلس إلى جريدة مصر ، وقابل بها رجلا من أهل طائفته ، هو صاحب هذه الجريدة ، وقد اشتهر عنه أنه من أعداء المؤيد ، واسمه تادرس أفندى شنوده ، غير أن الزمن أثبت أن هذا الرجل مثال الشرف

والأمانة. فقد عرض عليه كيرلس أفندى هذا الأمر، فشوهد تادرس أفندى يعتدل فى جلسته ويقول لصاحبه :

يجب أن تعلم أن الحق وحده هو الذى يدعو إلى النصر، وأن فيه النجاة من كل شر. فإن كان صاحب المؤيد هو الذى دفعك إلى فعل ما فعلت فقل عنه آمنا مطمئنا هادىء النفس. فالخير فى ذلك لك، ما فى ذلك ريب. وإن كان لم يدفعك، وكنت كاذباً فيما تريد أن تعترف به، فلتعلم أنك تقود نفسك إلى الهاوية السحيقة التى يتردى فيها دائما كل رجل يكذب على الناس. فقل الحق لله وللناس ولا تخف ».

فاعترف كيرلس أفندى أن صاحب المؤيد لم يدفعه، وأنه كاذب فيما يريد أن يعترف به، وأنه مدفوع إلى ذلك بتهديد الجبار!

وفى يوم ١٧ نوفمبر سنة ١٨٩٦ نظرت محكمة عابدين فى هذه القضية، واتهمت النيابة العمومية توفيق أفندى كيرلس والشيخ على يوسف معاً. وكان قاضى المحكمة يومئذ محمود (بك) خيرت. وحضر للدفاع عن المتهمين ابراهيم الهلباوى (بك)، وأحمد الحسينى (بك)، وهما من كبار المحامين المعروفين فى مصر.

« وقد رابطت على باب المحكمة، وفى أرجائها قوات كبيرة من البوليس لتمنع تدفق الناس إلى قاعة المحكمة. وأشرف حكمدار العاصمة بنفسه على النظام، ووفدت على القاهرة جموع كثيرة من مختلف مدن القطر الشهيرة لتشهد المحاكمة، حتى ضاقت بهم فنادق القاهرة. وترافع المرحوم على (بك) توفيق ممثل النيابة العمومية. ودافع المحاميان عن المتهمين دفاعا جليلا بليغاً، لا سجع فيه ولا بديع ولا تنسيق، ولا قذف إلا بالحق الهادىء الصريح. وكان الدفاع قائما على بحوث قانونية ربما كانت غريبة عن الناس فى مصر فى ذلك الوقت ».

ثم فى يوم ١٨ نوفمبر أصدرت المحكمة حكمها فى القضية . وهو يقضى بحبس توفيق أفندى كيرلس ثلاثة أشهر مع الشغل ، وبراءة السيد على يوسف .

ولا تسل عن تأثير هذا الحكم فى نفوس النظارة من المصريين فى ذلك الوقت . فقد هتفت الجموع المحتشدة للسيد على يوسف ، وصفقت وهللت ، وأقبل بعضهم يهنىء بعضاً بهذا الحكم ، ثم انثالوا على صاحب المؤيد يهنئونه ويهتفون بحياة جريدته .

وكان يوماً مشهوداً فى تاريخ الشعب المصرى انتصر فيه هذا الشعب المصرى على السلطان الانجليزى ، بعد أن أعيت الحيل هذا السلطان فى إدانة الرجل الناطق بلسان أمته إذ ذاك ، وهو السيد على يوسف .

تلك قضية من القضايا السياسية التى لفتت أنظار الرأى العام فى مصر لفتاً قوياً فى ذلك الوقت ؛ وكان هذا الرأى العام مظاهراً فى هذه القضية للسيد على يوسف مظاهرة قوية ؛ إذ اعتبر نجاح الرجل فيها نجاحا له على رمز الاحتلال فى مصر ؛ وهو اللورد كرومر ، وصحيفة الاحتلال فى مصر ؛ وهى جريدة المقطم .

وثم قضية أخرى اجتماعية فى جوهرها ، سياسية كذلك فى مظهرها ، تتصل بحياة السيد على يوسف ، وكان للشعب فيها رأى مخالف لرأيه الأول ، أو لعل هذه هى المرة الوحيدة التى انقسم فيها الشعب على نفسه انقساما ظاهراً ، وهذه القضية الأخيرة هى :

قضية الزوجية :

أبت الظروف المحيطة بهذه القضية إلا أن تخلق لها أهمية كبيرة من نواح عدة ، مع أن الأصل فيها أنها قضية شخصية تخص صاحب المؤيد ،

وقد أراد أن يصهر إلى بيت كبير من بيوتات مصر فى ذلك العهد ؛ وهو بيت السادات الوفائية (١) .

ثم تعقدت هذه المسألة الشخصية ، ودخلت فيها اعتبارات كثيرة أورثتها هذه الأهمية التى نتحدث عنها . ومن هذه الاعتبارات :

أولا : أن القضية مست من قريب أعز شىء على نفوس المصريين ، وهو التقاليد .

ثانيا : أن الحكومة المصرية ، ومعها السلطات الانكليزية — لأمر ما — أقحمت نفسها فى هذه القضية ، ومالت كل من الجهتين إلى جانب السيد على يوسف .

ثالثا : أن موقف القضاء الشرعى من هذه القضية كان يوصف بالنزاهة والحق والعدل والمحافظة على الكرامة ، إلى درجة لا تذكر إلا بموقف علماء الإسلام من الأمراء العظام ، وذلك فى عهود الحكومات الإسلامية القوية كحكومة سلاطين الأتراك فى مصر ، ونحوها من الحكومات الأخرى .

---

(١) من هو بيت السادات ؟ بيت من أقدم البيوت المصرية فقد أسس فى مصر منذ سبعة قرون ونصف قرن . وينسب هذا البيت إلى سيدى محمد وفا . وإقامتهم الأصلية كانت بتونس وصفاقس وأجوازها . وأول وافد من هذا البيت إلى الديار المصرية سيدى محمد النجم . ونسبهم الشريف كما يأتى :

السيد عبد الخالق أبو الفتوحات بن وفا بن السيد أحمد أبى النصر بن السيد أحمد أبى الاقبال ابن السيد يوسف أبى التسهيل . وهو شقيق السيد محمد أبى الأنوار بن السيدة صفية بنت السيد أبى الإرشاد يوسف المتوفى سنة ١١١٢ هـ بن أبى التخصيص عبد الوهاب بن أبى الاسعاد يوسف ابن السيد أبى العطا عبد الرزاق بن السيد أبى المكارم ابراهيم بن أبى الفضل محمد بن أبى المكارم ابراهيم بن أبى الفضل محمد محب الدين بن أبى المراحم محمد بن أبى الفضل عبد الرحمن بن أحمد شهاب الدين بن أبى التدانى سيدى محمد وفا المنسوب إليه هذا البيت بن السيد محمد بن النجم الوافد إلى مصر من المغرب ... وينتهى نسبه إلى محمد بن إدريس التاج الخليفة بالمغرب منشىء مدينة فاس بن ادريس الأكبر بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط رضى الله عنهم ابن فاطمة الزهراء رضى الله عنها الخ . وهذه السلسلة هى من أعظم سلاسل الأشراف وأمجدها وأقومها عموداً ، لأن عبد الله المحض أحد رجالها أبوه الحسن المثنى بن الحسن السبط ، وأمه فاطمة بنت الحسين ، فقد جمع النسبين وحاز الشرفين : إقرأ : كتاب بيت السادات الوفائية للسيد محمد توفيق البكرى .

رابعاً : أن القضية تعرضت فى أثناء التحقيق لموضوع هام يتصل بالصحافة ، وهو قيمة الرجل الصحفى فى مصر ، والشروط التى لابد منها لكى يصبح أهلا للثقة والاحترام .

من أجل هذه الاعتبارات نظر المؤرخ الحديث إلى هذه القضية على أنها سياسية ، اجتماعية ، قضائية ، صحفية فى وقت معا . كما استدل المؤرخ الحديث منها على أن فى الشعب المصرى نوعا من المقاومة العنيفة التى تظهر حتى فى أشد الفترات حلكة ، وأكثرها غليانا كفترة الاحتلال البريطانى .

وفى مذكرات أحمد شفيق (باشا) قوله : « وكان من أهم حوادث هذا العام قضية زواج صاحب المؤيد ، ففى آخر ربيع الثانى سنة ١٣٢٢ هـ الموافق ١٤ يوليو سنة ١٩٠٤ م عُقد عَقد السيدة صفية السادات على الشيخ على يوسف بسراى الخرنفش بمنزل السيد محمد توفيق البكرى وتولى الوكالة عن الزوجة الشيخ حسن السقا . فلما علم والدها السيد عبد الخالق السادات بذلك رفع دعوى التفرقة بين كريمته والشيخ على يوسف لعدم أهليته لها . وتحدد لذلك جلسة ٢٥ يوليو بمحكمة مصر الشرعية ، ورأس الجلسة فضيلة الشيخ أحمد أبى خطوة ، وحضر عن الشيخ على يوسف حسن (بك) صبرى المحامى ، وعن زوجته الشيخ محمد عز العرب (بك) . وحضر عن السيد عبد الخالق السادات الشيخ عثمان الفندى » .

معنى ذلك باختصار أن هذا الزواج إنما تم برضاً من الزوجة ، وغير رضا من أبيها السيد عبد الخالق . وتلك هى العقدة القصصية لهذه الحادثة ، أو تلك هى المشكلة الأولى من مشكلاتها كما سنرى . ولكن ما مقدمات هذا الزواج ؟

لم تحدثنا المصادر عن شىء من ذلك . غير أن شيخا من أصدقاء السيد على كان يعمل معه فى جريدة المؤيد كتب إلينا يقول [١] :

---

(١) هذا الشيخ هو حضرة عطية شلبى افندى .

« ... نشأت هذه القضية سنة ١٩٠٤ . ويتلخص موضوعها فى أن المغفور له السيد على يوسف (باشا) خطب إلى المغفور له السيد عبد الخالق السادات كريمته المغفور لها السيدة صفية هانم السادات. فلبى السيد عبد الخالق طلب السيد على يوسف ، وقبل الصداق على ذلك . وسافر الجميع إلى الآستانة العلية لقضاء الصيف بين ربوعه . وكانت بين المغفور له السيد على (باشا) والمغفور له أحمد عزت العابد (باشا) كبير مستشارى السلطان عبد الحميد صداقة متينة فى قديم الزمان . فقدم عزت (باشا) للسيد عبد الخالق السادات عقداً نفيساً من اللؤلؤ هدية لابنته . هذا وقد كان المتفق عليه أن يتم القران بعد العودة من الآستانة . ولكن لم يكد الجميع يعودون إلى مصر ، حتى بدت بوادر المماطلة فى إتمام القران . وسعى بعض خصوم المغفور له السيد على يوسف (باشا) فى الوقيعة بينه وبين المغفور له السيد عبد الخالق السادات ، وتمت الوقيعة بالفعل ، ورفض السيد عبد الخالق السادات إتمام الزواج بدعوى أن السيد على يوسف يشك فى نسبه وحسبه ، وأنه ليس كفؤا لشريفة من بنات النبى صلى الله عليه وسلم .

هنا تدخل فى الموضوع عنصر جديد ، هو المغفور له السيد محمد توفيق البكري عميد بيت السادات البكرية ونقيب الأشراف ، وشيخ مشايخ الطرق الصوفية ، والكاتب الشاعر المعروف ، وعضو مجلس شورى القوانين ، وصهر المغفور له السيد عبد الخالق السادات . وكانت صحيفة الصاعقة لصاحبها الأديب المرحوم أحمد فؤاد قد نشرت قصيدة استقبلت فيها ساكن الجنان الخديو عباس الثانى على أثر عودته من الآستانة ، جاء فى مطلعها :

قدوم ولكن لا أقول سعيد ⠀⠀⠀ وملك وإن طال المدى سيبيد

هذا وقد كانت بين الخديو عباس الثانى والسيد توفيق البكرى جفوة ، فاتهم الأخير بأنه قائل هذه القصيدة .

ولكن المغفور له السيد على يوسف (باشا) سعى فى إخراجه من هذه التهمة

ونجح فى مسعاه . واعترف المرحوم السـيد مصطفى لطفى المنفلوطى بأنه صاحب هذه القصيدة ، فعوقب هو وأحمد فؤاد بالحبس بضع شهور . أما السيد توفيق البكرى فعزل من نقابة الأشراف ، وبقى شيخاً للطرق الصوفية .

وقد ذكر هذا السيد جميل المغفور له السيد على يوسف (باشا) ، وكان السيد توفيق البكرى نفسه زوجاً للمغفور لها السيدة حفيظة السادات أخت المغفور لهـا السيدة صفية السادات . فاتفق السيد على يوسف مع السيدة صفية على عقد الزواج فى دار آل البكرى الكرام بسراى البكرى بالخرنفش . وتم العقد بالفعل ، وتولى المرحوم الشيخ السقا خطيب وإمام الجامع الأزهر الشريف الوكالة عن السيدة صفية هانم السادات . وشهد على العقد كل من السيد توفيق البكرى ، وابن أخيه السيد عبد الحميد البكرى . وفى هذه الأثناء سعى السيد على يوسف (باشا) لدى الخديو عباس حتى أعاد للسيد توفيق البكرى نقابة الأشراف » . (انتهت الرسالة)

أما الصلة بين السيد على يوسف وكريمة السيد عبد الخالق فيظهر أنها كانت أقدم من تاريخ الزواج بمدة ليست بالقصيرة . فقد كان السـيد عبد الخالق شغوفاً بابنته صفية . فكانت ترافقه دائماً أنى سار ، وكان يظهر بها فى المجالس العامة ، وقد عاد ذلك على ابنته باللسن والنشاط ، وذلك على غير عادة الفتيات فى زمانها ممن كن يخجلن من مقابلة الرجال ، ويجـدن الحرج كل الحرج فى التحدث إلى واحد منهم . ولعله فى مجلس من تلك المجالس العامة ، بل لعله فى إدارة المؤيد ذاتها التقى الشيخ على يوسف بابنة السيد عبد الخالق ، وصادفت منه هوى ، فأقدم على خطبتها من والدها[1] .

وتلك إذن مقدمات القصـة . وهى مقدمات لا غرابة فيها ، وخاصة للقارىء الحديث .

---

(١) رجعنا فى ذلك إلى السيدة بثينة هانم كريمة المغفور له السيد على يوسف « باشا » .

ومع ذلك فمن الناس من نظر إلى هـــذا الحادث عن أنه اعتداء على الأخلاق والعادات حيث قال [١] :

« ولعل أخطر ما فى القضية أنها كانت نكبة على الأخلاق والفضائل الاسلامية ، ومثالا سيئا عاما للتقاليد القومية . وهل بعد استغواء سيدة شابة من أعرق بيوت الاسلام فى الشرق ، وبعد أخذها إلى غير بيت أبيها لتتزوج فى غير حضوره ، بل وبغير رضائه بمن لا يراه أهلا لها ، ثم مقاومة هذا الأب عندما كان استنجد بقاضى المسلمين — هل بعد هذا اعتداء على الأخلاق ؟ لذلك كان مكتوبا فى لوحة القدر أن ينهار المجد الاجتماعى الذى بناه الشيخ على يوسف لنفسه قبل هذه القضية ، كما انهار مجده الوطنى بعد أن خرج من صفوف الشعب » .

ليس من عمل المؤرخ الأدبى أن يدلى برأيه فى هذا الجانب الأخلاقى من المسألة . ولكنه مسئول فقط عن وصف ما كان لهذه القضية على هذا النحو من أثر فى نفوس الشعب . ولا شك أن الشعب قد انقسم فى هذه الحادثة فريقين : فريق مع السيد عبد الخالق وهو الأغلبية ، وفريق مع السيد على يوسف وهو الأقلية .

وندع الرأم العـام فى مصر منقسما على نفسه على هذا الوجه لننظر فيما آلت إليه القضية نفسها بعد ذلك :

فى يوم السبت ١٦ يوليو سنة ١٩٠٤ نشرت صحيفـة المقطم أنه قد تم قران السيد على يوسف بإحدى كريمات السيد عبد الخالق السادات فى حفلة جمعت الكثير من العلماء . ثم قصدت العروس بعد ذلك إلى المنزل الذى أعده لها بناحية الظاهر .

غير أن المقطم تعمدت يومئذ إغفال المكان الذى عقـد فيه القران .

---

(١) راجع مجلة الشباب — العدد الثالث من السنة الأولى بتاريخ مارس سنة ١٩٣٦ حيث تجد مقالا فى قضية الزوجية للاستاذ محمد أمين عبده المحامى .

ثم ما كاد السيد عبد الخالق يطلع على الخبر ، حتى كتب من فوره إلى المقطم وإلى المؤيد كتاباً يتضمن أنه لا علم له بهذا الزواج ، وأنه إن كان قد حدث فعلى غير رضاه ، وأنه قد أبلغ الأمر إلى جهات الاختصاص . فامتنعت المؤيد وامتنع المقطم من نشر هذا الخطاب ، وقبل اللواء نشره على الناس . وقد يعجب القارىء كيف وقفت المقطم والمؤيد فى صف ، ووقفت اللواء ومعها بعض الجرائد الوطنية فى صف آخر . وقد يسأل القارىء نفسه ما الذى حدا بالحكومة والسلطان الانكليزى فى مصر فى ذلك الوقت إلى الوقوف فى صف السيد على يوسف ، وهو اللسان الناطق عن الشعب ؟

ليس شك فى أن السلطان الانجليزى يومئذ أحب أن ينتهز فرصة ذهبية أتيحت له لكى يضم فيها صاحب المؤيد الى جانبه ، وينتزعه نهائيا من صفوف الشعب . والإنكليز منذ وطئت أقدامهم مصر إلى يومنا هذا قدرة عجيبة ، وصبر عجيب أيضاً على دراسة الرجال الذين هم قادة الرأى عندنا فى مصر دراسة يقصدون من ورائها معرفة نقط الضعف فى أولئك الرجال ، ليدخلوا منها إلى نفوسهم ، ويتسللوا منها إلى قلوبهم ، ويضموهم فى النهاية إلى صفوفهم ، ليأمنوا بذلك شرهم على الاحتلال الانكليزى .

فذلك إذا هو السبب فى انحياز الانكليز فى مصر إلى جانب السيد على ، وحملهم الحكومة المصرية أيضا على أن تتخذ معهم جانبه ، وأن تعبث من أجله بالقانون ، وأن تنقل بسببه الموظفين ، وأن تحشد كل قواها فى هذه المرة لينجح السيد على بفضلها وفضل الانكليز ، فتكون لهم منّة فى عنق هذا الذى يخشون بأسه ، ويعملون له ألف حساب !

ولكن للحق سيفا يقاوم به الباطل ، فتزهق روحه فى أثناء المقاومة ، وينتصر عليه انتصارا باهراً وإن كان الطريق الى هذا الانتصار طريقا طويلا ينبغى أن يصبر فيه الحق ، حتى يكتب له النصر .

فى ٢١ يوليو سنة ١٩٠٤ م عقدت المحكمة الشرعية ، وكان قاضيها المرحوم

الشيخ أحمد أبو خطوة للنظر فى القضية التى رفعها السيد عبد الخالق السادات ضد الشيخ على يوسف والسيدة صفية السادات ، طالبا فيها فسخ عقد الزواج الذى تم فى ١٤ يوليو بمنزل السيد توفيق البكرى . وإذ ذاك طلب الأستاذ حسن صبرى (بك) وكيل السيد على يوسف تأجيل النظر فى القضية حتى يطلع على الأوراق . فانبرى له وكيل السيد عبد الخالق — وهو هنا الشيخ عثمان الفندى — طالبا إقامة الحيلولة بين الزوجين فيما لو رأت المحكمة التأجيل . فأصدرت المحكمة حكم الحيلولة .

هنا سافر السيد على يوسف إلى الاسكندرية ، وقابل بنفسه ولاة الأمور بها . ومنهم بطرس (باشا) غالى وزير الحقانية . وعلى أثر هذه المقابلة نشرت جريدة المقطم كلمة فحواها أن قرار الحيلولة لن ينفذ . فانبرت جريدة اللواء للرد على ذلك ، وكتبت مقالات حماسية ، هى غاية فى القوة طلبت فيها حماية القضاء وحماية الدين وحماية الأخلاق .

وكان على رأس القضاء الشرعى فى مصر فى ذلك الوقت الشيخ عبد الرحمن أفندى قاضى قضاة مصر . وكان رجلا نزيها عنيداً « فوقف موقفه التاريخى العظيم الذى حمى به استقلال القضاء ، وأجبر الحكومة على احترامه » .

وفى الساعة السابعة من صباح يوم ٢٧ يوليو اتصل عبد الرحمن أفندى قاضى القضاة بمحافظ القاهرة ، وسأله عما تم فى تنفيذ حكم الحيلولة . فأجابه المحافظ بأن الأوراق عند ناظر الداخلية بالاسكندرية . فاتصل عبد الرحمن أفندى من فوره بالشيخ أحمد أبى خطوة ، وطلب منه أن يذهب إلى المحكمة ، وينتظر منه كتابا يقرؤه فى الجلسة عند افتتاحها . واتفق الرجلان على أن يتخذا مع الحكومة « إجراء يهذبها ويعلمها أن حكم القاضى واجب الاحترام ، وأن القضاء يجب أن يكون بعيداً عن شهوات السياسة وأغراضها » . واتفقا كذلك على أنهما إن عجزا عن ذلك فسيأمر قاضى القضاة بإغلاق المحاكم الشرعية فى جميع جهات القطر ، ويدعو إلى الإضراب العام !

وذهب الشيخ أبو خطوة إلى المحكمة ، وأخذ مكانه من قاعة الجلسة . وجاءه الخطاب ، وقرأه على الناس ، وأعلن أنه إنما ينظر فى هذه القضية باسم قاضى القضاة ، وأنه لن يستأنف النظر فيها إلا بإذن منه ؛ وذلك بعد أن تقوم الحكومة بتنفيذ حكم الحيلولة .

« ولم يكد يعلن القاضى هذا القرار حتى هتفت له الجموع التى احتشدت فى ساحة المحكمة تنتظر نتيجة الصراع بين اللورد كرومر ومجلس النظار من ناحية ، وقاضى قضاة المحكمة الشرعية من ناحية ثانية » .

وخرج الشيخ أبو خطوة من قاعة المحكمة فى مظاهرة حماسية رائعة . وإذ ذاك ارتاع مجلس النظار ، وارتاع معه اللورد كرومر ، وعرض الجميع حلولا شتى للمسألة . ولكن قاضى القضاة ومعه الشيخ أبو خطوة ثبتا فى موقفهما ، ولم يأبها للإنذارات المختلفة التى كانت توجهها الحكومة إلى كل منهما . وأخيراً لم تر الحكومة بدآ من أن تطاطىء رأسها لحكم الشيخ أبى خطوة ، وتقوم بنفسها على تنفيذ هذا الحكم !

وكانت السيدة صفية السادات إذ ذاك قد لاذت ببيت الشيخ الرافعى . وحين أصر قاضى القضاة على أن تخرج منه إلى بيت والدها السيد عبد الخالق كتب هذا إلى قاضى القضاة يقول : إنه يرضى ببقاء ابنته فى منزل الشيخ الرافعى ، وإنه يعتقد أن هذا الشيخ قادر على تنفيذ حكم الحيلولة .

وهنالك فى منزل الشيخ الرافعى عاشت السيدة صفية حزينة سجينة ، وذلك فضلا عن أنها كانت إذ ذاك عرضة للأقاويل والشائعات . وذهب الخصوم فيها إلى أنها اعتادت أن تلق السيد على يوسف فى بيت الرافعى فى ساعة متأخرة من الليل ، وأنها كانت تظل معه إلى الفجر ، إلى آخر هذه الشائعات التى نالت من السيدة صفية كل منال ، وجعلت بسببها تفكر فى الخروج من بيت الرافعى . ولكنها بقيت فى هذا البيت ، والحزن يأكل قلبها والحرج يحبس أنفاسها ، والخجل باد على وجهها .

وكان لا يفثأ عنها هذا الحزن إذ ذاك غير الرسائل التى دارت بينها وبين السيد على يوسف عن طريق خادمة أوروبيـة . وهى رسائل كانت تفيض حقا بالعواطف التى أبداها السيد على يوسف فى تحفظ واحتياط ، وكانت السيدة صفية تبديها بغير تحفظ ولا احتياط .

وضاق الشيخ الرافعى نفسه بأمر هـذه الخادمة الأوروبية ، وكتب إلى قاضى القضاة بإخراج السيدة صفية من بيته ما دام عاجزاً عن تنفيـذ أمر الحيلولة ولـكنه عاد فعدل عن هذا القرار ، وقبل أن تبقى عنده السيدة صفية على شرط ألا تقابل الخادمة الأوربية .

وفى يوم أول أغسطس عقدت المحكمة الشرعية جلستها للنظر فى القضية. وطلب وكيل السيد عبد الخالق فسخ العقد لأسباب ؛ منها عدم كفاءة الشيخ على يوسف لمصاهرة بيت السادات . ذلك أن السيد عبد الخالق من نسل النبى ، والسيد على يوسف ليس كذلك . ومنها أن العقـد تم بدون موافقة الولى الشرعى ؛ وهو والد الزوجة . ومنها احتراف السيد على يوسف حرفة أصبح بها غير كفء للسيد عبد الخالق ؛ وهذه الحرفة هى الصحافة .

ودافع وكيل السيد على يوسف بحجج ؛ منها أن السيد عبد الخالق السادات من رأيه العضل ، فقد عضل عمته ، وعضل أخته ، وعضل ابنته ، وهو هنا يريد عضل ابنته السيدة صفية . ومنها قبول السيد عبد الخالق للهدايا التى أهديت إليه بمناسبة هـذا الزواج . وفى ذلك دليل على رضاه . ومنها أن السيد على يوسف من نسل الحسن بن على ، كما أن السيد عبد الخالق من نسل الحسن بن على ، فهما متكافئان فى النسب من هـذه الناحية ، ثم يزيد الشيخ على يوسف بأنه ذو مال .

ثم بدأت المحكمة فى التحقيق ، فوجهت للأستاذ حسن صبرى المحامى (حسن باشا صبرى فيما بعد) هذا السؤال :

س : هل فيما اتخذه الشيخ على فى هـذه الدعوى ما يتفق مع الفضائل

والآداب الإسلامية والعادات القومية ؟

ج : إننا نتقاضى قضاءً شرعياً نظاميا لا قضاءً أدبيا .

س : ما الدليل على علم الشيخ على يوسف ؟

ج : إنه درس كتب الدين فى الأزهر ، وكان على أن يتخرج للتدريس فيه . ولكنه آثر صناعة الأقلام ، فعمل فى الصحافة .

وبعد أن فرغت المحكمة من إثبات نسب السيد عبد الخالق من جهة ، ونسب الشيخ على يوسف من جهة ثانية ، بدأت التحقيق فى الحرفة التى يحترفها الزوج . وهنا سمحت المحكمة للشيخ الفندى بالكلام فقال :

« أما الصحافة فهى صناعة لا تشرف إلا بشرف استعمالها . وحيث إن حرفة الصحافة التى نسبها المدعى لنفسه قسمان : قسم يبحث فى علوم وفنون مخصوصة ، وهى المجلات غير اليومية ، وهذه شرفها بشرف ما يبحث فيه . وهذه الصحافة لا يدعيها الشيخ على يوسف لنفسه . وقسم لا يختص بموضوع مخصوص ؛ وهى الجرائد اليومية . ووظيفتها إرشاد من تتكون منهم المملكة من الأفراد والهيئات الاجتماعية والحكومة . وهذه الصحافة جليلة جداً ، ولها أثر فى رقى المملكة من ناحيتها الداخلية والخارجية ، ويجب أن يتوفر فى صاحبها أعلى أنواع الثقافة الاجتماعية والخلقية والسياسية ، كما يجب أن يكون على أعلى قدر من شرف النفس ونبل الضمير ، وأن يكون من أشد الناس محافظة على الكمالات والآداب ، حتى يمكنه أن ينفع بنصحه ، ويجمع الناس إلى رأيه ، فضلا عن وجوب علمه بالسياسة الداخلية والخارجية . والمدعى عليه لا يمكنه أن يدعى لنفسه هذه الصحافة ، وذلك لتقلبه فى المبادىء لغير سبب ، وتعرضه للشخصيات فى ثوب المصالح العامة ، وسكوته عن بعض ما يلزم الكلام فيه لأغراض بعض من يهمه رضاؤهم ، وكثرة أضراره . وهو يدعى أنه يريد النفع مما هو معروف عنه ، ولا نريد أن نعدو ذلك . وكفى بهذه القضية وحدها دليلا عليه .

ثم مضى المحامى يقول :

وعلى ذلك فالمدعى عليه ليس مشتغلا بالصحافة ، قائما بها . وإنما هو مشتغل بشىء يشبهها لأغراضه ، ملبساً إياه ثوب الإرشاد والمصلحة العامة . وهذا اشتغال بأخس الحرف وأدنئها .

وكرر المحامى قوله : وعلى ذلك فلا يكون محترفا الصحافة ، وإنما هو محترف حرفة أخرى دنيئة .

ومن أجل ذلك حكمت المحكمة بعدم صحة العقد . وهلل الشعب لهذا الحكم . ونظر الناس إليه على أنه انتصار للأخلاق ، والتقاليد ، والعادات . وجاء هذا الحكم هزيمة ثانية للورد كرومر ، وللحكومة المصرية التى اجتهدت فى تنفيذ أغراضه .

أما الشيخ على يوسف فقد تعلم درسا نافعا قيما من هذه القضية . وسرعان ما عاد إلى صفوف الشعب ، وازداد إدراكا لخطره ، وتقديرا لمشيئته .

وأسدل الستار فى هذه القضية الاجتماعية عن منظر السيدة صفية السادات ، وقد أعيد عقد زواجها من الشيخ على يوسف فى منزل أبيها ، وبرضى منه .

قضية المسامير :

بقى أن نتحدث عن القضية الثالثة من قضايا المؤيد ، وهى القضية الخاصة (بكتاب المسامير) . ولكن يحسن بنا — أولا — أن نتحدث عن هذه الصفحة من صفحات الأدب الهيجائى ، فى مصر ؛ وهى صفحة كتبها السيد عبد الله النديم ، وقصد به إلى هجاء الشيخ أبى الهدى الصيادى ، وقد اصطدم بهذا الداهية فى الآستانة . وكان من عادة النديم أنه لايهاب أحداً ، ولايخشى عاقبة ، ولا يبالى بعمل . فالويل كل الويل لمن يعترضه فى طريقه ، أو يثير فيه وفى لسانه دواعى الشر أو الأذى .

ومنذ اصطدام النديم بأبى الهدى كتب فيه كتاب المسامير ، فجعله على شكل مقامة . توخى فيه أسلوبها الذى يعتمد على السجع ورواية الشعر ،

وبناها على تسعة مسامير ، وجعل الغاية منها وصف أخلاق أبى الهدى الذى سماه فى كتابه باسم (أبى الضلال) ، وتخيل فيه قصة نسبه وميلاده بأقبح صورة ، وأدناها إلى الإفحاش والأقذاع .

ونحن نعرف أنه ليس للأدب الساخر من هذا النوع غاية إلا الإضحاك والازدراء ، وأن للعلماء والأدباء والفلاسفة والمفكرين طريقة أخرى فى السخرية والتهكم ، لا تقوم على القذف والسباب بقدر ما تقوم على اللذع والانتقاد . وهذا الأخير لا نستطيع أن نسميه خروجاً على الآداب العامة [1] .

خذ لذلك مثلا واحداً من كتاب المسامير للسيد عبد الله النديم . وليكن هذا المثل وصف ميلاد (أبى الضلال) من أبوين من الجان ، أو ممن لهم نسب إلى الشيطان . قال :

« حين سبق القضاء المحتوم بتكوين الضليل من هذا المشؤوم . غابت النجوم بعد ما أشرقت ، وأرعدت السماء وأبرقت ، وزلزلت الأرض زلزالها . وقال الإنسان مالها ، وارتج الكون رجة ، وصار العالم فى ضجة ، وقضى الله ألا تحمل أنثى فى تلك الليلة من الجن أو الانس ، حتى ينفرد ابن الصياد بهذا الطالع النحس ، ثم نادى مناد بين الأرض والسماوات ، يسمع صوته ، ولا ترى منه الذات :

أيتها الأمم الحاضرة ، والعوالم الناظرة ، استعدوا للبلايا وهجوم الرزايا ، وحدوث الكروب والهموم ، والشدائد والغموم ، فقد آن ظهور مثير الفتن ، وغارس الأحقاد والإحن ، وموغر الصدور ، وجالب الشرور ، ومظهر الفساد ، ومضل العباد ، ومفسد مذاهب الأئمة ، ولاعن الأشراف وعلماء الأمة ، وعدو محمد وعيسى ، وخصيم ابراهيم وموسى — إلى أن قال :

---

(١) راجع فصلا بعنوان : السخرية فى الأدب العربى من كتاب حكم قراقوش للمؤلف .

عزوا الهدى وشريعة الإسلام عزوا العلوم وحكمة الأعلام
عزوا النبى وآله فى سنة عزوا الصحاب وجامعى الأحكام
عزوا الأئمة فى نفائس كتبهم عزوا الهداة وثلة الأقلام الخ

* * *

وإن قارىء هذه المقامة ليعجب من خيال النديم كيف اتسع لكتابة كل هذه الصفحات الطوال فى موضوع واحد، هو ميلاد الشيخ أبى الضلال، كما يعجب من قدرة النديم على الهجاء المرير إلى الحد الذى يذكر بجرير وابن الرومى والمتنبى وغيرهم من الشعراء الهجائيين.

وأرجو أن يعتبر القارىء ذلك من أننا إنما ننقل له من كتاب المسامير أقل السطور هجاء وإفحاشا، وأننا أعرضنا عما سوى ذلك.

* * *

ولقد قام الشيخ على يوسف بطبع هذا الكتاب، فأفضى ذلك إلى رفع قضية عليه اتهم فيها بالقذف فى الشيخ أبى الهدى الصيادى. وقد شغلت هذه القضية الرأى العام حقبة طويلة من الزمان، وخرج على يوسف من هذه الأزمة الأخيرة منتصراً، لم يستطع القضاء أن يناله بعقاب ما. ونحن نستميح القارىء عذراً فى إعراضنا عن الرجوع به إلى أعداد المؤيد التى نشرت بها أخبار هذه القضية، وفى تتبعها على النحو الذى اتبعناه فى القضايا الأخرى.

ومهما يكن من شىء فان القصة الأخيرة لم يكن من الشأن ما كان للقضيتين الأوليين، وإن كان لها من الضجة ما كان لهما. ومع ذلك فلم نشر إليها إلا استقصاء للواقع، وتصويراً للحقيقة والتاريخ.

الفصل الرابع

على يوسف والإحتلال البريطانى

فى تلك المحنة الشديدة التى مرت بالمصريين ، ونعنى بها محنة الاحتلال البريطانى كان يذود عن مصر ضد هذا الاحتلال البغيض رجلان كبيران ، بل زعيمان خطيران ، هما السيد على يوسف ومصطفى كامل . أما الأول فكان رئيساً لحزب الإصلاح على المبادىء الدستورية ، وأما الثانى فكان رئيسا للحزب الوطنى . وكانت المؤيد لسان حال الحزب المعتدل ، وهو حزب السيد على يوسف . كما كانت اللواء لسان حال الحزب المتطرف ، وهو حزب مصطفى كامل . وكان الفرق بين الرجلين فى مناهضة الاحتلال الانجليزى هو عين الفرق بين سياسة حزب الإصلاح وسياسة الحزب الوطنى ، أو بعبارة أخرى بين سياسة المؤيد وسياسة اللواء ، وذلك حتى قبل أن تظهر حركة الأحزاب المصرية نفسها . وأن الناظر فى تاريخ مصر فى تلك المحنة ليرى كيف كان كل واحد من هذين الزعيمين يكمل الآخر ، ويعتبر عمله متمما له .

فهذا هو الزعيم الشاب مصطفى كامل يثير الخواطر ، ويهيج المشاعر ، ويقذف فى وجوه الانجليز بين حين وحين بكلماته القوارص ، ويكسب إلى جانبه الرأى العام فى مصر ، بل الرأى العام فى أوروبا كلها إلى جانبه .

وهذا هو الزعيم الآخر السيد على يوسف يعمد إلى هــذه القضايا السياسية التى يخلقها الاحتلال فيبسطها لقرائه فى المؤيد ، ويأخذ فى مناقشتها تارة ، وتحليلها تارة ، ويبرهن على أخطاء الانجليز تارة ثالثة ، ويبنى برهانه على طائفة من الدلائل المحسوسة ، والقرائن الملموسة ، والحجج العقلية والمنطقية التى لا تقبل الرد ، ولا تحتمل الانكار .

بهذه الطريقة وتلك طفق زعيما مصر فى ذلك الوقت يعالجان المسائل الهامة ، والقضايا التى تشغل بال الرأى العام : هذا بعنفه وشدته ، وذاك بعقله ورويته . حتى لكأن أحدهما ، وهو مصطفى كامل قلب مصر النابض ، وكأن الثانى ، وهو على يوسف عقلها المفكر ، وليس للأمة نفسها غنى بأحدهما عن الآخر .

وهكذا عولجت جميع المشكلات السياسية والاجتماعية التى كانت من خلق الاحتلال ، وهى مسائل كثيرة ، أشرنا إلى بعضها فى (تمهيد) هذا البحث . فمنها مسألة فاشودة ، ومنها مسألة دنشواى ، ومنها مسألة المحكمة المخصوصة ، ومنها مسألة النظار . وأشدهذه المسائل فى نظر المصريين جميعا جبار الاحتلال كرومر ، ثم خلفاؤه من بعده . ولست أريدهنا أن أتعرض لموقف السيد على يوسف فى كل واحدة من هذه المشكلات على انفراد . فالكتاب الذى بين أيدينا لا يتسع لكل ذلك . ولكننى مكتف ببعض المواقف الهامة للسيد على يوسف ضد الاحتلال . أذكر منها على سبيل المثال ما يأتى :

كان للسيد على يوسف موقفه المشهور من الخطبة التى ألقاها رياض (باشا) فى الحفل الذى أقيم بمناسبة إنشاء مدرسة محمد على الصناعية . وسنعرض لهذه الخطبة بعد قليل .

كما كان لهذا الكاتب الكبير موقفه المشهور بمناسبة الزيارة التى قام بها الرئيس الأمريكى روزفلت للسودان ثم مصر ، والخطب التى ألقاها فى هذين البلدين ، وجرح فيها الكرامة المصرية جرحا بليغا وسنعرض كذلك لهذا الموقف فى فصل مستقل من فصول هذا الكتاب .

وكان للسيد على يوسف موقفه المشهور كذلك بالنسبة للتقارير التى كان يصدرها اللورد كرومر كل عام ، ويسب فى بعضها المصريين وينال منهم ، ويصفهم فى بعضها الآخر بالتعصب الدينى ، ويمنّ عليهم فى بعضها الثالث بما قام الاحتلال من تحسين نظام الرى وهكذا . وقد دأب السيد على يوسف

على الرد على جبار الاحتلال فى كل تقرير من تقاريره بما رد للمصريين كرامتهم المسلوبة ، ووفر لهم عزتهم المغصوبة ، ودافع عنهم ضد هذا اللورد الذى كان يسعى جهده لإطالة أمد الاحتلال البريطانى ، وكان يسعى جهده كذلك لتحسين حالة الرى فى مصر ذرآ للرماد فى الأعين ، وذلك فى الوقت الذى حرم فيه المصريين من الاتصال بالثقافة الأوربية ، والاكتفاء بثقافة الكتاتيب حتى يظلوا على حال من التأخر لا تسمح لهم بالتطلع إلى الاستقلال والحرية . وسنفرد لردود السيد على يوسف على هذه التقارير فصلا قائما بذاته عنوانه : السيد على يوسف ومقالات قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء.

ثم كان لهذا الكاتب الذائع الصيت موقفه العظيم من الحفل الذى أقيم لتكريم اللورد كرومر عقب اعتزاله الخدمة سنة ١٩٠٧ وإلقائه الخطبة المشهورة التى نال فيها من المصريين كذلك كل منال . وقد أفردنا لرد السيد على يوسف على هذه الخطبة مكانا فى نهاية هذا الكتاب .

والآن وفى هذا الفصل الذى بين أيدينا سنعرض بالإيجاز الشديد موقفين فقط من هذه المواقف وهما : موقفه من خطبة رياض ، وموقفه من زيارة روزفلت . وذلك على النحو الآتى :

خطب رياض (باشا) رئيس مجلس النظار فى حفلة أقيمت بمناسبة إنشاء مدرسة محمد على الصناعية خطبة جاء فيها قوله :

(. . . جناب المحتشم اللورد كرومر أعتذر عن الحضور فى هذا الحفل لتغيبه عن مصر ، وكل يعلم ماله من المقام الأرفع ، والنفوذ الشامل فى هذه البلاد ، وبالأخص ماله من اليد الطولى فى كل ماله مساس بالمصالح والمنافع العمومية . فهذه اليد هى التى قد شملتنا . وهى التى كانت لنا معوانا ، بل متمما ومكملا لهذا المشروع . فحق علينا أن نعرف له هذه المبرة ، ونقوم لجنابه بواجب الشكر ، ونثنى عليه أطيب الثناء ، ولا نبرح نترجاه ، ألا يترك هذا المولود فى مهده صبيا ، بل يراعيه بعين عنايته ، ويواليه إلى أن يتربى ويبلغ أشده ، ويصير رجلا قويا يقوم بأود نفسه .

مولانا (يخاطب الخديو عباس) :

اسمح لى بأن أتكلم بما يخالج ضميرى . إذا نظرنا وتأملنا الآن إلى ماجريات الأحوال، وطبقنا ماضيها على حاضرها نجد أن الأفكار والأحوال قد تغيرت تغيراً كلياً ، واتخذت لها مجرى جديداً نحو التقدم والترقى ، وبث العلوم والمعارف ، وانتشارها فى كل بقعة من بقاع البلاد . وكل ما نراه بأعيننا من هذه المشروعات العلمية الأدبية ، والمؤسسات الخيرية الأهلية يتلو بعضها بعضاً لا نشك ولا نرتاب بأنها أثر من آثار هذا الانقلاب . فلاحاجة بنا الآن إلى أن ندخل فى موضوع الشرح والتأويل ، ولا فى البحث والتدقيق فى علل الأمور ومسبباتها . بل نكتفى الآن بأن ننظر بعين البصيرة والاعتبار إلى ما كنا عليه بالأمس ، وما نحن فيه اليوم ، ونهنىء أنفسنا ، ونتهلل بشراً ، ونسجد لله شكراً على ما وصلنا إليه من التقدم الباهر ، مستبشرين بما تدلنا عليه قرائن الأحوال بمستقبل زاهر الخ .

وعلق السيد على يوسف فى مؤيده على هذه الخطبة قائلا :

(وإننا ممن يحترمون دولة رياض (باشا) احتراما زائداً ، ونعتقد أنه نفع البلاد المصرية أكثر من كل وزير مصرى ، وأنه كان أشد المصريين وقوفا فى وجه الاحتلال مدة وزارته التى تولاها . ونعتقد أنه من أصدق الرجال قولا فيما يترجم به لسانه عن ضميره . ولكن كل ذلك لا يمنعنا أن نقول إن كلامه فى الحفلة قد ثقل على أسماع أكثر من فيها ، وأنه ربما يكون مقاله خفيفاً عليها بعد عشر سنوات تأتى — مثلا — حتى تكون الأفكار والأحوال قد تغيرت عما هى عليه الآن . وقد قلنا عشر سنوات مثلا ، لأنها مثل المسافة التى مضت منذ ما كان عليه رياض (باشا) من معارضة الاحتلال ، والوقوف فى وجهه كالجبل الذى لا يتزعزع ، وبينه اليوم وهو يقول : إن كل ما نراه من المشروعات العلمية والأدبية والمؤسسات الخيرية الأهلية التى يتلو بعضها بعضاً من أثر ذلك الانقلاب الذى لا موجب الآن للبحث فى علله وأسبابه ،

ولا كيف جرى وكان . أما الآن فلا شك ولاريب أن أكثر الموجودين لم يكونوا ينتظرون مقاله هذا . ولذلك ثقل على أسماعهم ، وأكثروا فيه من التأويل . على أننا إذا اعترفنا مع دولة الوزير بالتقدم الكثير ، والارتقاء العلمى والأدبى من أثر ذلك الانقلاب ، فلسنا معه فى الاستبشار الفائق بمستقبل البلاد الزاهر الباهر .

فإننا نعتقد أن البلاد التى تكون أكبر نتائج الانقلاب فيها أن يستبد بأمورها كلها رجل واحد، يأتمر بأوامره أربعة أو خمسة رجال من المحتلين ، يقومون فى أعمالهم مقام الحكومة الرسمية والدستور النيابى ، غير مسئولين عن شىء ، لايمكن أن تكون لها ضمانة بذلك المستقبل الزاهر الباهر الذى بشرنا انتظاره دولة الوزير .

وقد جاء فى أول المقال[1] الذى نشير إليه قول صاحب المؤيد :

. . . وقد جرت العادة أيضاً أنه إذا شرف الاحتفال الجناب العالى أمير البلاد المعظم اقتصر الخطباء — رسميين أو غير رسميين — على ذكر العناية الإلهية التى شملت هذا المشروع من سموه ، ولم يذكر يداً سواها معها بالشكر والثناء . فعلى ذلك ذهب إلى الاحتفال العظيم الذى أقيم أول أمس لوضع الحجر الأول فى أساس مدرسة محمد على الصناعية كل من لبى الدعوة . ولم يكن أحد ينتظر أن يسمع من خطيب الحفلة الرسمى ، الذى هو صاحب الدولة رياض (باشا كلمة سياسية ، أو أن يذكر بجانب اسم الجناب العالى الخديوى اسم رجل آخر . يصفه برفعة المقام والنفوذ الشامل ، ويرجوه ألا يترك موضوع الاحتفال طفلا فى مهده ، بل يعضده حتى يشب وينمو ويبلغ أشده .

ولكن هناك حقيقة يجب أن يعترف بها الكل ، وهى كما قال دولة الوزير إن الأفكار والأحوال قد تغيرت . واتخذت لها مجرى جديدا وهذا التغيير الأفكار والأحوال هو الذى جعل مثل رياض (باشا) يقول فى أكبر حفلة

(١) انظر المؤيد — العدد رقم ٤٢٦٨ بتاريخ ٢٥ مايو سنة ١٩٠٤

أهلية ، وبين يدى مولاه الخديو المعظم كلاما ربما اعتقد سامعوه أنه لم يرُق لدى مسمعه العالى ، أو على الأقل لم يرق لدى أكثر السامعين .

وهذا التغير قد فتح الباب لعظماء مصر وكبرائها الآن أن يبدوا آراءهم وما يخالج ضمائرهم فى المحافل الكبرى ، وهو تغير يجب أن تتلقاه أرباب الأفكار بالاهتمام والعناية . فإذا كان فى البلاد عظماء وعقلاء كبار يسمّون قادة أفكارها كما وصفهم دولة رياض (باشا) ، فليست هذه الصفات لتكون لهم ألقاب حلى وفخار بل ليكونوا قادة للأمة — حقيقة — بإبداء الآراء النافعة والأفكار الصالحة . فإذا قال خطيب منهم كلاما رآه آخر خطأ أصلح هذا منه الخطأ . وإذا اتخذ هذا مبدأ رآه غيره ضارا بالبلاد احتفظ هو لغيره بالمبدأ النافع . وهلم جرا . (أذكر قصيدة شوقى)

فهذا موقف من مواقف السيد على يوسف ضد جبار الاحتلال فى مصر ، ونعنى به كرومر . وقد بلا هذا الجبار من قلم السيد على شيئا كان أشق على نفسه من مناوأة دولة أجنبية بأسرها ، تريد أن تزاحمه فى احتلال مصر .

زيارة روزفلت :

وحدث أن زار الرئيس روزفلت — رئيس جمهورية أميركا — مصر ، وذلك فى يوم ٢٤ مارس سنة ١٩١٠ م ، فاستقبله من قبل الخديو سعيد ذو الفقار (باشا) . وزار الرئيس سموه فى عابدين ، ورد له سموه الزيارة . ثم أقيمت له مأدبة شائقة فى ٢٦ مارس ، أقامها له (الأمير) أحمد فؤاد رئيس الجامعة الأهلية المصرية ، ودعاه لإلقاء محاضرة فى الجامعة . فلبى الدعوة ، وألقى محاضرته فى اليوم التالى ، وتكلم فى هذه المحاضرة عن أهمية الجامعة ، وأنها الطريق القويم للتربية الصحيحة ، وتحدث عن واجبات الذين يلون أمرها ، وواجبات الطلبة الذين ينتسبون إليها . ثم عرج المحاضر على مقتل بطرس غالى (باشا) ، وأشار فى حديثه إلى أن هذه الجرائم بغيضة إلى نفوس الجميع ، وأنها وبال على الأمانى الوطنية . وتطرق من ذلك إلى الحديث عن الأمم

التى تمنح الدساتير ، وهى لم تزل فى دور التكوين . وقال إن مثل هذه الأمم تكون خطراً على نفسها ، لأنها لم تكمل فيها الصفات التى تمكنها من الانتفاع بالدستور ، وأن الأمر الجوهرى ليس هو الإسراع للحصول على سلطة ليس هناك أيسر من سوء استعمالها ، وإنما هو ترقية الصفات التى يسمو بها الفرد والأمة ترقية دائمة ، وإن تكن بطيئة ، وأن هذه الصفات هى التى تجعل الأمة قادرة على حكم نفسها بنفسها . ثم أشار روزفلت فى خطابه إلى الإدارة الانجليزية فى السودان ، وأثنى على اللورد كرومر ، وعلى سياسته فى مصر .

وكان هذا الخطاب مثاراً لعاصفة شديدة من النقد ظهرت على صفحات المؤيد ، والجريدة ، واللواء . ووجه الشيخ عبد العزيز جاويش يومئذ رسالة إلى روزفلت يلفت نظره فيها إلى أنه فى بلد إسلامى ، فليس له أن يبشر بحسنات المسيحية ، وأن ينسى فضل التعاليم الإسلامية .

كما نظم حافظ (بك) ابراهيم قصيدة قوية فى هذا المعنى ذكر فيها روزفلت برأى الأمريكيين فى الانجليز يوم كانوا يحتلون بلادهم . ومما جاء فيها :

يا نصير الضعيف مالك تطرى   خطة القوم بعد ذاك النكير ؟
لم تطيقوا جوارهم بل أقمتم   فى حماكم من دونه ألف سور الخ .

أما الشيخ على يوسف فإنه كتب فى مؤيده خطاباً مفتوحا إلى روزفلت حمل فيه على مسلكه وخطته وإخلاله بواجب الضيافة . ونشرت ترجمة هذا الخطاب فى بعض الصحف الأمريكية الشهيرة . وبعث بعضها إلى الشيخ على يوسف يطلب إليه كتابة تحقيقاً صحفياً فى هذا الموضوع ، يتحدث فيه عن روزفلت وما كان لزيارته من أثر فى نفس الشعب المصرى . فلبى الشيخ هذه الدعوة وبعث إليها بمقال :

وفى ذلك يقول السيد على يوسف :

علم قراء المؤيد أننا كنا أول من انتقد خطة المستر روزفلت فى السودان

وخطبته فيه . فكتبنا قبل وصوله إلى القاهرة بيومين خطاباً مفتوحاً ، وجهنا له فيه الإحترام بصفته ضيفاً عظيما على مصر ، والانتقاد والعتاب لأنه نحا نحو عشاق الاستعمار الإنجليزى فى أقواله ونصائحه التى وجهها للسودانيين والمصريين ، مرغباً فى الطاعة العمياء للحكم الإنجليزى . وقد أرسلت يومئذ ترجمة هذا الخطاب بالإنكليزية تلغرافيا لجرائد أمريكا . فكان له تأثير قوى فى الولايات المتحدة ، كما يفهم من الخطاب الآتى الذى ورد علينا بعد ذلك ، وهو :

إدارة مجلة نورث أمريكان رڤيو

رقم ٣٢ پيرل ستريت

نيويورك فى ٢٩ مارس ١٩١٠ م

حضرة الشيخ على يوسف مدير سياسة جريدة المؤيد بمصر

إن شهرة ردكم على خطاب مستر يتودور روزفلت الرئيس السابق قد ذاعت فى الولايات المتحدة ، وأحدثت اهتماما عظيما .

ولما كنا نريد أن نزيد هذا الموضوع وضوحاً وجلاء جئت أرجوكم أن تتفضلوا فترسلوا إلى مجلة (نورث أمريكان رفيو) فى ٣٢٥ پيرل ستريت — نيويورك مقالة تشتمل على ٢٥٠٠ كلمة تبدون فيها رأيكم مفصلا فى المستر روزفلت .

وعلى أمل أن يصلنى جواب عاجل أرجو قبول احتراماتى ؟

الداعى

وليم . او . انجليس

وفى ٢٤ ابريل سنة ١٩١٠ بعثت له بالجواب الآتى مترجما ترجمة موافقة للأصل باللغة الانجليزية . وهذا بنصه :

جناب المحترم مستر وليم . او . انجليس

مدير مجلة نورث أمريكان رفيو ٣٢٥ شارع پيرك بنيويورك .

تشرفت بكتابكم المؤرخ فى ٢٦ مارس سنة ١٩١٠ تشيرون فيه إلى

الخطاب المفتوح الذى رفعته إلى جناب الكولونيل روزفلت رداً على خطبته فى السودان . وتقولون أن هذا الجواب صادف حظا من الشهرة فى بلادكم، وترغبون أن أكتب لمجلة (نورث أمريكان رفيو) مقالة أبين بها رأيي فى المستر روزفلت ، وأضمنها حقائق أخرى تختص بزيارته . فأنا أشكركم على حسن اعتقادكم ، وأرى حقا أن أجيبكم إلى ماطلبتم .

لقد كنا ننتظر وصول رئيس الولايات المتحدة السابق إلى بلادنا بشغف عظيم . ذلك لأنه كان فى اعتقاد المصريين جميعاً أنه أفضل ممثل للأمة الأمريكية العظيمة . كما هم يعتقدون أن الأمريكان أعظم الأمم الراقية فى هذا العصر مكانة فى المدينة ، وانتصاراً لحرية الأمم بقدر ما أحرزوا من الأخلاق الدستورية . وزد على ذلك أن المصريين يميلون للأمريكان أكثر من الأمم الأوربية ، لأنهم لم يصلهم أذى من ناحية أمريكا . وهم مع ذلك منتفعون من مدنيتها بقدر ماهم منتفعون من مدنية أوروبا . ولذلك كانت تجارات ومنافع أمريكا فى الصف الأول من رغبة المصريين فى ثمرات التمدن العصرى .

وفضلا عن ذلك فان المصريين قد انتفعوا انتفاعا مخصوصاً من الأمريكان الذين استقدمهم المرحوم اسماعيل (باشا) الخديو الأسبق لوظائف الرى فى نظارة الأشغال ، والجندية فى الجيش المصرى . فهم الأساتذة الوحيدون الذين علموا المصريين بأمانة ، ولم يخلطوا وظائفهم بالسياسة . وحسبهم فخاراً وذكراً فى مصر أن جميع الضباط العظام الحائزين لرتبة اللواء العسكرية فى الجيش المصرى الآن هم من تلامذة الجنرال ستون ، ومن كان معه من الضباط الأمريكيين فى عهد الخديو الأسبق .

لهذا كله ما اقترب الكولونيل روزفلت من عاصمة السودان قادماً عليها من سياحته فى مجاهل إفريقية ، حتى أخذت الصحف المصرية على اختلاف

نزعاتها فطرية ، وتذكر مناقبه وتاريخ حياته المجيد . وقد استعد الكثيرون من سراة القاهرة وكبار أعيانها لملاقاته بآيات الحفاوة والترحيب . ورأى الكثيرون من أعضاء حزب الإصلاح الدستورى الذى أتشرف برياسته أن ندعوه إلى مادبة سياسية . وقد ذهب فعلا رسول من قبل الحزب إلى جناب الجنرال قنصل الولايات المتحدة يسأله عن إمكان نيل هذا الشرف ، ويرجوه تبليغ هذه الدعوة . فأجاب القنصل الجنرال بما يأتى :

« إن الكولونيل روزفلت لايجيب دعوة سياسية ؛ لأن الأمريكان يحظرون على أنفسهم التدخل فى السياسة ، حتى أن المصرى الذى تجنس بالجنسية الأمريكية ، وأخذ إحدى الجرائد المصرية تحت اسمه ليحميها من سلطة القانون المصرى يفقد حمايته من أجل ذلك . فإذا كان هذا شأن سائر الأفراد الأمريكيين ، فكيف برجل يحمل أعباء مسئولية كبرى مثل الكولونيل روزفلت رئيس الولايات المتحدة سابقا ، والمنتظر أن يكون رئيسها قريبا ؟

ومع هذا الجواب قد عقدنا النية على أن نبذل كل مافى وسعنا لإظهار الحفاوة لضيف مصر العظيم ؛ وكان هذا الشعور القائم بنا عاما عند جميع الأحزاب المصرية ، بل عند جميع الذين يعرفون اسمه المبجل فى كل مكان .

ولكن ماوصل مدينة الخرطوم وألقى خطابه فى نادى الضباط المصريين ، وعلى طلبة المدارس الأمريكانية حتى فوجئنا باندهاش عظيم .

ألقى الكولونيل روزفلت خطبته على الضباط المصريين ، وكان أهم شىء وجه إليه عنايته فى كلامه أن نصحهم بالإبتعاد عن السياسة . والنصيحة فى ذاتها صحيحة ، لأن الجندى إذا اشتغل بالأمور السياسية أصبح عسكريا ضعيفا ، وسياسيا سخيفا ، وقد رفعت صوتى مرارا بمثل هذه النصيحة للضباط العثمانيين . ولكن موضع الإنتقاد على الكولونيل روزفلت أنه

ألتى نصيحته فى ظروف مخصوصة أخرجتها عن مغزى النصح إلى قصد غمز الضباط ، وإيلام عواطفهم ، وجعلت الواقفين على الحقائق — وأنا من جملتهم — يندهشون من خطة ذلك الضيف فى السودان ، ويتوقعون اندفاعه إلى أكثر من ذلك متى وصل إلى القاهرة .

وهذا ما دعانى إلى أن أسارع برفع الخطاف المفتوح إليه على صفحات المؤيد ، أنتقد فيه خطته فى السودان ، وأرجوه أن يلاحظ كرامة الأمة المصرية وهو بين ظهرانيها .

ولكى تعرفوا الظروف الخصوصيـــــة التى جعلت تلك النصيحة صحيحة نقول :

سبق وصول رئيسكم السابق مدينة الخرطوم خبر مقتل الطيب الذكر بطرس غالى (باشا) رئيس مجلس النظار ، وقد كان من الطائفة القبطية التى هى الفئة الصغرى فى الأمة المصرية .

فلما قرىء ذلك الخبر المكدر فى نادى الضباط المصريين صفق له بعض الأحداث منهم . ولا ريب أن هذا لو صح كان خالياً من الفطنة ، وبعيداً عن الذوق . وورد خبر هذا الحادث بالتلغراف سرا على بعض ولاة الأمور ، فلم يطلع عليه إلا القليلون جداً ، ولم تكتب عنه صحيفة مصرية حرفاً واحداً . ولكن الكولونيل روزفلت لم يتحاش أن يشير إلى هذه الواقعة التى تحسب هفوة داخلية وقعت فى نادى الضباط ، ولم تتعد جدرانه ، ولم ير الضباط الانجليز الذين يرأسون الضباط المصريين من حسن السياسة ، ولا من الذوق أن يخاطبوهم فى شأنها .

ولما كنت أعرف ما عزى إلى الضباط المصريين قبل خطبة المستر روزفلت عليهم أيقنت أن فى هذا الرجل العظيم موضع ضعف ابتلى به كثيرون من كبار الرجال ، وهو غرورهم بأنفسهم ، وظنهم أنهم فوق كل ظنون الناس وملاحظاتهم . وعلمت أنه مع ما اشتهر به من قوة الإرادة واستقلال

الرأى قد يكون فى بعض الأحيان من أولئك السياسيين الذين يُدفعون بالتملق إلى حيث يراد بهم من حيث لا يشعرون .

كان المستر روزفلت من أربعة أشـــهر يقاتل الوحوش ويطاردها فى وسط مجاهل إفريقية ، ولم يكن يصله من أخبار العالم إلا الشىء القليل من أنباء قومه، وما يعتد به جداً من أعمال حزبه. وكانت الأخبار تصله بصعوبة وبعناية نادرة المثال . فمن البديهى أنه كان مشغولا عن أخبار الأمم الأخرى. فلم يكن يعنيه أن تصل إليه بالدقة أخبار مصر والمصريين.

وأول مدينة حضرية وصلها ذلك الرئيس بعد ســـياحته القفرية هى الخرطوم . وعقب وصوله إليها بيوم ألقى تلك النصيحة على الضباط المصريين فى ناديهم . فمن أين جاءه أن هؤلاء الضباط كانوا مشتغلين بالسياسة ، ولم يؤثر عنهم منذ دخلوا السودان حادث سياسى ، ولم تتهمهم جريدة شرقية ولا غربية بذلك ؟!

أليس ما ألقاه عليهم محمولا عليه من أشخاص يهمهم أن يسمع أولئك الضباط هذه النصيحة ؟

لذلك وقع فى خاطرى أن المستر روزفلت يمكن أن يحمل على راحات الفخفخة وهو مقبل على القاهرة ، فيدفعه الغرور بنفسه مرة أخرى إلى عرض الأمة المصرية بين يديه ، وإلقاء درس قاس عليها مثل الذى ألقاه بعد ذلك فى الجامعة المصرية . فكتبت ذلك الخطاب الذى كان أول ما قرأه بعد وصوله إلى القاهرة .

وقد علمت أنه اهتم بما كتبت كثيراً ، ورغب فى مقابلتى بالذات ، ثم تراءى له بعد ذلك أن يقابلنى مع بعض رصفائى الصحافيين . وأذكر أنه كان فى مقابلته لطيفاً ، ولو أنه كان يضرب بيديه على بعضهما بشدة ، كلما حاول أن يؤثر علينا . ومن أقواله لنا إذ ذاك ما يأتى :

بلغنى أنه قد وشيت على وأنا فى السودان وشاية كاذبة ؛ قالوا فيها إنى جرحت عواطف المسلمين . فأنا أكذب هذه الوشاية بتاتاً . ثم قال كلمة دلتنى على أنه تألم كثيراً من انتقادى عليه ، وهى : إننى لا أنتظر من صاحب الجريدة أن يعلمنى ماذا أقول . وها أنا سألقى خطبتى غداً فى الجامعة المصرية ، فانتظروها ، وقولوا فيها ما تشاؤون . وبعد مفارقتنا علمت أنه هذب خطبته التى كان أعدها ليلقيها فى الجامعة ، وحذف منها عبارات كثيرة . ولكن مع الأسف العظيم بقيت أقواله مهينة للأمة المصرية ، إذ أشار عليها أن نصبر أجيالا طوالا ، حتى تكون مستحقة للحكم الذاتى .

وقد كلف الكولونيل روزفلت نفسه أن يحفظ مثلا عربيا ، وهو « إن الله مع الصابرين إذا صبروا » لينطق به عربيا ، ظانا أنه بعد ذلك يتسنى له أن يصب الرصاص ذائبا فى أدمغة المصريين فيجمد . ولكنه لم يكد ينطق به حتى ضحك السامعون ، وأنا فى جملتهم . وقد التفت رئيسكم المحترم لى وأنا أضحك عند ما نطق بهذه الجملة ، فابتسم وانحنى محييا بالإشارة .

أما أكثر الناس فقد ضحكوا لأنهم رأوا أن جناب الخطيب المحترم أجهد نفسه ، وحملها فوق طاقتها لغرض التأثير على السامعين . ولكن كل مصرى إذا قيل له إنك لا تستحق الحكم الذاتى إلا بعد مرور عدة أجيال ضحك ضحكاً كالبكاء ، وتعجب من قائله .

مصر محتلة بدولة أجنبية ، يعرف الكولونيل روزفلت أنها قائمة على شئونها قيام الوصى القوى على قاصر غنى . فلا الوصى يريد أن يرفع يده عن ذلك القاصر وكل ما يملك . ولا القاصر يستطيع أن يدرك منزلة الرشد ، مادام الوصى يمنعه من الوصول إليها بمقتضى مصلحته الخصوصية

ألم يكن الأجدر بالكولونيل روزفلت وهو ينصح المصريين أن يصبروا إلى عدة أجيال ليكون الله معهم أن يوجه لأبناء عمومته المحتلين نصيحة تليق أن توجه إلى الوصى القوى الطماع ؟ !

فاذا قيل إن الخطيب تحاشى ذلك حتى لا يجعل مركز المحتلين حرجا أمام الوطنيين . فكيف سوغ لنفسه وهو يمثل أعظم أمة حرة أن يجعل مركز الوطنيين حرجا أمام المحتلين ؟ وهل من مقتضى شهامة الأمريكى الذى يأنس من نفسه قوة الكولونيل روزفلت واقتداره أن يطعن أمة هو ضيفها هذه الطعنة النجلاء ، مهما كان اعتقاده الخصوصى ؟ !

وفوق ذلك فإنه جرح فى خطبته هذه عواطف المسلمين كثيراً ، فسجل على نفسه ما كان نفى نسبة صدوره عنه فى السودان . فقد ذكر مقتل بطرس (باشا) ، وذكر فى جانبه الأقلية والأكثرية ، وقال : إن لدينا فى « فيلبين » المسلمين والمسيحيين ، ولكننا لانسمح للفئة الكبرى أن تتعدى على الفئة الصغرى . مع أن التحقيق أثبت إثباتا قاطعا أن الجانى فرد ، وأن جنايته فردية ، وأنه لادخل لغير الجانى معه ، لا فى النية ، ولا فى التدبير ، ولا فى ارتكاب الجريمة .

فكأنه كان يردد فى خطابه أقوال بعض الصحف الداعية إلى الشقاق والتفريق بين المسلمين والمسيحيين بنسبة التعصب الدينى للأولين .

وإذا أضفنا إلى هذا أن المستر روزفلت رفض دعوة كثير من سراة المسلمين ، وفى مقدمتهم بعض أعضاء الجمعية العمومية ، معتذراً بضيق الوقت ، وأجاب مع ذلك دعوة جماعة من أعيان الأقباط فى القاهرة بعد وصوله إليها بيوم ، كان للمسلمين بعض العذر فى أن يظنوا فيـــه ما لا يرضاه هو لنفسه .

ألقى المستر روزفلت خطبته فى الجامعة المصرية قبل ظهر يوم الاثنين ٢٨ مارس سنة ١٩١٠ . ولم يكن من حظ كثير من الحاضرين أن يفهموها كما هى وقت سماعها . فكان تأثيرها فى هذه الحالة موزعاً غير منضبط . ولكنها ماظهرت فى الصحف الساعة الثالثه بعد الظهر ، وهو موعد أكثر الصحف

المصرية فى الظهور، حتى شملت الناس دهشة لامزيد عليها . وقام بعض الخطباء فى عدة أماكن، مساء يوم الخطبة، واليوم التالى يندّدون بالخطيب. وصارت التلغرافات ترد من جميع جهات القطر للجرائد بالاحتجاج على أقواله القاسية .

ولا أبالغ إذا قلت لكم أن أبناء وادى النيل لم يتألموا من مطاعن اللورد كرومر التى طفح بها كيله فى خطبة الوداع قبل سفره النهائى من القطر المصرى بيومين (يوم السبت ٤ مايو سنة ١٩٠٧) مثل ما تألموا من خطبة الكولونيل روزفلت فى الجامعة المصرية. إذ اللورد كان مفارقاً مصر، حاقداً على أهلها، غاضباً منهم. وبينه وبينهم الحزازات التى توجد عادة بين الحاكم المستبد وبين أمة مغلوبة على أمرها . أما المستر روزفلت فقد وفد على مصر ضيفاً مكرما من أهليها، مرموقا بعين الإجلال والإعظام من جميعهم. ولم يكن تحت دافع سياسى يدفعه إلى أن يقف ذلك الموقف الشاذ، ويحكم ذلك الحكم القاسى على أمة يعرف عظمتها التاريخ منذ ستة آلاف سنة . ولم تختف أنوار التمدن منها فى عصر من الأعصر، بالرغم من حملات القاهرين فى القرون الماضية عليها .

كل ذلك والمستر روزفلت لا يعرف من أحوال مصر أكثر مما فى كتاب « مصر الحديثة » تأليف اللورد كرومر، وما يقرأه فى الصحف الانكليزية . وإن زاد عن ذلك فكما يعرف السائح النبيه فى مثل الأيام التى أقامها رئيسكم المحترم فى وادى النيل، مع ما كان يحيط به من الرسميات التى تحول بينه وبين معرفة الكثير فى الزمن القصير .

على أنه لا يفهم من قولى إن المصريين تألموا من خطبة الكولونيل روزفلت، واحتجوا عليه أن هذا الرئيس المحترم كان فى مركز حرج يخشى منه على حياته، أو على كرامته، كما أشاع بعض المرجفين، وكما سارعت بنشر

هذا الخبر جريدة « الديلى ميل » التى نقل مكاتبها حديثاً عن رئيس الوزارة المصرية ، وكذبه الرئيس فيه .

كلا وألف مرة كلا .

فان هذه الوشاية قد خلقها أشخاص أدنياء يريدون أن يسيئوا إلى سمعة مصر . وروجها بعض الموظفين الانجليز الذين يكرهون السير « ألدون غورست » .

ومن سوء حظ هذا المعتمد أنه لا يزال يستعين برجال اللورد كرومر الذين يبكون عهده بدموع حارة ، وينقمون على رئيسهم الحالى أنه كف أيديهم عن السيطرة على المصالح المصرية والموظفين المصريين ، وكانوا فى عهد اللورد أصحاب جبروت وطاغوت لا يطاق . فهم لهذا لا يفتأون يشوهون سمعة خلف اللورد كرومر ، كلما سنحت لهم الفرص .

فلما شعروا بانقباض نفوس المصريين عن الكولونيل روزفلت بعض الشىء عقب خطبته فى السودان ، رأوا الفرصة سانحة لأن يروجوا وشاية ذات حدين : حد يصيب المصريين بوصمة الهمجية والتوحش ، وحد يصيب السير ألدون غورست بوصمة ضعف السياسة ، إلى حد أن أعظم عظيم إذا زار مصر فى عهده لا يأمن على حياته من شر فوضاها .

نعم — إنه وجد عشرات أو مئات من الشبان المتحمسين قد وقفوا عند باب نزل شبرد ، وصاحوا (ليسقط روزفلت . ليسقط الاحتلال . ليحي الدستور) . وكان الرئيس فى هذه الساعة ضيفاً فى الوكالة الألمانية .

ومثل هذا النداء لا يصح أن يفسر بغير إظهار استياء الشبيبة المصرية من خطة الرئيس السياسية . ومن يقول غير هذا فهو فى ضلال مبين .

نعم إن الرئيس لما عاد إلى الفندق ، وبلغه خبر هذه المظاهرة لم يكن مسروراً منها . ولكننا لانظن أنه كان يشعر بخوف على نفسه مهما جسم له الوشاة هذا الوهم .

والحقيقة أن عقلاء المصريين لم يكونوا مسرورين أيضا من تلك المظاهرة ، وعدوها عملا صبيانياً .

ولكن اللهجة العامة التي جرى عليها الكولونيل روزفلت فى خطبه بالسودان ومصر ، وفى أحاديثه الكثيرة مع الناس ، وكان لها شيء من تأثير الكدر عند المسلمين أوجدت ميلا خاصا من طائفة الأقباط إليه ، ونتج من ذلك أن مئات من شبانهم أيضاً وقفوا فى محطة القاهرة يوم مبارحة الرئيس المحترم لها وصاحوا (ليحيي المستر روزفلت) . ولعلهم قصدوا أن يجاوبوا أولئك الشباب الذين تظاهروا أمام فندق شبرد مساء اليوم الماضى ضد المستر روزفلت .

ومن غريب الصدف أنى عندما وصلت إلى هذه العبارة من رسالتى اليكم قدم لى المترجم الإنجليزى العبارة الآتية منقولة عن الجريدة المذكورة فيها وهى : « نشرت جريدة النيويورك إيفنن چورنال بتاريخ ٣١ مارس رسالة لمكاتبها فى الاسكندرية وصف فيها سفر المستر روزفلت إلى أن قال :

ولما وصل المستر روزفلت إلى محطة طنطا أخبروه بأنه واقف حيث كان المسلمون يجرون المسيحيين من القطارات ويذبحونهم !

فأجاب الكولونيل روزفلت بما يأتى :

« نعم وهذا الأمر يحدث مرة ثانية لو أعطيت مصر الحكم الذاتى » .

فأنتم ترون أن الكولونيل روزفلت كان مصحوباً برفقاء سوء على الدوام ، وأنه قد ملىء سوء ظن بالمسلمين . وهذا ماجعل لهجته فى خطبه وأحاديثه غير مرضية للمسلمين ، ولا موافقة للحقيقة . فتح المستر روزفلت باب الكلام فى هذا الموضوع عندما شرف الصحافيين المصريين بمقابلته . وقد ذكرت له أن الإسلام دين التسامح المطلق ؛ يجعل لأبناء الوطن الواحد حقوقاً متساوية . ومن أجل ذلك عاش المسلمون والمسيحيون فى مصر مدة

ثلاثة عشر قرنا ؛ يتجاورون فى المنازل ، ويترافقون فى الأعمال ترافق العائلة الواحدة ، وأنهم يدخلون منازل بعضهم ، ويطلعون على عورات بعض ، للروابط المتينة التى بينهم . ولا يفصلهم عن بعضهم إلا الجامع والكنيسة وقت الصلاة .

فهل كان يحفظ الأقباط فى ذلك المدى الطويل احتلال انجليزى أو تسلط مسيحى ؟ لقد كنا نشك كثيراً فى رواية « نيويورك إيفنن چورنال » لو أن الكولونيل روزفلت لم يلق ذلك الدرس القاسى على المصريين ، ولم يشر فى خطبته بالجامعة إلى أن مصر لا تصلح للحكم الذاتى ، إلا بعد مرور أجيال عليها .

وأما بعد هذا الحادث فإنا نرى رواية ذلك الكاتب أقرب إلى الحقيقة ، وتكون كلمته (وهذا الأمر يحدث ثانية لو أعطيت مصر الحكم الذاتى) نتيجة من نتائج انخداع الكولونيل برفقاء السوء الذين يبتلى بمثلهم عظماء الرجال فى بعض الأحيان .

على أثر هذه الخطبة برح الكولونيل روزفلت القطر المصرى . وعند نزوله من ميناء الاسكندرية إلى سفينة « البرنس هنريك » بعد ظهر يوم الأربعاء ٣٠ مارس سنة ١٩١٠ وجد هذا المنظر المحزن :

وقف جماعة من شبان المسلمين جانباً ، وجماعة من شبان الأقباط جانباً (ونسبة المسلمين من مجموع الأمة المصرية ٩٢ ٪ ونسبة الأقباط ٦ ٪ والباقى من الطوائف الأخرى والنزلاء) . وأخذ الأولون ينادون « ليسقط روزفلت » ، والآخرون « ليحيى روزفلت » . وكان هذا هو المنظر الأخير فى وداعه ، والنتيجة الأخيرة لسياحته !

أقبل عليها وأهلها يتدافعون لاستقباله وإجلاله ، ورحل عنها وهم فريقان يتدابران . ولولا أن عقلاء الفريقين — المسلمين والأقباط — أخذوا يجاهدون فى محو ذلك الأثر السىء الذى تركه بينهم ذلك الزائر الكريم لساءت العاقبة !

لو أن روزفلت رجل مثل غيره من الرجال ، أو كان شأنه واقفا عند حد ذكائه ونباهته ، ومواهبه العالية الذاتية لقلنا أصاب أو أخطأ . وليس ثمت شيء وراء هذا . ولكنه رئيس الولايات المتحدة سابقا . ومن المحتمل القريب أن يكون رئيسها مرة ثانية . فعمله ليس خاصا به . ولا قاصراً عليه ، بل الجمهورية العظيمة التي وضعته فوق منصة حكومتها زمنا طويلا تحمل جزءاً كبيراً منه .

* * *

هكذا كانت سياسة الشيخ على يوسف تقوم على المنطق ، ومقارعة الحجة بالحجة . فقد كان الشيخ معتدلا بطبيعته ، لا يرى العنف سبيلا إلى استرداد حقوق البلاد . بل إن هذا العنف لقد يرديها فى أخطار لم تكن لها فى الحساب .

بل هكذا كانت حياة السيد على يوسف الصحفية حرباً باردة بينه وبين الاحتلال البريطانى فى مصر ، لا تفوته فرصة من فرص الجهاد من أجل مصر والأسلام إلا اقتنصها ، ولا تمر به مناسبة من مناسبات الخير العام إلا انتهزها . وكانت صحيفة المؤيد معرضا لكل ذلك . ومن ثم أصبحت هذه الجريدة اليومية بعد زمن قصير ضرورة من ضرورات الحياة المصرية فى تلك الفترة ، وعنصراً هاما من عناصر كيانها القومى .

وإن أنس لا ننس ما كتبه الشيخ على يوسف فى موضوع دانشواى . فقد بلغ ما كتبه يومئذ فى ذلك الموضوع ثلاثاً وعشرين كلمة كما قدمنا ، ناقش فيها الانجليز مناقشة قوية وهادئة . فعملت هذه الكلمات عملها فى الأوساط السياسية على اختلافها . ولكن قلم الزعيم الشاب مصطفى كامل كان صاحب الفضل الأكبر فى إثارة الرأى العام الأوروبى ضد الانجليز فى هذه الحادثة — على النحو الذى سنراه مفصلا عند الكلام عن هذا الرجل ، فى جزء خاص به من أجزاء هذا الكتاب ، بمشيئة الله .

(وبعد) فيجمل بنا — بعد كل ما تقدم — أن نأتى على آراء بعض الكتاب الأوربيين فى الشيخ على يوسف وسياسته بإزاء الاحتلال البريطانى .

تحدث الأستاذ المستشرق براون الذى كان بمصر فى سنة ١٩٠٥ عن سياسة كرومر بإزاء الصحافة المصرية والادارة المصرية فقال :

« على أنه مهما كانت مزايا السياسة التى جرى عليها اللورد كرومر حكيمة، فلا يغيب عنا أنه قد كان يخشى بقاؤها فى ظلمات الخفاء والجمود ، فلا تأتى بالفائدة المقصودة منها . لو لم يوجد بين المصريين أنفسهم من أدرك تلك المزايا الحكيمة فى تلك السياسة القويمة ، فجرى عليها ، وجعل منافعها ممكنة بمساعيه .

ولكن التوفيق أوجد مثل هذا الرجل . ففى سنة ١٨٨٧ ظهرت لأول مرة فى القاهرة جريدة عربية أسبوعية صغيرة اسمها (الآداب) . واشتهرت فى وقت قصير ، نظراً لما ظهر فى كتابة مقالاتها من المقدرة والكفاءة . فأخذت تنمو وتنتشر ، وتنال إقبال الشعب الاسلامى ... وعرفوها جريدة خاصة بالمباحث العلمية والأدبية والدينية . حتى اذا كانت سنة ١٨٩٠ أنشأ صاحبها مع آخر جريدة (المؤيد) اليومية . وبعد مضى زمن استقل صاحب (الآداب) بملك جريدة (المؤيد) وإدارتها ، ومن ذلك الحين تقدم المؤيد تقدما سريعا . ولما كان لسان حال علماء الأزهر أدرك المنزلة التى لا يزال حائزاً عليها ، وهى أنه زعيم الجرائد العربية الاسلامية ، ليس فى مصر وحدها ، بل فى العالم الاسلامى بأسره .

وقد ظهرت جرائد مختلفة بعد ذلك من حين إلى آخر معارضة للمؤيد، أو مزاحمة له ، فلم تفلح واحدة منها فى التأثير على منزلته وأوليته .

إن صاحب المؤيد ومحرره الشيخ على يوسف هو الذى أعطى جريدته هذه المنزلة من التقدم ، وحافظ عليها من أول نشأته حتى الآن . وهو رجل واسع الاطلاع على جميع العلوم التى تجعله فى مصاف علماء الدين. ولا يعرف من اللغات إلا اللغة العربية . فهو بصفته صحافيا وصاحب مقالات افتتاحية لا يعد فقط فى طليعة صحافيي الشرق . بل هو فى ميزته الخاصة هذه ربما لا يطاوله

مطاول بين صحافيي العالم . قال عنه الدكتور هارتمن فى كتابه (الصحافة العربية فى مصر) ما يأتى :

إن لجريدته نفوذاً يخشى ويرجى . يقرؤها المسلمون بارتياح وسرور ، فيجدون فيها ما ترتاح إليه نفوسهم ، وتقر به عيونهم . إنهم يطلعون فيها على آرائهم الخاصة مكتوبة بلغة جمعت بين الجزالة والسهولة والكلمات المختارة . أو هم يتوهمون أنهم يقرأون فيها آراءهم الخاصة ، لأنه بلغ من حيلة الصحافى وبلاغته فيها أن القارىء يجرى معه فى قراءة آرائه ، فيتصور أن آراء الكاتب هى آراؤه الخاصة .

ثم إن هذا الرجل قد جمع بين إصالة الرأى ، وردع النفس عن هواها . وهو صبور همام كثير الثياب . وكفى بهذا البيان رسماً صحيحاً لرجل لا بد أن يكون له نفوذ عظيم كصحافى فى كل مجموع . ولكنه أعظم نفوذاً بين شعب كالمصريين ، لا يكلفون أنفسهم كثيراً عناء التفكير الخاص . والحق يقال إنه خدم أكثر من أى عشرة رجال ، نقدر أن نسميهم لهداية الرأى العام الإسلامى فى مصر وتكييفه . وهو كالمؤرخ الجبرتى عربى الأصل . وأما فى شخصه فهو رجل متأصل ، متحفظ ، يعيش معيشة هادئة ، كثير المطالعة والدرس ، نفور من الدعوى والمباهاة على اختلاف أنواعهما . ومع ذلك فهو مفطور على الذكاء الخارق فى ممارسة الأشغال . وإنما أحرز بجريدته ما لها من المكانة بجريه الثابت على السياسة التى اختطها لنفسه عند أول شروعه فى العمل ، وهى سياسة حب الانصاف ، والرغبة فى ترقية مصالح الاسلام ومصر .

ولقد اضطر من حين إلى آخر إلى تحمل العداء الظاهر من طبقات الناس المختلفة التى كان يحاول خدمتها . لأنه كان يقدم على المدافعة عن مشروعات ومبادىء غير محبوبة لديه ، متى رأى بحكمته أنها مشروعات وآراء نافعة . ومع كل هذا لا يزال الأوروبيون يزعمون أنه متعصب ، وصاحب دسائس .

ومع أن الشيخ علياً يعلم حقيقة المنافع التى أجزلها الاحتلال الانجليزى للبلاد ، فهو مضطر بصفته مسلماً أن يقارن بين المنافع المذكورة من جهة ، والمضار التاريخية ، لامن وجود الانجليز فقط ، بل من نفوذ الدول الأوروبية عموما — من جهة ثانية . ولما كان غرضه الدائم الإنصاف والتؤدة ، وكان مفطوراً على عدم التهيج ، مع اعتدال فى بيان آرائه ، كان هو الصحافى الأول والوحيد فى مصر الذى سعى فى السنوات العديدة بثبات وأمانة وحسن نية وراء بث روح الوفاق بين الشعب وأولياء الأمور الانكليز . وقد عرف المصريون فيه كل هذا من زمن بعيد .

نعم — إن عدداً قليلا زعموا أحيانا أن الانكليز قد اشتروه بمالهم . ولسوء الحظ أن الأفرنج قصروا عن إدراك ماهية هذا الرجل وسياسته . فباتوا يتناولون بعض فقرات من جريدته ، وربما كتبها كاتب أجنبى عن الجريدة . فيعتمدون على تلك الفقرة ، ويمثلون الرجل متعصبا مثيراً للفتن والقلاقل [1] .

هكذا صور لنا هذا الفصل من فصول الكتاب صاحب المؤيد بصورة الرجل الذى آمن بخير الاحتلال . ولكن إيمانه بالدين والوطن جعله لا يمتنع عن وصف شروره وآثامه . وهكذا جرتْ سياسة الشيخ على يوسف — كما صوره لنا صاحب هذا الفصل الذى تشير إليه — على حب الانصاف والرغبة فى ترقية مصالح الاسلام ومصر . ومن هنا استطاع الشيخ على يوسف — على حد قول براون — أن يخدم مصر أكثر من عشرة رجال يمكن أن نسميهم لهداية الرأى العام الاسلامى فى مصر وتكييفه . ومعنى ذلك كله أن سياسة الشيخ على يوسف — فى رأى هذا الكاتب — إنما تصدر عن عقلية واقعية لا تنكر الواقع الملموس ، ولكنها لا تظهر الرضى به ، وإنما تسعى جاهدة للانتقال به إلى أحسن منه .

---

(١) جريدة المؤيد — العدد ٥٢٧٥ بتاريخ ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٠٧ . وانظر كتاب بونابرت فى مصر — الفصل الثامن عشر .

والحق أن سياسة الشيخ على يوسف إنما كانت تقوم على الاعتدال فى كل شىء . وهى بالقياس إلى سياسه الزعيم الشاب مصطفى كامل قد لا ترضى طموح الشباب الذين لا يتأثرون بالواقع الملموس قدر ما يتأثرون بالأخيلة البعيدة ، والآمال العريقة التى تترنخ بها أعوادهم الرخصة اللينة .

مهما يكن رأى هذا الكاتب أو غيره من الكتاب الشرقيين والغربيين فى الشيخ على يوسف ، فالذى لا شك فيه أن هذا الرجل كان نكبة على الاحتلال البريطانى ، ولعل أشد ما منى به الاحتلال ورجاله فى مصر تلك الفصول التى كتبها الشيخ بعنوان : (مقالات قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء) . وهى فصول أعجب بها الشعب المصرى ، ونالت من نفوس أفراده موقعاً . وجمعها بعضهم فى كتاب خاص بها . فلا بد لنا من أن نفردها ببحث خاص فى الفصل التالى .

الفصل الخامس

على يوسف وحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية

تحدث الخديو عباس عن الروح الوطنية وعن نشأة الأحزاب المصرية فقال:

« إن الروح الوطنى قد تحدد وتجلى بوجه خاص فى عهدى . وقد ظهر ذلك الروح فى إخلاص أكثر زعمائه جلدا وبلاغة — مصطفى كامل. يومذاك كنت أمسك بيدى عنصرى الوطنية المتفرقين المتنافرين . الحزب المحافظ ، أو حزب أعيان البلاد الذى يأتمر بأمر الشيخ على يوسف ، وحزب الشباب المتطرف بزعامة مصطفى كامل. وكان معنى الوطن عند كل من هاتين الجماعتين مختلفاً عنه عند الآخر . فهما لا يستطيعان تحقيقه فى صورة موحدة ، ولا فى لحظة واحدة . وقد أدركت بعد قليل استحالة ضم الفريقين ، وصار لزاماً على أن أسعى عند كل منهما سعياً خاصاً به . وكان هذا هو ماجعل البعض يقول: إنى كنت أقوم بلعبة مزدوجة. ولكن على العكس من ذلك كنت أبغى أن أتجنب ما وسعنى ترك هاتين القوتين المتنافستين إحداهما بإزاء الأخرى. وكنت أحرص قبل كل شىء على ألا تبدر منى بادرة تفضيل قد تثير غيرة تجعل أحد الحزبين ينهض لعداوة الآخر ، وكان تفضيلى مع المعتدلين ، ولكننى كنت أفهم المتطرفين . ولم أستخدم لنفسى لا هؤلاء ولا هؤلاء ، ولكن الجميع كانوا يرفضون مبدأ الاحتلال الإنجليزى غير المحدود بأجل ، فكنت من صميم قلبى مع هؤلاء وهؤلاء .

وقد كان موقفى سبباً فى أن يقال إننى لم أكن مخلصاً لا للوطنيين ولا للإنجليز [1] » .

(انتهى)

---

(١) جريدة المصري بتاريخ ١١ مايو سنة ١٩٥١ .

مهما يكن من شىء. فمنذ أواخر سنة ١٩٠٦ نشطت حركة تأليف الأحزاب المصرية، وكانت يومئـــذ ثلاثة: حزب الأمة. فالحزب الوطنى، فحزب الإصلاح على المبادىء الدستورية.

وقد ابتدأ تأليف هذه الأحزاب فى أكتوبر سنة ١٩٠٦. وانتهى فى سبتمبر سنة ١٩٠٧. وكان أولها فى الظهور حزب الأمة، ثم تلاه حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية وأخيراً ظهر الحزب الوطنى. والمهم أن نقول هنا عن هذه الأحزاب الثلاثة أنها نشأت فى أحضان الصحافة. ففى دار الجريدة لمحررها لطفى السيد نشأ حزب الأمة. وفى دار المؤيد نشأ حزب الإصلاح، وفى دار اللواء نشأ الحزب الوطنى وهو غير الحزب المعروف بهذا الاسم منذ سنة ١٨٧٩. ولا بأس من ذكر برامج الأحزاب الثلاثة على سبيل المقارنة:

أما حزب الأمة:

وهو أول الأحزاب المصرية ظهوراً كما قلنا فقد ألفه كل من محمود سليمان (باشا)، وحسن عبد الرازق (باشا)، وذلك فى ٢١ سبتمبر، حين كان الخديو غائبا فى أوربا. وكانت (الجريدة) التى يشرف عليها الأستاذ أحمد لطفى السيد لسان حال هذا الحزب. وحين أعلن عن هذا الحزب خطب فى الأعضاء أحمد لطفى السيد نائبا عن محمود سليمان (باشا) الذى تخلف لأسباب صحية. فأوضح عن أغراض الحزب وعن المنهج الذى يسير عليه.

«وقد كان الخديو عباس يخشى أن يكون لسعد زغلول (باشا) وأخيه أحمد فتحى زغلول (باشا) يد فى تأليف هذا الحزب لذلك سألنى مرتين — بأوربا — عن ذلك، فأجبته بأنه لم يظهر لى أن لهما علاقة به[1]».

وكانت تتلخص مبادىء هذا الحزب فى مواد منها:

١ — معاضدة حركة التعليم، ونشره بكافة الطرق، وجعله إجبارياً فى الأولى والابتدائى.

---

(١) مذكرات أحمد شفيق (باشا) الجزء الثانى القسم الثانى ص ١٢٦ وما بعدها.

٢ — الحصول على حق البلاد الطبيعي فى الاشتراك مع الوزارة فى وضع القوانين والمشروعات العامة، وتوسيع اختصاص مجالس المديريات، ومجلس شورى القوانين تدرجاً إلى إيجاد مجلس نواب.

٣ — توسيع نطاق الجمعية الزراعية توصلا إلى تقدم البلاد الزراعى. وعدم إهمال الصناعة والتجارة، والسعى لترقيتهما.

« وبعد حضور الخديو من أوربا دارت عدة أحاديث بينه وبين رجال معيته فى شؤون هذا الحزب. وقد ظهر بعد ذلك أن لسعد (باشا) يداً فى تأليفه، وأنه يعمل سراً مع أخيه فتحى (باشا) لتقوية نفوذه ».

« وقد علمنا أن اللورد كرومر كان من المعضدين لقيام هذا الحزب، إذ كان يتوسم فيه مناهضة سياسة عباس ومقاومتها ».

وتمضى مذكرات الخديو عباس الثانى فى الحديث عن الأحزاب المصرية فتقول:

« كان الحزب الوطنى فى بادىء الأمر — حزب المثقفين — مكونا من جماعتين مختلفتين: إحداهما ترأسها الأميرة نازلى تحت نفوذ اللورد كرومر. والأخرى يقودها رئيس مجلس الوزراء السابق رياض (باشا)، وعلى (باشا) مبارك وزير المعارف. وقد وجهها إلى السياسة الزعيم الشيخ على يوسف الذى سيؤسس فيما بعد أول جماعة من كبار الأعيان وكبار السن. وفى أكتوبر سنة ١٩٠٧ نهض لمحاربة الحزب الوطنى حزب لا خفاء فى أنه يتلقى الوحى من اللورد كرومر، ويغلب على الاحتمال أن يكون خاضعاً لأوامره. وكان ذلك «حزب الأمة» الذى أسسه محمود سليمان (باشا)[١]. وكان يملك صحيفة، هى «الجريدة»، التى كان يتزعمها الأستاذ لطفى (بك) السيد. وقد كان سعد (باشا) زغلول هو الرأس المفكرة وراء هذا الحزب وتلك الجريدة فى مستهل عهدها. وكان قد تلقى دروسه الأولى فى السياسة بإشراف الأميرة الخديوية نازلى

---

(١) يفهم من ذلك أن أعضاء حزب الأمة كان من رأيهم العمل على تخليص مصر من السيادة العثمانية. ولعلهم بسبب ذلك كانوا مقربين من الانجليز.

سليلة محمد على ، والموالية مع ذلك لانجلترة . وإنه لتطور أساسى ذلك الذى جعل من هذا الفلاح ابن الفلاح بطل الاستقلال الوطنى بذلك الإخلاص المطلق الذى اتسم به من قبل نشاط مصطفى كامل فى الحزب الوطنى (١) » .

يفهم من ذلك أن الحزب الوطنى كان له وجود فعلى قبل أن يعلن عنه الزعيم الشاب مصطفى كامل . بل أن (الحزب الوطنى) كلمة كان يطلقها المصريون والأوربيون على جميع المشتغلين بالسياسة فى مصر . وكان هؤلاء الساسة يلتقى بعضهم ببعض فى النوادى الخاصة ؛ ومن أهمها فى ذلك الوقت ناديان أو صالونان ؛ هما صالون الأميرة نازلى فاضل ، وصالون رياض (باشا) ومعه على (باشا) مبارك .

فأما الحزب الوطنى :

فكان برنامجه واسعاً يغرى أصحاب النفوس الطامحة ، ويرضى المتطرفين من الشباب المتحمس . وقد تألف برنامجه هذا من جملة مواد ، أهمها ما يأتى :

١ — استقلال مصر كما أقرته معاهدة سنة ١٨٤٠ ذلك الاستقلال الذى يضمن عرش مصر لأسرة محمد على ، مع الاستقلال الداخلى عن تركيا .

٢ — إيجاد دستور فى البلاد بحيث تكون الهيئة التنفيذية مسؤولة أمام مجلس نيابى عام السلطة كالمجالس النيابية فى أوربا .

٣ — احترام المعاهدات الدولية والاتفاقات المالية التى ارتبطت بها الحكومة المصرية لسداد الديون ، وقبول مراقبة مالية كالمراقبة الثنائية ما دامت مصر مدينة لأوربا ، إذا طلبت منها ذلك .

٤ — الصراحة فى انتقاد الأعمال الضارة ، وتشجيع الأعمال النافعة للحكومة المصرية .

٥ — العمل لنشر التعليم على أساس وطنى صحيح ، بحيث ينال الفقراء منه أوفى نصيب .

---

(١) جريدة المصرى بتاريخ ١١ مايو سنة ١٩٥١ .

٦ — ترقية الزراعة والصناعة والتجارة .

٧ — بث الشعور الوطنى فى الشعب ، وإفهامه حقوقه الوطنية، ودعوته للائتلاف والتساند بين عنصريه .

٨ — العناية بالشؤون الصحية .

٩ — بث روح المحبة بين المصريين والأجانب .

١٠ — تقوية العلائق بين مصر والدولة العلية .

١١ — الدعاية لمصر فى الخارج، ونفى كل شبهة عنها يلصقها بها خصومها .

حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية :

« وعلى أثر تأليف الحزب الوطنى ظهرت فكرة تكوين الحزب الذى رأى الشيخ على يوسف صاحب المؤيد إنشاءه وقتئذ . خصوصا وقد شعر الخديو بأن الحزب الوطنى قدتوسع فى برنامجه بما لا يناسب الحالة الجديدة — حالة الوفاق بين سموه وبين السير ألدون غورست ، أى أنه لابد من قيام حزب يؤيد سموه ، ويكون عاملا من عوامل التوازن »[1] .

عندئذ تألف هـذا الحزب الثانى من الأحزاب المصرية — بعد الحزب الوطنى . وكان تأليفه فى إبريل ، أعنى بعــد أن تألف حزب الأمة بنحو ستة أشهر . وسمى (حزب الإصلاح على المبادىء الدستورية) . وقد تألف برنامجه من جملة مواد منها :

١ — تأييد السلطة الخديوية فيما منحتها الفرامانات الشاهانية لاستقلال مصر الإدارى .

٢ — الاعتماد على الوعود والتصريحات التى أعلنتها بريطانيا العظمى عند احتلالها القطر المصرى ، ومطالبتها بتحقيق هذه الوعود .

---

(١) مذكرات شفيق (باشا) . الجزء الثانى — القسم الثانى — ص ١٢٦ .

٣ — المطالبة بمجلس نيابى مصرى يكون تام السلطة فيما يتعلق بالمصريين والمصالح المصرية .

٤ — أن يكون التعليم الابتدائى عاما ومجاناً .

٥ — أن تكون اللغة العربية لغة التعليم فى جميع المدارس المصرية .

٦ — أن تعطى الوظائف فى المصالح المصرية للوطنيين بمقتضى الكفاءة والاستحقاق ، مع تقليل عدد الأجانب بقدر الإمكان ، حتى يتأتى للمصريين أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم فيما بعد .

٧ — أن تكون محاكمة الأجانب جنائياً أمام المحاكم المختلطة ، كما هم يتقاضون أمامها اليوم فى الحقوق المدنية والتجارية والمخالفات وذلك إلى أن يتم توحيد المحاكم المصرية لجميع سكانها تحقيقا لأعظم مبدأ فى إقامة العدل بين سكان البلد الواحد ، وهو المساواة أمام القانون .

وقد نصت المادة الرابعة من القانون الأساسى لهذا الحزب أنه لا يجوز له خلط الدين بالسياسة ترويجا لها . ولكن له الحق فى إبداء رأيه فى إهمال المصالح الدينية . ونقدها بما يؤدى إلى إصلاح إدارتها كعمل ضرورى للهيأة الإجتماعية [١] .

يقول أحمد شفيق (باشا) فى مذكراته :

« وبعد تأليف الأحزاب الثلاثة اشتدت المنازعات بينها ، لا سيما بين الحزب الوطنى وحزب الإصلاح . وكانت جريدتا اللواء والمؤيد ميداناً لهذا النزاع الذى وصل فى كثير من الأحيان إلى حد المهاترة ، والاتهامات الخطيرة ؛ حتى لقد اتهمت المؤيد مصطفى كامل بأنه إنما يقلد عرابى » [٢] .

---

(١) جريدة المؤيد — عدد ٥٣٣٧ بتاريخ ١٩٠٧/٢/٩

(٢) وكان السيد مصطفى لطفى المنفلوطى ممن تجردوا للرد على مزاعم اللواء ونقد مصطفى كامل وذلك فى مقالات له نشرها فى جريدة المؤيد تحت عنوان (الصحافة فى أسبوع) ، وذلك فى أعداد كثيرة من أعداد سنة ١٩٠٧ .

وكتب مراسل (التيمس) بتاريخ ٢٠ نوفمبر كلمة عن الأحزاب المصرية جاء فيها مايلي :

« إن الحرب الصحافية التي درات رحاها بين مايُدعى أحزاب الوطنيين (يريد حزب مصطفى كامل وحزب علي يوسف) لاتزال قائمة بحدة وشدة :

أما الحزب الوطني الرسمي الذي تألف سنة ١٩٠٦ فقد انقسم قسمين : حزب المتطرفين برياسة مصطفى كامل ، وحزب المعتدلين برياسة علي يوسف [١] . وإنك لا تجد فرقا بين ماعرضه هذان الصحفيان المتناظران من المشروعات الإصلاحية . ولكنهما اختلفا في أمر واحد ، وهو أن مصطفى كامل يطلب جلاء الانجليز عن مصر في الحال ، وينتقد المحتلين ورجال الحكومة المصرية الحاضرة بلهجة عنيفة . أما مناظره — وهو أوفر منه حكمة ، وأكثر خوفا ونظراً في سوء العواقب — فإنه يرى الآن ، أو يتظاهر بأن مسألة الجلاء خارجة عن دائرة السياسة الممكن تنفيذها . وينكر على زعيم المتطرفين وأنصاره حدة لهجتهم ولكن يصح أن يقال إن المؤيد والمنبر — وهما لسان حال المعتدلين — قدأظهرا تعقلهما السياسي وحكمتهما ، بسعيهما أخيراً وراء إيجاد تفاهم أفضل وأنفع مع الأمة المحتلة .

وأما حزب الأمة الذي تألف حديثا فإنه حتى الآن لم يقم بعمل يستحق الذكر . ولعله أقرب إلى المحافظين في تأثيره على طبقة الملاك ، وطبقة الموظفين ، والشبان والطلبة . فان من اهتم من هؤلاء بالسياسة كان مناصراً لمصطفى كامل الخ [٢] » .

---

(١) أخطأ المراسل الصحفي في ذلك . لأن الشيخ علي يوسف لم يكن يوما ما منضما الى الحزب الوطني . أو لعل المراسل يريد أن يشير الى أن الحزب الوطني كان له وجود قبل ظهور مصطفى كامل .

(٢) هذا الحديث لمراسل التيمس مأخوذ أيضا من مذكرات شفيق (باشا) .
ولا يغيب عن ذهن القارىء أن هذا الراسل أخطأ أيضا في فهم صاحب المؤيد لمسألة الجلاء فإن صاحب المؤيد كان يرى الجلاء الناجز ، كما يظهر ذلك من قانون حزبه أولا ومن خطبة الافتتاح التي سيأتي ذكرها بعد ذلك .

وكتب (سياسى كبير) مقالا فى جريدة المؤيد يصف السياسة البريطانية ويصف موقف الأحزاب المصرية منها — فقال :

« . . أما الحزب الوطنى المعتدل — يريد حزب الشيخ على يوسف — فيقول بعض رجاله : إن مصر بالنسبة لانجلترا (كمفتاح الخزانة) . وقد كان بين تقاليدها القديمة أن تأمن الدولة العثمانية على هذا المفتاح . ففقدته الدولة — أول مرة — فى عهد نابليون بونابرت ، فردته لها انجلترا . ثم فقدته — مرة ثانية — فى زمن محمد على (باشا) ، فردته لمصر كذلك . ثم فقدته — مرة ثالثة — فى زمن العرابيين . فأرادت أن ترده لها أيضا ، ولكن بشرط بسيط تأمن به عليه فى المستقبل . وهو ما ذكره البند الخامس من معاهدة (والف) ونصه :

يحق لانجلترا احتلال مصر بمساعدة العساكر العثمانية ، إذا وقع اختلال بها ، أو أخشى أن ترسل دولة أجنبية عساكرها إليها .

وأيدت الحكومة العثمانية ذلك . فاضطرت انجلترا أن تغير تقاليدها المذكورة ، مع المحافظة على وعودها . فرأت أن تأمن الأمة المصرية نفسها على هذا المفتاح ، وأخذت تساعدها فى إصلاح أمورها لتؤهلها للقدرة على ذلك ، تاركة السلطة النهائية بيد الخديو وحكومته ، حتى لقد كان المرحوم توفيق (باشا) — فى آخر أيامه — هو الحاكم الحقيقى لمصر .

ولكن وقعت بعد ذلك دسائس أجنبية ، وتطرفات وطنية قلبت مجرى الأعمال من حال إلى حال ، فأصبحت انكلترا إزاء أمة معادية كانت تعدها لأن تكون صديقة محالفة . فغيرت تقاليدها فى المرة الثالثة ، وقررت أن تبقى (المفتاح) فى يدها . ولم تبق إذن حاجة لبقاء السلطة الحقيقية فى يد حكومة مصر ، فنزعتها منها .

لا لوم على رجال الدولة العلية أولا ، ولا لوم على رجال مصر ثانيا ، فى إخفاق الاتفاق مع انجلترا ؛ لأنهم إنما فعلوا ذلك مسوقين بأيد وآراء كانوا يظنونها لهم ، وهى فى الواقع عليهم . فهم معذورون وإن أخطأوا .

وإنما المسئول عن كل ما ألم بهذه الديار هى (فرنسا) التى لعبت بالكل على الكل فى هذه المسألة ! فوضعت هذا الحل الأخير من أول الأمر نصب عينيها ، ثم ساقتهم جميعا إليه . وهذا أمرها فى مراكش اليوم شاهد عليها .

ثم قال (السياسى الكبير) — وأكبر الظن أنه زعيم حزب الاصلاح على المبادىء الدستورية .

إننا والحزب المتطرف اختلفنا فى المقدمات واتفقنا فى النتيجة . وهى أن الانجليز ينوون البقاء لا الجلاء . غير أننا نختلف أيضاً فى طريقة إبدال هذا البقاء بالجلاء . فهم يرون القوة ، ونحن نرى الاتفاق . بل نرى أن حلّ المسألة بالقوة يشبه أن يكون حقيقة إلا أنه خيال ، وأن الاتفاق يشبه أن يكون خيالا إلا أنه حقيقة »[١] .

* * *

نشرت المؤيد (القانون الأساسى لحزب الاصلاح على المبادىء الدستورية) كما قدمنا . وأعلن صاحب المؤيد عن أعضاء حزبه يومئذ ، وهم :

الشيخ على يوسف رئيساً

وأحمد حشمت باشا وحسن رفقى باشا وكيلين

وأحمد حافظ عوض أفندى مديراً للأعمال

ومحمد مسعود أفندى سكرتيراً

ويوسف بك صديق أميناً للصندوق

ومحمد حسن باشا ، ويعقوب صبرى بك ، وأحمد تيمور بك ، والسيد عبد الحميد البكرى ، وإلياس عوض ، والسيد أحمد على الحسينى ، والسيد أحمد رافع ، وخالد بك سعيد ، ومحمد سعيد عبدالمنعم أعضاء .

واجتمعت الجمعيه العمومية لهذا الحزب فى يوم ٢٢ نوفمبر سنة ١٩٠٧ وخطب الشيخ على يوسف خطبة طويلة ، نشرتها جريدة المؤيد فى اليوم التالى

---

(٢) جريدة المؤيد — العدد ٥٣١٠ بتاريخ ١٩٠٧/١١/٣ بامضاء سياسى كبير — ولعله السيد على يوسف نفسه . كما قلنا ومن هنا نظر المصريون والإنجليز إلي صاحب المؤيد على أنه من المعتدلين الواقعيين ، لإيثاره طريق الاتفاق ، وتحاشيه سبيل العنف . (المؤلف)

وملأت هذه الخطبة من حيز هذه الجريدة صفحات ثلاثا جاء فيها قوله [١]:

أيها السادة :

إننا قد أنشأنا هذا الحزب لغرضين كبيرين :

الأول : تكوين رأى عام بين المصريين مبنى على المبادىء المذكورة .. وهى المبادىء التى قبلتموها شعاراً لكم فى الوطنية ، والتى نؤمل أن يقبلها السواد الأعظم من الأمة ، ويتخذها شعاراً له مثلكم .

والغرض الثانى : السعى فى تنفيذها وبذل الجهد فى أن تكون الاعمال فى إدارة البلاد منطبقة عليها . أومنسوجة على منوالها . . لقد كانوا يقولون إذا انتقدت الصحف الوطنية عملا ، أو أبدت رأياً ، أو طلبت مطلباً ، أو أبانت عن حاجة للأمة فى وقت من الأوقات إنها صحف أفراد ، لا صحف جماعات ، وآراء أشخاص لا آراء أحزاب . فليدلونا على الطريق الذى يجب أن يسلكه المصريون لتصوير آرائهم فى صورة محترمة . ولعلهم يطعنون على حزبنا هذا بما يدلنا غدا على وسائل كماله ، حتى يكون يوماً ما على أكمل صورة للأحزاب السياسية الكبرى فيؤدى أسمى وظيفة لها .

أيها السادة :

إن حزبكم هذا ليس كالأحزاب التى أعلن عن وجودها فى بلادكم ، فهو لم يظهر للوجود حتى تكوّن تكونا حقيقياً على طريقة الأحزاب السياسية فى البلاد التى نحذو حذوها ، ونحاول أن نبلغ شأوها فى المدنية والارتقاء . وفضلا عن هذا فإن حزبكم يمتاز عن سواه بأن له أصدقاء كثيرين فى انجلترا يثق بهم ويثقون به ، أولئك هم الذين يريدون أن يخدموا مجد بريطانيا العظمى باحترام كرامتها ، وحسن سمعة نفوذها خارج بلادها . وهذه المزية

---

(١) جريدة المؤيد — العدد ٥٣٥١ بتاريخ ١٩٠٧/١٢/٢٦ .

تجعل علينا واجباً آخر ، وهو أن يكون الصدى الذى يسمع لحزبنا فى البلاد الخارجية ، وفى انجلترة على الخصوص قوياً وشريفاً ، حتى يخرق الأسماع القاسية ، بقوة الحق والبرهان » .

ثم بدأ زعيم الحزب يشرح المبادىء السبعة التى نصت عليها المادة الثالثة من القانون الأساسى ، وهى المبادىء التى ذكرناها فى أوائل هذا الفصل .

« وإنه لعنينا المبدأ الثانى من تلك المبادىء خاصة ، وهو الاعتماد على الوعود والتصريحات التى أعلنتها بريطانيا العظمى عند احتلالها القطر المصرى ، ومطالبتها بتحقيقها وفاء بها » .

وهنا سرد الزعيم سبعة وعشرين وعداً من هذه الوعود والتصريحات منسوبة إلى قائليها ، فكأن هذه الوعود شهود على الاحتلال الانجليزى ، وحجة عليه لا له .

ونحن نكتفى من جميع هذه التصريحات ببعضها ، ومنها :

وقال اللورد جرانفيل ناظر الخارجية الانجليزية فى رسالة برقية بعث بها إلى (السير ادوارد ماليت) بتاريخ ١٩٨١/١١/٤ (راجع الكتاب الأزرق والوقائع المصرية فى ١٥ نوفمبر) :

« إن ساسة حكومة جلالة الملكة لاترمى إلا إلى غاية واحدة ، وهى أنها تحافظ على الحرية التامة التى نالها الخديو بموجب فرمانات متعددة . وإنا لنرغب أن نوطد فى مصر أركان الاستقلال الإدارى الذى ضمنه لها السلطان . فإذا رغبت حكومة جلالة الملكة فى إضعاف هذه الحرية فإنها تكون قد جرت على ما ينافى تقاليدها المعروفة عنها فى التاريخ . وفى الرابطة التى تجمع بين مصر والباب العالى سلامة الأولى من التداخل الأجنبى . فإذا عرا تلك الرابطة ما يزعزعها أصبحت مصر بين حين وحين عرضة لطمع الطامعين » .

وقال السير ماليت قنصل انجلتره فى مصر ، وكان قد قابل جلالة السلطان الأعظم يوم ٢١ سبتمبر سنة ١٩٨١ :

« وحكومة جلالة الملكة لا تقصد إلا توطيد سلطة الباب العالى ، وتأييد حقوق الخديو ، فهى لا تريد أن تحتل مصر ، ولا أن تضمها إلى أملاكها يوماً ما » .

وقال غلادستون رئيس الوزارة الانجليزية فى خطبة له بمجلس العموم يوم ١٤ يونيو سنة ١٨٨٢ (كما جاء فى الكتاب الأزرق بتاريخ ٣ يوليو سنة ١٨٨٢ .

« ليس لبريطانيا العظمى أدنى مطمع فى مصر ، فلم تبعث اليها بالجند إلا لإعادة الأمن وإرجاع السلطة التى فقدها الخديو ، وهى عاقدة نيتها الأكيدة على أن تجعل الحكم النهائى فى المسألة المصرية بيد الاتفاق الأوروبى » .

وقال هذا الوزير فى خطبة له فى حفلة محافظ لندن يوم ١٩/٨/ ١٨٨٢ :

« إنى أرفع صوتى وأشهد أمام العالم المتمدن أن مصالح انجلتره فى مصر ليست خاصة بها . وإنما هى للعالم أجمع . ألا — وأن انجلترة لم تذهب إلى مصر إلا لإنقاذ أهلها من الظلم العسكرى ، وإن انجلترة قصدت القطر المصرى ويداها طاهرتان ، وليس فى صدرها ما تكتمه عن الدول من أسرار . ولذلك حق لها أن تطالب بثقتهن وانعطافهن » .

وقال اللورد غرانفيل فى منشوره إلى السفراء بتاريخ ٣ يناير سنة ١٨٨٣ : (كما فى الكتاب الأزرق) :

الجنود البريطانية مرابطة فى مصر إلى الآن محافظة على الراحة العامة . فإن حكومة جلالة الملكة راغبة فى استدعائها متى سمحت حالة البلاد ، وجرت أمورها على ما يوطد سلطة الخديو فيها » .

وقال السير تشارلز دليك وكيل خارجية انجلترة فى خطاب له أمام مجلس العموم يوم ٩ أغسطس سنة ١٨٨٣ :

« أن حكومة جلالة الملكة معارضة فى إلحاق مصر بأملاكها أو فيما

يشبه ذلك من وجوه الفتح ، مرعاة لوعودها التى جهرت بها ، وخوفاً على مصالح انجلترة » .

وقال غلادستون فيما صرح به أمام مجلس العمـــوم يوم ٢٣ يونيو سنة ١٨٨٤ :

« إننا نتعهد بأننا لا نطيل احتلالنا العسكرى فى مصر إلى مابعد أول يناير سنة ١٨٨٨ إذا أعلنت الدول إذ ذاك أن حالة مصر تسمح بجلائنا دون أن يصيب الأمن العام فى مصر خطر . ولو كان فى نيتنا أن نحقق مساعى الدول من هذا القبيل ، أو أن نعارض طلب الجلاء عندما يحين وقته لما كان لنا أن نفيض فى الكلام على شرف بلادنا » .

وقال غلادستون أيضاً فى منشوره الانتخابى يوم ١٨ / ٩ / ١٨٨٥ :

« يجب على انجلترة أن تخرج من مصر عندما يقضى بذلك شرفها البريطانى ونحن لن نقبل مطلقاً ما يشاع عنا من أن فى النية ضم القطر المصرى إلى أملاكنا ، أو وضع حمايتنا عليه ، أو إطالة مقامنا فيه إلى ماشاء الله .

إن السياسة الإنكليزية فى مصر قائمة الآن على وهم . فأحسن مايجرى فى مثل هذه الحالة هو أن نضع حداً لتداخلنا فى هذا القطر » .

هكذا كان زعيم حزب الاصلاح يطالب بالجلاء ، ويعتمد فى ذلك على أسانيد تاريخية قيمة . وقد حمل نفسه مشقة الاستيعاب التام لهذه الأسانيد ، حتى تكون شفيعاً له أمام الجمهور فى إيثار سياسة الاتفاق مع الانجليز فى حل القضية المصرية ، ولكى يدلهم على أن هذه السياسة زعيمة بحل هذه القضية التى لاتحتاج فى رأيه إلى العنف ، كما يدعو إلى ذلك حزب آخر فى البلاد ، هو الحزب الوطنى .

ومضى زعيم حزب الاصلاح فى خطبته فقال :

أيها السادة :

يقولون لنا : من أنتم حتى تؤيدوا هذه السلطة فى البلاد (يريد السلطة

الخديوية ؟) وأمام من تؤيدونها ؟ وجوابنا أننا جزء من الأمة المصرية التى أيدت رأس العائلة الخديوية تأييداً كاملا يوم لم يكن مؤيد له سواها . هذه الأمة التى عند ما اغترت بقوتهـــا ، وانحرفت عن سلطتها الشرعية بعض الانحراف أصبحت تلك السلطة الخديوية فى حاجة إلى مؤيد آخر لها . فكان الاحتلال الأجنبى الذى دخل بحجة تأييـدها ، ولا يزال يقول أنه باق لهذا الغرض مع غيره من الأغراض .

إن بلادنا قضى عليها أن تخطىء خطيئة كبرى ، فمنيت بالاحتلال الأجنبى عقوبة لها . وقد كان يظن فى أول عهده أن أمده سيكون قصيراً ، نظراً للوعود والتصريحات الكثيرة التى وعدت وصرحت بها انجلترة عند احتلالها هذا القطر ، وبعده بقليل . ولكن — هاقدمضى على احتلالها ربع قرن من الزمان ، ولم تبد علامة ما لقرب الجلاء . بل أن اللورد كرومر صرح فى خطبة له يوم وداعه بأن الاحتلال باق إلى ما شاء الله . وبون شاسع بين الوعود والتصريحات الأولى ، وكلمة اللورد الأخيرة . ولكننا نجد تلك الوعود السابقة عهوداً علنية عاهدت بها الدولة الانكليزية الفخيمة نفسها وغيرها من الدول العظمى على الجلاء يوماً ما . ونجد كلمة اللورد كرومر نفثة مصدور نفثها فى وقت هاج به غضبه ، وكثيراما يقول الغاضبون . فلا توزن هذه بتلك ، ولا يمكن أن تكون هذه الكلمة ناسخة لتلك الوعود والتصريحات ، بل تلك العهود المعطاة للعالم تحت ضمانة الشرف البريطانى .

* * *

غير أن الشيخ على يوسف كان يعتمد فى زعامته السياسية على قلمه أكثر من اعتماده على لسانه ، وعلى قدرته الصحافية ، وحسن فهمه للمسائل السياسية أكثر من قدرته الخطابية . وفضلا عن ذلك لم يكن الشيخ مهيأ من الناحية الجسمية للنهوض بأعباء زعيم سياسى لا بد له من أن يوطن نفسه بين حين وحين لملاقاة الجماهير ، وإثارة الشعور ، وتنظيم المظاهرات ، ونحو ذلك .

فى ذلك ، وفى الصلة بين عمل على يوسف ، وعمل مصطفى كامل يقول الخديوى عباس الثانى فى مذكراته التى نشرتها جريدة المصرى [٢] .

« ولكن الشباب الذى أصابت حجج (المؤيد) هوى فى نفسه لم يكن بعد يعرف الحماسة . فان وطنية على يوسف لم تكن قد فتنته فتنة خاصة . ولعل الرجل لم تكن له الصفات البدنية التى تكون مروّض الجماهير ولكن نخبة البلاد كانت قد اهتمت بحملته ، وصارت لذلك متأهبة لتلقى التعاليم الجديدة التى تسمح لهذه الحملة أن تظهر على المسرح ، وتحمل إلى رسالة التحرير المشتركة حيوية قراراتها ، وقوة منطقها المقنعة .

كانت الأرض قد حرثت ، وكان العاملون على قدم الاستعداد للبدء ، وكان على العناية التى تسهر على الشعوب ، كما تسهر على الأفراد أن ترسل إلى مصر باذر حبّ الوطنية المنتظر : مصطفى كامل » .

---

(١) بتاريخ الاحد ١٣ مايو ١٩٥١ .

الفصل السادس

على يوسف ومقالات

قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء

كان الاتفاق الودى بين فرنسا وانجلترا سنة ١٩٠٤ نكبة حقيقية على مصر ، فمنذ يومئذ خلا وجه هذا الوطن للإنجليز ، وأحسوا أنهم انفردوا به بعد زوال هذا المنافس الخطير — وهو فرنسا . ومنذ يومئذ أحس جبار الاحتلال بأنه الحاكم المطلق فى البلاد . فلبس للمصريين جلد النمر ، وظهر لهم على مسرح الحياة العامة ملكا لا منازع له فى ملكه ، ولا معقب لحكمه . وظهر أثر ذلك فى التقارير الرسمية التى اعتاد أن يكتبها كل سنة . فبعد أن كانت التقارير السابقة لعام الاتفاق هينة بعض الشىء ، رقيقة نوعا ما ، أصبحت تقاريره بعد عام الاتفاق تمتاز بالجبهة ،والغلظة ، والقسوة والجفوة ، والغضب ، والحقد ، وما شئت من معانى السطوة والجبروت . أو معانى الكبر ، والاستعلاء ، وإهدار كرامة الضعفاء .

ومنذ ذلك الحين ثقلت وطأة الجبار على المصريين ، وتربصوا به الأحداث ، لعل واحدة منها أن تحكم باجتياحه واستئصاله .

ثم سافر اللورد إلى انجلترا ، ولكنه سرعان ماعاد منها إلى مصر . وكانت عودته يوم الأربعاء ٢١ اكتوبر سنة ١٩٠٦ ، فانتهزت الجرائد المحلية فرصة عودته ، وأخذت ترشقه بمقالات تنقد فيها سياسته ، وتبدى فيها للعالم صفحته ، كان من أولى تلك الصحف المحلية إذ ذاك (صحيفة المؤيد) . وفيها كتب السيد على يوسف ست مقالات ، نشرها تباعا ، فكانت أولاها يوم الأربعاء ١٤ اكتوبر سنة ١٩٠٦ ، وأخراها يوم الثلاثاء ٢٠ اكتوبر

من نفس هذه السنة . واتخذ لها عنوناً عاما ؛ هو « فى قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء » .

ثم فى عام ١٩٠٧ أعدت الحكومة البريطانية العدة لاستدعاء اللورد كرومر نهائياً إلى انجلترا ، وتعيين السير ألدون غورست مكانه فى مصر ، واستوثقت الصحف الوطنية من صحة هذا النبأ الأخير ، فطفقت تكتب المقالات التى يشتم منها ريح الحقد على اللورد ، والشماتة به ، وبما آل اليه من هذا المصير ، بعد أن ظن أن الزمن قد صفا له ، وأن القدر قد سالمه ، وأن الدهر قد أعطاه مصر طعمة .

إذ ذاك جرى قلم الشيخ مرة أخرى بسبع مقالات ، تبع بعضها بعضا ، ونشرتها جريدة المؤيد بين يومى ٢٢ ابريل و٣٠ ابريل من نفس هذه السنة ، وهى سنة ١٩٠٧ .

ثم استعد اللورد للرحيل ، ودبر الأنصار لتوديعه حفلا أقيم لهذا الغرض بمسرح (الأوبرا الخديوية) . وخطب اللورد خطبته الطويلة المعروفة ، وذلك فى الرابع من شهر مايو .

وانبرت الصحف الوطنية للرد على هذه الخطبة الخطيرة ، وكان من أشدها على صنائع الاحتلال رد المؤيد . إذ ذاك جرى قلم الشيخ مرة ثالثة بمقال طويل ، رد فيه على اللورد رداً مفحماً ، حتى لقد أبلس الرجل وصنائعه ، بينما صفق له الرأى العام فى مصر ، وانهالت على الشيخ على يوسف كثير من الرسائل البرقية والبريدية من شتى أنحاء القطر ، مستحسنة رده ، مهنئة له أصدق التهنئة (١) .

(١) من ذلك أن أحد الوجهاء — وهو أحمد نجيب الجواهرجي — بعث الى الشيخ بهدية ثمينة لتكون تذكارا لمقالاته التى رد بها على اللورد كرومر . وتألفت هذه الهدية من دواة من الفضة بقلم ذهبى ، وبجانبها أقلامها ، وختامتها ، ورمليتها ، ونشافتها ، كلها من الفضة المموهة بالذهب (انظر كتاب مقالات قصر الدوبارة ص ١٠٢)

ثم رأى بعض الصحفيين — استجابة منهم للجمهور — أن يجمعوا كل هذه المقالات والردود فى كتاب ، وأذن لهم صاحب المؤيد فى ذلك ؛ فتألف لهم منها كتاب بعنوان « مقالات قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء » . وهو الكتاب الذى نريد أن نعرضه الآن على القراء كنموذج كامل لصحافة السيد على يوسف .

لكن — ليس معنى ذلك أن قلم الشيخ لم يجر فى محاربة الاحتلال البريطانى بغير هذه المقالات التى نتحدث عنها . لا — بل إن قلم الشيخ كان سيفا مصلتاً على عنق الاحتلال زهاء خمس وعشرين سنة من حياة مصر ، لم يفتر فى أثنائها عن المناهضة حينا ، والمناصحة حينا آخر . غاية الأمر أن هذه المقالات الثلاث عشر ، ومعها الرد الذى كتبه الرجل على خطبة اللورد جاءت تباعاً ، وفى ظرف خاص ؛ هو ذلك الظرف الذى رغبت فيه الحكومة البريطانية فى تغيير سياستها منذ حدوث ذلك الحادث المعروف باسم (حادث دنشواى) عام ١٩٠٦ . وهو الحادث الذى عصف بحياة اللورد ، وأوقع الحكومة البريطانية نفسها فى حرج أمام مجلس النواب البريطانى . فاستقر الرأى هناك على عزل اللورد كرومر .

والحادث بسيط فى حد ذاته ، فقد خرج ضابط انجليزى مع رفقائه لصيد الحمام فى قرية دنشواى من قرى المنوفية . فاصطدم هنالك بالفلاحين الذين ضربوه ، ففر منهم هارباً فى حمارة القيظ . فمات فى الطريق غير أن كرومر اتخذ من هذه الحادثة الفردية أساسا لطائفة من التهم العريضة التى اتهم فيها المصريين بالتوحش والتعصب الدينى ، إلى الحد الذى يخاف منه على حياة الأجانب المقيمين فى مصر .

وإلى هذه الحادثة المشهورة يشير شاعرنا المصرى المعروف حافظ (بك) ابراهيم بقوله من قصيدة طويلة أربت على ثلاثين بيتا . ومطلعها :

قصر الدوبارة هل أتاك حديثنا ... فالشرق ريع له وضج المغرب

ومنها قوله مخاطباً كرومر :

نقلت لنا الأسلاك عنك رسالة ... باتت لها أحشاؤنا تتلهب

ماذا أقول وأنت أصدق ناقل ... عنا ولكن السياسة تكذب

أنقمت منا أن نحس وإنما ... هذا الذى تدعو إليه وتندب

إن ضاق صدر النيل عما هاله ... (يوم الحمام) فان صدرك أرحب

أو كلما باح الحزين بأنة ... أمست إلى معنى التعصب تنسب ؟

رفقا عميد الدولتين بأمة ... ضاق الرجاء بها وضاق المذهب

رفقا عميد الدولتين بأمة ... ليست بغير ولائها تتعذب

إن أزهقوا صيادكم فلعلهم ... للقوت لا للمسلمين تعصبوا !

ولربما ضن الفقير بقوته ... وسخا بمهجته على من يغضب !

فى (دنشواى) وأنت عنا غائب ... لعب القضاء بنا وعز المهرب

حسبوا النفوس من الحمام بديلة ... فتسابقوا فى صيدهن وصوبوا

نكبوا وأقفرت المنازل بعدهم ... لو كنت حاضر أمرهم لم ينكبوا !

جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا ... بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا

شنقوا ولو منحوا الخيار لأهلوا ... بلظى سياط الجالدين ورحبوا

يتحاسدون على الممات وكأسه ... بين الشفاه وطعمه لا يعذب

موتان هذا عاجل متنمر ... يرنو وهذا آجل يترقب الخ [١]

ومن هذه الحادثة المشهورة خلق الزعيم الشاب مصطفى كامل فضيحة كبرى للانجليز ، نشرها فى أرجاء العالم المتمدن ، وأوغر بها صدور الشعب الانجليزى وحكومته ، وأسقط بها اللورد كرومر من عرشه ، كما سيأتى الكلام عن ذلك فى موضعه من هذا البحث إن شاء الله .

---

(١) نشرها المؤيد بالعدد ٤٩٩٥ بتاريخ ١٧ أكتوبر ١٩٠٦ .

ونعود إلى مقالات (قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء) فنرى المجموعة الأولى منها ، وعدد مقالاتها ست تنشر بالعنوانات الآتية .

الطوب والقلوب

حرية : مراقبة وتقييد

حكومة نيابية

تعديل الديكريتو

أحوال المستشارين

التعليم ونظارة المعارف

فأما مقالة (الطوب والقلوب) فهكذا بدأها الشيخ :

« يوم الأربعاء القادم يعود جناب اللورد كرومر إلى القطر المصرى ، وقد نقص عدد سكان البلاد أربعة من الرجال ، قضوا فى (دنشواى) شنقا ، وكانوا حتى يوم سفر اللورد إلى انكلترا أحياء يرزقون . لكن السياسة لا قلب لها . وجناب اللورد سياسى محنك مشهود له ، فهو لا يشعر بهذا النقص التافه الذى طرأ على أمة يربو عددها على اثنى عشر مليونا .

إلا أن السياسة التى لا قلب لها ولا حنان ، لها فى الوقت نفسه قلب يتأثر من الفشل والخسارة . ومن هذا القبيل ينتظر أن يتأثر جناب اللورد عند وصوله ، لأنه سيجد فى البلاد نقصا كبيراً من هذه الوجهة » .

ثم طفق الشيخ يشرح وجوه هذا النقص الذى سيشعر به اللورد عند وصوله . فسيجد هذا اللورد شعباً ضائقاً به ، نافراً منه « لأن السلطة الانكليزية ضربت مصر بيد من حديد فى حادث تعتبره الأمة من أبسط حوادث الاعتداء والخصام ، وهو حادث دنشواى » . ثم لم يكفها ذلك حتى طفقت تصور الأمة المصرية بصورة الأمة المتوحشة التى غلب عليها التعصب الدينى ، بحيث أصبح يخشى على نزلائها من فتك أفرادها بهم .

حدث كل ذلك فى غياب اللورد كرومر عن مصر . وإذ قد عاد إليها فان الوطنيين يبادرونه بهذا السؤال :

« هل يريد جناب اللورد أن يعطى حكومته طوب مصر ، أم هو يريد أن يجمع حولها قلوب المصريين ؟ » .

فأما إن أراد الإنجليز طوب مصر فعليهم بالعسف ، وإذلال الشعب ، وازدراء عاداته ، والنيل من قوميته . وأما إن أرادوا قلوب المصريين فعليهم أن يغيروا من خطتهم ، وألا يرموا المصريين بطائفة من الموظفين الانجليز ، ليس لهم حظ من جلال العمر ، ولا وقار الشيخوخة ، يسومون المصريين سوء العذاب ، ويمارسون فيهم أول درس من دروس السياسة والرياسة ، ويلتذون برؤية شيوخ المصريين وسراتهم وأكابرهم وقوفاً بين يدى شاب منهم ، خرج أمس فقط من حصن المدرسة !

* * *

وفى المقالة التى عنوانها (حرية: مراقبة أو تقييد) استهلها الشيخ بقوله:

« فى القطر المصرى الآن سلطة قوية قادرة ؛ هى الصحافة الوطنية ، لا أدعى لها الكمال ، ولكننى أقول — ولا أخشى لومة لائم — إنها قوة قادرة ، وكلمة نافذة ، وصوت يخترق الأسماع ، ويؤثر على القلوب . قد تخطىء أحيانا ، ولكنها تصيب غالبا . وللأمة تعلق بها ، وميل إليها ، وثقة بآرائها ، واعتماد على صحة وطنيتها » .

ثم قال : « وخلاصة ما يقال عن أهمية الصحافة الوطنية فى مصر إنها — على علاتها — السلاح الوحيد الذى يأباه الاحتلال . فأنت تعلم أن الاحتلال استولى على كل نفوذ فى كل دائرة من دوائر الأحكام بواسطة المستشارين ، ولم يبق حراً فى مصر غير الصحافة ، فهى موضع أمل المصرى فى شدته وكربه ، ينقل بواسطتها شكواه ، ويعلن رضاه » .

علم اللورد كل ذلك وأقر بفضل الصحافة المصرية ، ولكنه بعد حادث

دنشواى خاف شر الصحافة ، وأراد أن يئدها ويقتلها ، فاتهمها أولا بأنها كاذبة ، وأنها أبرع جرائد العالم فى اختراع الأراجيف .

وهنا نرى صاحب المؤيد يوجه الخطاب بدهائه المعروف إلى اللورد كرومر قائلا له : أن تقييد الصحافة وإلغاء حريتها — بعد حادث دنشواى — لا يتفق وخطة اللورد القديمة قبل حادث دنشواى . ألم يحاول بعض أعداء المؤيد أن يحملوا اللورد على إسقاطه ، فقال لهم اللورد كلمته المشهورة :

« إن إسقاطه لا يكون إلا بأحد أمرين ، إما إيقاع صاحب المؤيد فى مكيدة يكون بها القضاء على جريدته ، وإما إلغاؤها بطريقة استبدادية . والأول لا ترضاه ذمتى ، والثانى لا يرضاه البرلمان الانجليزى ؟ » .

هكذا كان الوطنيون فى مصر يخافون سطوة اللورد إذا رجع اليهم بعد حادث دنشواى . وأخوف ما كانوا يخافونه على أنفسهم أن تمتد يده إلى إيذائها عن طريق الضغط على الصحف ، وهى الأداة الباقية لهم للتعبير عن آرائهم ، والمطالبة بحريتهم واستقلالهم .

* * *

وفى المقالة الثالثة وعنوانها (حكومة ذاتية) افتتحها الشيخ بقوله :

« إن الصوت الذى يسمعه جناب اللورد كرومر بعد رجوعه من مصيفه — صوت مصر تنشد لنفسها حكومة دستورية نيابية — ليس صوتا جديداً لم يسمعه اللورد من قبل . وليس هو بخاطر طاف الآن فقط على نفوس المصريين ، ولا هو مطلب تنزع إليه مصر محاكاة للفرس أو الروس أو الترنسفاليين الآن ، ولا تشبها بالانكليز والفرنسيس والألمان وغيرهم ، بل هو ميل قديم فى المسلمين ، فطروا عليه منذ نشأتهم . . لأن الشورى من قواعد أحكام الشريعة الاسلامية فى إدارة شئون الأمة . . تلك الشورى التى وجدت فى الاسلام قبل أن توجد فى انكلترا الدستورية المنظمة .

وإن فمصر تطلب فى سنة ١٣٢٤ هجرية ، نظاما وضع أساسه الاسلام قبل وجود التاريخ الهجرى فى حساب العالم » .

وبقى الشيخ يطالب بالدستور بلهجة فيها عنف ما ، وفيها سخرية ما ، وفيها قدر كبير من المنطق والبرهان ، وفيها تذكير قوى للانجليز بوعودهم السابقة للمصريين منذ عام ١٨٨٢ . ثم قال لهم : «ما هو الضرر الذى يخشاه الاحتلال الانجليزى من منح مصر حكومة ذاتية ، وقد منحت انكلترا هذا النظام للترنسفاليين الذين أثخنوها بالأمس جراحا ، وأزهقوا أرواح الألوف المؤلفة من أبنائها ، حتى ملئت بدمائهم السهول ، وحتى أفرغوا خزائن انكلترا من المال ؟» .

فإذا كان الانجليز صادقين فى رغبتهم فى الإصلاح ، فليستعينوا عليه — لا بمستشاريهم الذين لا يعلمون شيئا عن مصر وأهل مصر — ولكن بمجلس نيابى يضم خيرة المصريين العارفين ببلادهم ، والمدركين لوجوه الإصلاح التى تحتاج إليها بلادهم » .

«أما الادعاء بأن مصر إذا نالت حكومة نيابية ألقت بنفسها فى أحضان الدولة العلية ، فهو ادعاء يقصد به ذر الرماد فى العيون ليس إلا » .

« إن الحكم الصحيح لا يعتمد على الرجال بقدر ما يعتمد على النظام ؛ ذلك أن الرجال معرضون للغضب والرضا ، وللصواب والخطأ . أما النظام فبمنأى عن كل ذلك » .

« فإذا شاء المصلح أن يكون مصلحا إلى الأبد ، فليترك وراءه نظاما صالحا لا يقدر المفسدون بعده أن يهدموه . وهذا ما يريده اللورد كرومر فى مصر ليذكر فى أعقابها من أفضل المصلحين» الخ .

***

ثم فى المقالة الرابعة التى عنوانها (تعديل ديكريتو سنة ١٨٩٥) رأينا صاحب المؤيد ينقد هذا النظام ، ويضع يده على موضع الخلل فيه . والنظام الناقص لا ضمان له من الرجال . بل الرجال أنفسهم يكشفون عن نقصه فى ظروف غضبهم ، وتحت ضغط من أهوائهم ونزعاتهم . وإذ ذاك يؤمن

الناس بهذه الحكمة التى تقول « الظلم كامن فى النفس : القوة تظهره والضعف يخفيه » .

« وفى حادثة دنشواى تجلت قوة الإنسان وضعف النظام بأكمل وجوههما . فظهرت صورة القوى مطلقا لنفسه العنان فى الانتقام ، وظهرت صورة الضعيف شوهاء مظلمة متلاشية . . وتلك كانت وظيفة المحكمة المخصوصة ، ومنفذى حكمها ، بمقتضى دكريتو سنة ١٨٩٥ » .

« فعلام توجد هذه المحكمة المخصوصة بل « الدائرة المخصوصة » لأنها دائرة الدوائر التى تدور على المصرى ، وفى البلاد محاكم منظمة يحاكم فيها كل وطنى اعتدى على أحد ، حتى على مقام ولى الأمر ؟ » .

وهنا دعا الشيخ إلى إلغاء هذا القانون (أو الديكريتو) قائلا إن المحكمة المخصوصة والعدل ضدان لا يجتمعان . ففيم الحرص عليها إلى الآن ؟

هل يريد اللورد أن تمضى عشر سنوات أخرى ليظهر له خطأ هذا القانون الذى وجدت المحكمة المخصوصة بمقتضاه ؟

* * *

أما المقالة الخامسة وعنوانها (أحوال المستشارين فى إدارة الحكومة الخديوية) ففيها عقد الشيخ موازنة بين المستشارين الإنجليز والنظار المصريين ، وهى موازنة محزنة حقا ، لأن مركز النظار فى حكومة غير نيابية يختلف عنه كثيراً فى حكومية نيابية . فهم فى الأولى وكلاء الحاكم المطلق ، وهم فى الثانية وكلاء الأمة ، وسطاء بينها وبين الملك » .

ولكن النظار فى مصر على هذه الحال : « كل ما فى أيديهم مطابع صغيرة يطبعون بها الأوراق التى تعرض عليهم من قبل المستشارين ، أو رؤساء الأقلام الخاضعين للمستشارين مباشرة وقد لا يجسر الواحد منهم على قراءتها ، حتى لا يناجى نفسه برأى فى موضوعها » .

ثم أبدى الكاتب عجبه مرة أخرى من جناب اللورد كرومر ، كيف شاءت

حكمته أن يتخذ مستشاريه فى مصر من الشبان الذين لم ينالوا بعد شيئا من التجربة ، وكيف لم يجد من رجال مصر من يصلحون أن يكونوا مستشارين له فى دواوين الحكومة على اختلافها ؟ ثم قال :

« وإذا كان لابد من وجود المستشارين ، فلماذا لا يكون لقب الموظف مشيراً إلى حقيقة منصبه ؟ . لماذا أصبح هذا اللقب علماً على كل القوة الفعالة فى الحكومة المصرية ، حتى غرس فى عقول الأمة من كبير وصغير، وقارىء وأمى أن الأمور مرهونة بإرادته : فالعرائض لا تقدم إلا إليه ، وإن رفعت إلى النظار كانت من قبيل الاستشهاد ، كما ترسل صورها إلى الجرائد . فالناظر مع المستشار كالصفر على اليسار » ! .

ثم تعجب الشيخ بعد ذلك من هذه الوصاية التى فرضها اللورد على مصر عن طريق مستشاريه ، ومن أن هؤلاء « يقضون الأعوام الطويلة فى مصر ، فلا يتصلون فى أثنائها بأحد من المصريين ، ولا يعرفهم أحد منهم ، لاشىء سوى أن المستشار يشمخ بأنفه حتى على رجال الأمة وأعيانها » !

ألا يقدر اللورد فى نفسه ما لهذه الفوضى الادارية من أثر معنوى سىء غاية السوء فى نفوس المجتمع المصرى على اختلاف طبقاته ؟ فلقد « أصاب حلوق الناس شجاها ، واستفز سخيمة الأنفس اللئيمة هواها ، وكان من وراء هذه الأحقاد النفسية التى تشعبت فى طبقات الأهالى المختلفة ما نراه اليوم من الفوضى العامة فى البلاد ، ولا يزال ضرعها يدر بالفساد بعمل أولئك الصنائع الذين هم أقرب إلى المستشار من كل أحد » .

وختم الشيخ مقاله بالنصيحة لجناب اللورد أن يقف من الأمة المصرية موقف الطبيب الماهر ، لا الطبيب الجاهل ، فيعمل على أن تحصل هذه الأمة على دستور نيابى يكون أساساً للاصلاح الإدارى المنشود . فذلك أولى به من رمى المصريين بعدم الكفاءة ، وذلك منذ « أصبح من القضايا البديهية

عند الانكليز أن كل عيب أو ضعف فى الادارة المصرية منشؤه صفات فى العاملين من المصريين ، أو فى طبيعة الأمة المصرية » .

* * *

وأخيراً تأتى المقالة السادسة والأخيرة من المجموعة الأولى . وعنوانها (التعليم ونظارة المعارف) . وقد استهلها الشيخ بجملة للورد كرومر اقتبسها من تقريره عام ١٩٠٣ ؛ هى قوله « إن التقدم فى المعارف يتوقف على كون نظام التعليم وافيا بحاجات الأمة على اختلاف طبقاتها » .

ثم هجم الشيخ على موضوعه دفعة واحدة فقال :

« إن سياسة التعليم التى جرت عليها نظارة المعارف المصرية ، وينفذها المستر دانلوب بغلظة وصلابة هى أن تكون المكاتب الابتدائية رافعة لأمية الذين يتعلمون فيها القراءة والكتابة بقدر الإمكان .

والحكومة توهم بأنها راغبة فى نشر التعليم الصناعى ، وهمتها فى ذلك واهنة « وغاية التعليم الثانوى والعالى عندها واحدة ؛ هى إعداد الفئة اللازمة لخدمة الحكومة من الشبان ليس إلا . فالتعليم الرسمى هنا يقتصر على حاجة الأمة من بعض وجوهها ، لا كلها . ويقصر نفعه على فريق قليل منها . فلا يشمل كل الطبقات . وقد نادى مجلس شورى القوانين حتى بح صوته فى سنين كثيرة ، يطلب من الحكومة عرض لوائح التعليم العامة عليه ، ليبدى رأيه فيها ، فتقتصر الحكومة فى الجواب على أنه : ليس من اختصاص مجلس الشورى نظر لوائح التعليم » .

« وإنها فظاظة لا معنى لها . فالأموال التى تنفق على التعليم من خزينة الحكومة هى أموال الأمة ، والأموال التى تؤخذ أجرة للتعليم من آباء التلاميذ هى أموال الأمة . والموظفون الذين يفرضون على زمام إدارة التعليم فى نظارة المعارف إنما يأخذون مرتباتهم من أموال الأمة !

وكلما ارتفع صوت أعضاء المجلس بطلب النظر فى برامج التعليم قيل لهم بلسان دانلوب :

«إننا لا نراكم أهلا لأن تنظروا فى نظام تعليم أنتم جهلاء به: فلا تطلبوا ما لستم أهلا له».

ومعنى هذا «أن الحكومة لا تريد إلا ما يريده قصر الدوبارة من سياسة التعليم وقصر الدوبارة بمثابة وصى على قُصَّر أغنياء ليس لهم مجلس حسبى يراقب أعمال الوصى، ويجعل حداً لرشدهم. فلا الوصى يحب أن يخرجهم من هذه الوصاية، ولا القصر قادرون بذواتهم على الخروج. ولا رقيب فوق الوصى يحسب له الوصى حسابا. والسر كله فى العلم والتعليم لأنهما ينبوع رشد القاصرين».

ثم قال الشيخ:

«وأكبر لعبة أظهرتها سياسة الاحتلال فى التعليم لتبهر بها أبصار الوطنيين والأجانب لعبة إنشاء الكتاتيب فى البلاد. والمعيب فى هذه اللعبة أنها أقرب للرياء منها لشرف القصد. ولقد نفذت بطريقة هى الرياء كله إذ ترك لكل مدير أن يتنافس مع زملائه فى حض الأعيان على إنشاء المكاتب الأولية ومن ثم عادت للعمد سلطتهم الأولى فى الضغط على الفقير لاستنزاف جلده قبل جيبه، فتحول الخير شراً من وجهين: وجه الرياء من جهة، ووجه الإرغام من جهة أخرى».

وختم الشيخ مقاله بهذه العبارة:

«والخلاصة أن سياسة التعليم الجارية فى البلاد الآن غير مفيدة لتكوين أمة ينبغ فيها العلماء فى كل فن، ولا هى سائرة للأمام قدما لأن التقدم فى المعارف والعلوم يتوقف على كون نظام التعليم وافياً بحاجات الأمة على اختلاف طبقاتها. كما قال اللورد نفسه».

* * *

أرأيت إلى الشيخ على يوسف كيف التقى وجهاً لوجه بجبار الاحتلال

فى مصر ؟ فأخذ يقرعه حجة بحجة ، وبرهانا ببرهان ، ويقف منه موقف الناصح الأمين والمرشد الصادق ، يريد أن يأخذ بيده إلى الإصلاح المنشود.

أرأيت إلى الشيخ كيف عبر عن ثورته فى هدوء عجيب ، وكيف سيطر على عواطفه سيطرة تامة ؟ وكيف كان يسلط على عدوه العنيد سيفين لا ثالث لهما : المنطق السليم والفهم المستقيم ، وسيف السخرية الخفيفة التى حلت فى مقالاته كلها محل الغضب الجامح والثورة العاصفة ؟

تلك وأمثالها صفات الصحفى الحقيقى ، كما شرحنا ذلك كله فى خاتمة الجزأين الأول والثانى من أجزاء كتابنا « أدب المقالة الصحفية فى مصر » .

مناقشة فى هدوء ، وسخرية فى تلطف ، والتزام دقيق لجانب المنطق ، وتوجيه سليم للأداة الحكومية كلها فى مصر ، ومحاسبة للحكام مشتقة من الواقع المحسوس ، وموازنة محزنة بين قوة المحتلين وضعف المصريين ، وردود قوية على حجج الخصوم من الإنجليز . واعتدال ظاهر فى سياسته معهم ، ودقة بالغة فى التعبير ، واستبطان حقيقى للأمور يدل على قدرة هائلة ، وبراعة سياسية بالغة . هذه صفات تطالع القارىء لهذه المجموعة الأولى من مقالات قصر الدوبارة ، وتتضح له وضوحا تاما من خلال سطورها.

أجل — ربما شعر مصرى فى وقتنا هذا أن الشيخ يوشك أن يستجدى اللورد كرومر حين يسأله حكومة نيابية يشترك فيها المصريون بأنفسهم ، ولكن هذا المصرى حين يقدر العقلية العملية التى يصدر عنها الشيخ من جهة ، وحين يقدر الضعف والإستسلام الذى كان يبدو حتى من ولاة الأمور المصريين أنفسهم منذ الإتفاق الودى سنة ١٩٠٤ من جهة ثانية ، لاشك أنه يلتمس العذر للشيخ فى اصطناع هذه اللغة ، وفى توجيه الخطاب للورد كرومر — وهو صاحب السلطان الحقيقى فى مصر — بهذه الطريقة .

على أن صاحب المؤيد كان لا ينسى مطلقاً أن يذكر المحتلين دائما بأنه إنما يطالب الأمة المصرية المسلمة بإصلاح تدعو إليه الشريعة الإسلامية

القائمة . ذلك أن الشورى فى بلاد كمصر ليست نباتاً غريبا عن أرضها أو تربتها ، وإنما هى نبات ملائم كل الملاءمة لجوها وطبيعتها . وهذا هو السبب الذى من أجله ينظر المؤرخون الأوروبيون إلى هذا الشيخ على أنه من دعاة الإصلاح فى مصر ، على أساس الدين الإسلامى .

أما أسلوب الشيخ فى التعبير عن هذه المعانى جميعها فأسلوب يعتمد قبل كل شىء على السهولة والوضوح ، كما يعتمد كذلك على التدقيق فى اختيار الألفاظ التى يعبر بها عن هذه المعانى . وأهم من هذا كله ، وأولى منه بالتفات الناقد النزيه أنه أسلوب يعتمد فيه الكاتب على نفسه ، ولا يميل فيه إلى التسلق على كلام غيره من الأدباء القدامى والمحدثين ، اللهم إلا فى ظروف قليلة ونادرة ، لا يمكن أن يقاس عليها .

الحق أن أكبر مايلفت نظر الناقد عند قراءته هذه المقالات هو إعراض الكاتب هنا إعراضاً يوشك أن يكون تاماعن الأساليب الأدبية الموروثة ، والتعبيرات العربية المعروفة من مئات السنين والعدول عن كل ذلك إلى الأساليب الحديثة أو التى لا عهد للأدب العربى بها من قبل :

(فالوزراء إلى جانب المستشار أصفار على اليسار) ، (وإنشاء المكاتب الأهلية لُعبة سياسية) ، (وقصر الدوبارة وصى على قُصَّر أغنياء ليس لهم مجلس حسبى) ، والكلام كله مطلق أو كالمطلق من جميع القيود التى يتقيد بها فحول الأدب القدماء . ولا وجود فيه للحكمة ، أو المثل ، أو الشعر ، أو القرآن ، أو الحديث ، أو الأدب الفرنسى ، أو الأدب الانجليزى ، اللهم إلا فى مرات قليلة لا تلفت نظر الناقد ، ولا يستطيع أن يتخذ منها سمة من سمات الكتابة . ولهذا الكلام بقية فى الفصل الذى نشرح فيه أسلوب هذا الكاتب خاصة .

* * *

ونعود إلى المجموعة الثانية من (مقالات قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء) . فقد استقال اللورد كرومر من منصبه كمعتمد لانكلترا فى مصر ، وخلفه

غورست فى هذا المنصب . وطرب الوطنيون كثيراً لاستقالة الأول . وانتهزت الجرائد الوطنية هذه الفرصة ، لتقوم من جانبها بتوجيه الثانى . وكانت المؤيد أقدر الصحف الوطنية جمعاء على القيام بهذه المهمة الأخيرة .

فكتب الشيخ فى هذا المعنى سبع مقالات تباعا كما قدمنا .

(أولاها) بعنوان : اللورد كرومر ولماذا اختلفوا على إكرامه ؟ ذهب فيها إلى تقرير ماجبلت عليه الأمة المصرية من إكرام ضيوفها إلى حد تجاوز المعروف عند الشعوب الأخرى ، ومن العطف على الأجنبى إلى حد السرف ، ومن التساهل واللين حتى يخيل للطامع فيها أنه يكاد يلوبها بيديه . واستدل على ذلك بما قام به المجلس البلدى الاسكندرى من إطلاق اسم الشاعر الإيطالى كردوتشى على أحد شوارع المدينة ، لا لشىء إلا لأن بالأسكندرية جماعة كثيرة من الطليان ، وأن فى (القومسيون البلدى) بعض الأعضاء الطليان . كما استدل على ذلك باستمساك المصريين (بسابا باشا) رئيساً لمصلحة البريد ، مع أنه رجل سورى لا مصرى . ثم تساءل الشيخ :

فما بال الأمة المصرية مختلفة الآن على إكرام اللورد كرومر ، وهو بلا جدال — قد نفع القطر أكثر من سابا باشا ، وأكثر من كردوتشى ؟

مابال اللورد بعد أن قضى ربع قرن فى مصر ، ترقى فى غضونه من قنصل بسيط إلى صاحب سلطة قيصرية فى قصر الدوبارة ، يغادر البلاد وحوله ضجيج منقسم إلى نغمتين : نغمة الأجانب الراغبين فى تخليد ذكراه بإنشاء نصب له فى العاصمة أو الثغر ، ونغمة الوطنيين . وأقل ما يقال عن مظهر الأمة بين تلك النغمات المختلفة إنها غير راضية عن الرجل . ومن يقل غير ذلك فهو عن جادة الحق الصراح بعيد .

ماالسبب فى ذلك ؟

السبب الجوهرى فى ذلك أن اللورد منح مصر — على أكثر ما يعزى له — ثروة ورخاء باليد اليسرى ، وسلبها أسباب رقيها الأدبى باليد اليمنى ،

فسلبها بذلك آمالها فى المستقبل . والآمال زهرة الحياة البشرية فى هذا العالم ــ وإن اللورد قد منحها ثروة زائلة ــ ولا يثبت الزائل الزائل ــ وهى تريد ثروة ثابتة ، ضمانتها الوحدة الوطنية التى يريد اللورد ذهابها من الوجود .

« رأى بعض الحكماء رجلين لا يفترقان ، فسأل عنهما ، فقيل له إنهما صديقان . قال : فما بال أحدهما غنى ، والآخر فقير ؟

فما بال اللورد كرومر ، الذى هو ثمرة أحزم وطنية فى العالم ، بنيت على أشرف مبادىء التضامن الجنسى يريد لنا أسوأ المذاهب فى الوطنية الذاهبة بالمصريين إلى الفقر المدقع من خيرات بلادهم ، ويريد أن تكون للأجنبى على طرف الثمام ؟ » .

« ما بال انجلترا بعد ما كررت مواعيدها الحلوة المغرية تركت عميدها العظيم فى وادى النيل يختم أعماله بالتصريح : بأن الاحتلال باق فيه إلى الأبد ، وأن وطنية أهليه يجب أن تكون كشكولا ، ليس له فى مجموعات الأمم مثيل ؟ »

هكذا مضى الشيخ ينقد سياسة اللورد كرومر فى مصر . وهى سياسة قامت على العنف . وأخذ يشدد النكير عليه فى خطته التعليمية التى خدع بها المصريين ، فجعل يشجع التعليم الأولى ، ويعرض إعراضاً تاماً عن كل ماله صلة بالتعليم العالى ، كأن مصر ليست أهلا له . ولم يفعل اللورد فى أثناء مقامه بمصر نحواً من خمس وعشرين سنة أكثر من أنه غرس فى عقول أوربا أن مصر أمة قاصرة متعصبة ، وليس فيها رجال ، ولا تصلح أن تكون أمة بحال من الأحوال .

* * *

(والثانية) من هذه المقالات ــ وعنوانها : السياسة الثابتة وكيف تكون ؟ ذهب فيها الشيخ إلى ما تدعيه الدول الأوربية من أنها إنما أتت الشرق لإصلاحه ، وأتى الانجليز خاصة إلى مصر لإعدادها للحكم الذاتى .

وتلك هى السياسة الثابتة التى تجرى عليها انكلترا . وكل ما هنالك — على حد قول كرومر — أن انكلترا تذهب وأخرى تأتى مكانها .

«آمنا بالله وباليوم الآخر ، وأن سياسة الانكليز ثابتة لا تتغير . ولكن ما هى هذه السياسة ؟

« فقد بدأ الاحتلال بوعد صريح بأنه مؤقت، وسينقضى متى استعدت البلاد لأن تحكم نفسها بنفسها . وبعد ثلاث عشرة سنة من الاحتلال أى فى سنة ١٨٩٥ قال اللود كرومر فى تقريره عن مصر : إن القاعدة الأساسية التى يناسبها الإصلاح فى مصر يمكن تلخيصها فى كلمة واحدة هى : رأس أوروبية وأيد مصرية !

وبعد اثنتى عشرة سنة أخرى — أى ربع قرن من يوم بدأ الاحتلال انتهى اللورد كرومر بأقوال غامضة فى ذلك . ولو أراد أن يلخص قاعدة عمله الذى جرى عليه، وانتهى إليه الآن لقال : رأس وأيد انكليزية ، وأرجل مصرية » !

فما الذى يريدونه إذن من كلمة السياسة الثابتة ، وماذا يعنون بها ؟ هل يعنون ماصرحوا به مراراً وتكراراً ، وجعلوا شرف بريطانيا العظمى رهن إنفاذه ؟ أو يعنون بها سياسة اللورد كرومر الذى عكس آية ذلك الوعد الشريف إلى ضد مغزاه فيما يتعلق بتربية المصريين ، وتعليمهم حكم أنفسهم ؟ أو يقصدون بهاتلك الآراء الغامضة ، والأفكار المختلطة التى تضمنتها وصيته الأخيرة .

يقولون أن سياسة انجلترا ثابتة ، فهل يلزم من ذلك أن تتكرر أغلاط معتمدها السابق على يد معتمدها الجديد ؟ . .

« إن الله عز وجل خالق هذا الكون هو الذى يغير ولا يتغير ، وهو عليم بذات الصدور » .

* * *

(والثالثة) من هذه المقاولات عنوانها : اختراعات قصر الدوبارة . وفيها يقول :

« حدثت حادثة دنشواى المحزنة ، فصاح أحرار الإنكليز فى البرلمان صيحة أفزعت قلب اللورد ، وبلبلت لسان السير إدوارد جراى ، فلم يجد الأول ما يسكن به ثائرة الأنفس عليه ، وعلى أعوانه سوى أن يلقن الثانى أن المصريين على يقظة تعصب خطير يخشى من شره ، حتى على شمال أفريقية المعرضة لهذه العدوى من مصر . فنادى ناظر الخارجية بذلك وسط البرلمان، حتى انتفخت أوداجه . ولكنه زاد فى هذه النغمة حتى راب قومه فى أن التهمة مصطنعة لغرض إسكاتهم فقط » .

وحين أنكرت الأمة المصرية ذلك على بكرة أبيها ، وأنكره النزلاء الأجانب عدل وزير الخارجية عن كلمة « التعصب » إلى كلمة « القلق » .

« والآن قد توج اللورد كرومر هذه التهم بأخطر منها ، وهو إعلانه أن المصريين مجردون من الكفاءة الطبيعية ، ومصابون بداء عقم أبدى ، منشؤه الجمود الدينى الذى يقف بأهله إلى ما قبل ألف سنة للوراء . ولذلك لا يمكن أن يكونوا — يوما ما — رجالا أكفاء لإدارة شئونهم فى المستقبل » .

ومضى الشيخ يرد على هذه التهم بالحجج المنطقية السليمة ، والدهاء السياسى الذى عرف به . ومن الحجج المنطقية السليمة حجة التاريخ الذى يشهد أن المسلمين عاشوا فى مصر مع القبط ثلاثة عشر قرنا من الزمان ، لم تحدث فى أثنائها حادثة واحدة تدل على التعصب ، على حين حدثت مئات الحوادث التى من هذا النوع فى أوربا . ومن الدهاء السياسى الذى عرف به الشيخ كذلك جمعه لردود كثيرة على هذه التهمة الخطيرة من أفواه المصريين على اختلاف طبقاتهم ، وتباين أعمالهم ، ومن أفواه النزلاء الأجانب أيضا فى مصر . وكلها ناطقة ببراءة المصريين من هذه التهمة الخطيرة .

« ولم يكتف اللورد بما زعم من سريان عدوى التعصب من مصر إلى شمال إفريقية ، حتى قام يدعو الأوروبيين إلى (جامعة صليبية) بدعوى أن المصريين يؤسسون (جامعة إسلامية) فسرها لقومه بأنه يراد بها اتحاد المسلمين فى العالم أجمع لمقاومة الدول المسيحية ، وأنه يقتضى لذلك أن تتدبرها جميع الأمم التى لها فى الشرق مصالح سياسية » .

وثم اختراع ثالث من اختراعات قصر الدوبارة ، وهو عدم كفاءة المصريين . وقد بنى اللورد حكمه عليهم فى ذلك على قاعدتين . الأولى أن العقل الشرقى من حيث هو شرقى غريب فى أشكاله وتصوره . بل هو كما يقول الأستاذ (سايس) : غريب الشكل كعقل ساكن زحل . والقاعدة الثانية جمود دين المسلمين فى مصر . والدين غالب على مزاجهم غلبة تامة . وهذا الدين عبارة عن « مبادىء وضعت منذ ألف سنة هدياً لهيئة اجتماعية فى حالة الفطرة والسذاجة إلخ » .

« قاعدتان : صيغت إحداهما من كلمة خيالية للأستاذ سايس ، وصيغت الثانية من جهالة ظاهرة بروح الشريعة الإسلامية » . . .

ومع أن القاعدة الأساسية فى الممالك أن الدين والملك أخوان ، لاغنى لأحدهما عن الآخر . فالدين أس والملك حارس . والبناء إذا لم يكن له أس متهدم . والملك ما لم يكن له حارس ضائع » .

* * *

(والرابعة) من هذه المقالات عنوانها : الجرائد واللورد كرومر . وتحت هذا العنوان كتب الشيخ هذه العبارة المشهورة لجفرسون :

« أفضل عندى أن أقيم فى بلاد ذات جرائد ولا قانون من أن أقيم فى بلاد ذات قانون ولا جرائد » .

ثم عجب الشيخ من أن يقول اللورد كرومر فى تقريره عن مصر سنة ١٩٠٣ « إن خوف التشهير على صفحات الجرائد يمنع كثيراً من الشرور »

ويقلل العيوب التى تعتور نظام الحكومة » . ورأيى الخاص أن خير ما فعلته الجرائد أفاد الحكومة بوجه عام ، وأن شر ما فعلته لم يضر ضرراً بليغاً بمصالح البلاد الحقيقية » . ثم يقول : « ولا أظن أنه يمكن ذكر حادثة واحدة فى العشرين سنة الماضية تدل على أن حرية الجرائد أضرت بالبلاد ضرراً عظيماً ، أو أخرت سير الإصلاح الحقيقى يوماً واحداً » .

عجب الشيخ من أن يقول كرومر كل هذا الكلام عن الصحافة المصرية فى تقاريره عن سنة ١٩٠٣ وسنة ١٩٠٤ وسنة ١٩٠٥ ، ثم يظهر الغضب كله على الصحافة المصرية بعد ذلك . « وعهدنا بعظماء الرجال مهما نبض فى نفوسهم نابض الغضب ، بل مهما جاشت به صدورهم أن يكون عندهم من حزم الحلم مايضبطون به ألسنتهم وأيديهم أن تظهر عليها أفاعيله ، فلا يسيئون ولا يبطشون ، ولا يحكمون على المغضوب عليهم حكم الجبارين » .

ما بال اللورد بعد أن أقر بفضل الصحافة المصرية هذا الإقرار يعود فيقول عنها « ولست أتذكر أنى قرأت فى جريدة منها مقالة واحدة صحيحة المادة ، أو حسنة الاستدلال ، أو مفيدة فى المسائل المالية ، أو المعارف ، أو النظام القضائى إلخ » ؟

ولكننا نسأل جناب اللورد هذا السؤال :

« لماذا اهتم جنابه بهذا الجانب من خطة الصحف المحلية ، ولم يهتم بذلك الجانب الذى كان أشد تطرفاً ضد الدولة العلية . وكان يتكلم عنها كعدوة لدودة لمصر ، مشرفة على حرب معها ؟ فكذلك فعلت (المقطم) و (البروجريه) وغيرهما من الصحف المحاذية للاحتلال . « وكان يظهر من عباراتها أنها تستقى الأخبار ساعة فساعة من الوكالة البريطانية . ونسيت هى أو نسى جناب اللورد أن مصر لم تزل تحت سيادة الدولة العلية ، مهما وهنت أعلاق هذه السيادة » .

« واهتم اللورد أيضاً بمنع الجرائد المحلية — إلا ماهى من صنائع الوكالة

البريطانية — من الدخول إلى السودان . تخالف بهذا المنع المبدأ الذى ينادى به على رءوس الأشهاد من ميله إلى تعميم حرية الصحافة » .

« واهتم جنابه بكتمان الأخبار المهمة والنافعة عن الجرائد المحلية . وسارت المصالح المصرية على خطته فى ذلك . فلا ترى فى قلم المطبوعات للصحف المحلية إلا ماهو من قبيل الإعلانات . . . إلخ » .

* * *

(والخامسة) من هذه المقالات — وعنوانها : تقارير اللورد كرومر — يظهر الشيخ فيها للرأى العام المصرى مبلغ التناقض الذى جرت عليه تقارير هذا اللورد قائلا لهم « إن الذى يطلب الثبات على قول واحد من سياسى إنما يطلب من الماء جذوة نار ، وخصوصاً إذا كان هذا السياسى مستعمراً » .

فإذا قالت انجلترا على لسان اللورد إن الاحتلال مؤقت ، فلا عليها أن تقول بعد ذلك إن الاحتلال دائم ولا نهاية له .

وإذا ذهب اللورد فى نقد اسماعيل كل مذهب ، وقال إنه حصر كل السلطة فى يده ، فلا على اللورد أن يتردد فى حصر السلطة كلها فى يده هو .

وإذا مال اللورد يوماً إلى تشجيع الصحافة ، ومنحها قسطا من الحرية ، فلا لوم عليه بعد ذلك أن يبطش بهذه الصحافة ، وأن يحاول تقييدها ما استطاع .

وإذا اعترف اللورد فى بعض تقاريره المبكرة أن مصر وطن للمصريين ، فلا بأس عليه بعد ذلك أن يقول : لا بل هى وطن لجميع العناصر فيها ؛ لهم مناحقوق كل وطنى من وطنه ، بالإضافة إلى بقاء الامتيازات الأجنبية .

ثم لم يكتف اللورد بكل ذلك حتى رمى المصريين بما رماهم به من التهم السابقة . فوقر فى نفوس الأوربيين « أن المصريين على ماوصفهم به اللورد ، وهم يزعمون أن وراء كل تقرير سنوات كثيرة من الاختبار . وهكذا أعطى اللورد خصوم مصر سلاحاً حاداً يحاربونها به فى كل زمان ، ولو بعد زوال السلطة الكرومرية » .

ثم اتجه الشيخ إلى المعتمد الجديد — سير ألدون غورست — فسأله هل ينوى المضى على سياسة سلفه ، وهى سياسة العنف ، والقذف ، وكيل التهم للمصريين جزافا ؟ وقال له : لقد كان اللورد كرومر يصفق بيد واحدة ، فهل تنوى أنت أن تصفق بيدين ؛ أحدهما يدك ، والأخرى يد الأمة المصرية ؟ هل ينوى المعتمد الجديد أن يكسر تلك النظارات الملونة التى كان المعتمد القديم يضعها على عينيه ، وأن يضع مكانها نظارات بيضاء ، يرى بها المصريين على حقيقتهم ؟

« ونحن نرجو أنه متى استقر اللورد كرومر فى قصره الإنجليزى ، ورجعت له عواطف الإنكليز الشريفة ، ومبادئهم الإنسانية العالية ، وحاسبته ذمته النقية ، فراجع مجموعة تقاريره عن مصر وجد فيها من منازعات ضميره ما يحمله على الندم ، وتحقق أنه لم ينصف نفسه ، ولم ينصف الأمة التى كتب عنها : لم ينصف نفسه لأننا نحن معاشر المصريين نذكر لجنابه أنه أحسن كثيراً فى الأفعال ، وأساء أكثر فى الأقوال . فكان بمثابة الذى يتصدق ، ويتبع صدقاته بالمن والأذى ، أو بمثابة الذى يطعم الجائع ، ويلعنه فى وقت واحد . ولم ينصف الأمة لأنه ظلمها بما كتب فى تقاريره عن تعصبها وجمودها وفساد طبيعتها ، وبما افترض لها من المضار الاجتماعية التى لا تجتمع فى زمن واحد . إن التاريخ سيمحص تقاريره ، فيجد فيها اختلافا عظيما يدل دلالة واضحة على أن كاتبها كان فى حيرة مما يريد أن يسطر ، فيكتب على غير هدى ، ولا اختبار ، ولا علم كاف بحقائق الأحوال » .

...

(والسادسة) من هذه المقالات عنوانها : لو كنت اللورد كرومر . وهى من المقالات السياسية البارعة التى كتبها الشيخ على يوسف ومنها قوله :

« لو كنت اللورد كرومر . . لجريت على الخطة الآتية : وهى أن أضع نصب عينى قبل كل شىء درس أخلاق الأمة المصرية وعاداتها وتقاليدها ؛

حتى إذا عرض لى فى المستقبل ما يقتضى التردد بين سياستين اخترت بحكم الخبرة التامة أفضلهما ، وجئت الأمة من حيث استهوى أميالها ، واتخذها عضداً لى فى كل أعمالى » .

ولكن اللورد بدلا من أن يفعل ذلك اتخذ له حجاباً وأعواناً ، وجعل لنفسه منهم عيوناً وآذاناً ، فلم يهتد يوماً ما إلى الحقيقة .

« ولو كنت اللورد كرومر ، وأحطت علماً بكثير من أسرار تقدم الأمم ، وأسباب ارتقائها ، التى من أهمها وأفضلها رفع نير الجهالة عن أعناقها ، لمنحت مصر يداً عالية من التعليم الصحيح ولو أنه تمكن فى مدى ربع القرن الماضى — وهو أكبر زمن لحضانة العلم فى رأى فلاسفة العمران — من نشر العلم كما يجب ، وتسهيله على ناشئة الأمة كما ينبغى ، لوجد الآن أمة متعلمة فى مجموعها ، أمة عالمة بمصيرها ، لو عارضته كانت معارضتها له خيرا من محاباة الجاهلين » .

« بل لو كنت اللورد كرومر لفعلت ما فعله الأحرار فى وزارتهم الحاضرة . فإنهم بعدما حاربت أمتهم الترانسفال ثلاث سنوات ، وبعدما وضعت الحرب أوزارها ، وألقى البوير سلاحهم بين يدى أعدائهم الأشداء ، لم يروا من مصلحة بريطانيا العظمى أن ينتقموا لها من خصمهم الذى تجرأ على قتلها غير أهل لذلك . وفى أقل من عامين منحوهم استقلالهم الإدارى ، مظهرين لهم ، وللعالم بأسره أنهم لم يحاربوهم منتقمين ، ولا ليجعلوا بلادهم غنيمة للشاردين والواردين .

« أما جناب اللورد فقد جاء مصر بعد فتنة قصيرة لم يذهب فيها من عساكر الإنجليز أكثر مما يذهب فى غرق سفينة اصطدمت بصخرة فى البحر ، ثم أقام فيها مدى ربع قرن يبعد قلوب المصريين عن المحتلين ، ويلاشى الثقة بمواعيد أسلافه وحكومته ، حتى الساعة الأخيرة من وجوده فى قصر ملكه » .

« لو كنت اللورد كرومر لأقمت برهانا واحداً على اقتدارى السياسى ، كما أقمت ألف برهان وبرهاناً على اقتدارى المالى » ، ولأعددت المصريين إعداداً صحيحاً لتولى أمورهم بأنفسهم ، بدلا من رميهم بعدم الكفاءة لتولى هذه الأمور .

« ولو كنت اللورد كرومر لما ختمت أعمالى فى مصر بهذا التقرير الأسود الذى كله تناقض وتحامل وسباب للمصريين ، وقضاء عليهم بالجمود الذاتى ، وغمز لدينهم ، وطعن على أخلاقهم الخ » .

ثم تصور الشيخ أن اللورد كرومر خلا بعد ذلك بالسير ألدون غورست خلوته الأخيرة ، فمضى يقول :

« لو كنت اللورد كرومر لقلت للسير غورست أثناء الخلوة الأخيرة بين التسليم والوداع : نحن هنا لا ثالث بيننا ، وغايتنا معا واحدة ، وهى أن نقدس مصلحة حكومتنا ، ونعزز نفوذها فى مصر ؛ فاتعظ بأغلاطى ، واعلم أن سياسة أربع وعشرين سنة أقنعتنى أن السياسة الفضلى هى فى محاسنة الأمة ، لا فى مخاشنتها ، فى اللين لا فى العنف » .

« احترم دين هذه الأمة تملك أعنة قلوبها . أكرم رؤساءها تطاطىء لك هامات الشعب احتراما ومودة ساعدها على الحكم الذاتى ، لأنها أصبحت بفضل رعايتى لها قادرة فى الحقيقة عليه . ولا تعارض الرأى العام بصلف وكبرياء ، فإنك لا تستطيع أن تصده إلا باللين وحسن المعاملة » .

« لو كنت اللورد كرومر لكذبت تلك الجرائد التى أوهمت الناس أنها تتكلم بلسانى ، وتخاطبهم ببيانى عندما قسمت الوطنية فى مصر : إلى وطنية مصرية ، وأوروبية مصرية ، وسورية مصرية (كما قالت المقطم منذ يومين) .

* * *

(والسابعة) والأخيرة من هذه المقالات عنوانها : المعتمد الجديد فى قصر الدوبارة .

وفيها وازن الشيخ بين المعتمد القديم والمعتمد الجديد . أما الأول فقد جاء مصر وحالها غير حالها اليوم ، فجعلها مدرسته وموضوع تجاربه . ومن كان كذلك فهو كثير التعرض للأغلاط ، كثير الأعذار فيما يسيء . وأما الثاني فقد تلقى دروسه السياسية الأولى في مصر ، حتى وصل إلى وظيفة المستشار ، فأحاط بكل شيء علماً ، ثم غادر مصر إلى وزارة الخارجية البريطانية ، حيث لبث ثلاث سنوات كاملات كافيات لأن يخرج التلميذ من مدرسة المعلمين أستاذاً كاملا . وعلى ذلك فقد جاءنا حائزاً لشهادة عالية فيما أحرز من علوم السياسة . فلا ينتظر أن يتعلم دروسها على نفقة مصر من جديد » .

« ثم هو قد امتاز على سلفه بأنه جاء هذه البلاد ، والهدوء شامل ، والعسر المالي زائل ، وعداء الدول غير موجود على الإطلاق . بخلاف الأول فإنه جاء مصر والقلق السياسي لايزال ضارباً أطنابه فيها على أثر الثورة العرابية ، والعسر المالي محيط بها من كل جهاتها ، وعداء الدول يكاد يسد عليه كل طريق ، ويأخذ منه بالخناق . وقد كان هذا مضيعاً جهداً كبيرا على المعتمد القديم يجد المعتمد الجديد نفسه في راحة من عنائه ، وفي غنى عن أن يضيع طرفة عين من وقته فيه »

« وامتاز أيضا عليه بأنه جاء البلاد ، وقد ترقت في كل مظاهر الحياة : في ماليتها وثروتها ، في عمرانها وحضارتها ، في معاملاتها مع الأجانب من كل قبيل ، وفي معارفها أيضاً — لا لأن سلفه عني بها من هذا الجانب كما ينبغي ، ولكن جرياً مع سنن الطبيعة التي تذهب بالأمم إلى التقدم البشري مالم يعقها عائق » .

« إن الأمة المصرية يوم جاءها اللورد كرومر كانت أشبه بطلسم من الطلاسم الهيروغليفية قبل حل معناها ، فعمل فيها ما عمل الفرنسيون الذين حلوا خطوطها القديمة قبل قرن من الزمان . وأما ماهي الآن ؟ فكتاب مفتوح يقرؤه السير غورست كلما جال ببصره فيه . فهي تنتظر من عميد قصر

الدوبارة الجديد ألا يسىء فهم كتابها بتحريف المحرفين ، ووشايات الواشين»
ثم وجه الشيخ حديثه إلى المعتمد الجديد قائلا له :

« إن الذى يهم انكلترا فى مصر ، وقد اطفأت نيران الثورة العرابية ، وأيدت العرش الخديوى ، ونظمت مالية البلاد ، وأصلحت طرق الرى . وبنت الخزان ، وفصلت نظامات الأعمال تفصيلا حسناً أن يبقى مركزها فى مصر ممتازاً على كل مراكز الدول الأخرى . فليكن شأنها كذلك على الرأس والعين . ولكن لا يلزم من هذا أن تبقى مصر فى حكم القاصر الذى لا يرشد ، والجاهل الذى لا يتعلم ، والعضو الذى لا يتحرك بعمل ، والفكر الذى يشله التعطيل ، والإرادة التى تخدر حتى تموت ! »

« فيأيها المعتمد الجديد — وقد عهدناك من الذكاء النادر على ما يعرفه لك الخاص والعام — لا نسألك أن تغير سياسة قررت دولتك الثبات والاستمرار عليها ؛ فإنما نطلب منك أن توفق — ما استطعت — بين مصلحة الاحتلال ومصلحة مصر . يكفى لهذا أن يكون لقصر الدوبارة رأى الناصح الصادق المرشد لخير الأمور . ولكن إذا انقلب ذلك الإرشاد أمراً فى كل شىء ، وتبدل ذلك الإشراف تداخلا فى كل شىء ، واحتقر عمل المصرى ، وفكره ، وإرادته فى كل وظيفة ، انقلبت صور الأشياء إلى عكس المطلوب منها ، وضاعت مصلحة مصر تحت مواطىء أقدام الأثرة الإنكليزية ضياعا تاما» .

* * *

إلى هنا انتهى حديث الشيخ على صفحات مؤيده فيما سماه (بمقالات قصر الدوبارة) . وقف الشيخ فى هذه الأحاديث موقف الناصح الأمين للانكليز ، واعترف لهم فى شجاعة محمودة بما قاموا به من الإصلاح . ولكنه كشف القناع فى الوقت نفسه عن أغراضهم من هذا الإصلاح ؛ وهى أغراض تتلخص فى أن يتعهدوا البقرة الحلوب بالأكل وبالنوم حتى يدر لبنها ، وتغفل

عن نفسها، ولا تدرى من أمرها شيئاً ما . وعلى هذا فلا محل للثقة بالانكليز، ولا أمل فى أن يقوم الانجليز بالتعهدات التى أخذوها على أنفسهم، والوعود التى قطعتها حكومتهم على نفسها .

وأما الأسلوب الذى كتبت به تلك الأحاديث فقد كان أسلوباً سياسياً أكثر منه أسلوباً أدبياً . والحق أن هناك فرقا واضحا بين هذين الأسلوبين . اعتمد الشيخ فى أسلوبه هذا على الدهاء وعلى المنطق فى محاسبة القوم . كما اعتمد فيه كذلك على الأمثلة المشتقة من الواقع الملموس، ومن الحياة المصرية الصميمة، ومن الحوادث السياسية التى لا جدال فيها . كما اعتمد على التقارير التى كتبها عاهل الاحتلال بيده، وعلى الأقوال التى نشرتها الصحف الموالية له باسمه، ويوحى منه ؛ صنيع الرجل السياسى المحنك ، لا الأديب الذى لا يعنيه أن تعى ذاكرته جميع هذه الأقوال والأخبار والأحداث والأفعال . وكم كان الشيخ صحافياً حقاً حين سلك فى الرد على التهم التى ألصقها الاحتلال بمصر طريق الشهود من المصريين والنزلاء من مختلف الوظائف والطبقات ، وقد أتى بأقوالهم جميعا على صفحات المؤيد ، لتكون برهانا على كذب الإنجليز، ودليلا على اختلافهم وبطلانهم . وكم كان الشيخ يتوخى الحيطة والاعتدال فى هجومه، ويضغط كثيرا على أعصابه ، ويعرض إعراضاً تاما عن أساليب القذف والسباب ، ويتجنب تجنبا ظاهراً طرق المهاترة وسخف القول ، ويتأدب مع الانكليز تأدباً نال منهم أكثر مما ينال منهم السباب ، أو القذف ، أو عبارات الغضب والتهور والقحة فى الرد . لا يكيل القول جزافا ، ولا يكتب عبارة ليس لها قوة إيحائها وتأثيرها فى نفوس الوطنيين من ناحية، ونفوس المحتلين من ناحية ثانية .

وما نحسب جبار الاحتلال — ونعنى به اللورد كرومر — حين يفكر فى أسلوب الشيخ على يوسف ، إلا مغالطا نفسه كل المغالطة ، وكاذبا عليها كل الكذب ، عندما طعن على الصحافة المصرية بقوله :

« ولست أذكر أنى قرأت فى جريدة منها مقالة واحدة صحيحة المادة ، حسنة الاستدلال ، مفيدة فى المسائل المالية أو المعارف أو النظام القضائى » .

أجل — لقد كذب كرومر على نفسه وعلى مصر والانكليز فى ذلك . فقد كان الأسلوب الصحفى الذى اختاره الشيخ على يوسف يمتاز بصحة المادة ، وحسن الاستدلال ، وعظم الفائدة فى التوجيه العام — لامحل للنزاع فى ذلك ولا موضع للريبة فيه .

. . .

ويرحل اللورد كرومر عن مصر ، ولكن يشاء بعض صنائعه من الأجانب النزلاء أن يقيموا له حفلة توديع فى دار الأوبرا الخديوية . وهناك يخطب اللورد خطبة الوداع .

وفيها يثنى على القائمين بالحفلة ، ويزعم لهم أن استقالته مبنية على أسباب صحية بحتة . ويذكر أصدقاءه الكثيرين فى مصر ، ومنهم الخديو توفيق ، ثم نوبار ورياض وبطرس غالى . ويقف وقفة خاصة عند مصطفى فهمى . ويذكر كذلك سعد زغلول فيقول « إننى لم أشتغل معه إلا من عهد قريب لكن معاشرتى القصيرة له قد علمتنى أن أحترمه احتراما عظيما . وإن أصاب ظنى أو لم أخطىء كثيراً فسيكون أمام ناظر المعارف الجديد — سعادة سعد زغلول — مستقبل عظيم للمنفعة العمومية » .

وانتقل اللورد من هذه المقدمات إلى الكلام عن المصريين ، فقال إنه سمع من الكثيرين أنهم قوم لا يعترفون بالجميل ، وأنه لا يرد عليهم إلا بكلمة قالها فيلسوف فرنسى ؛ وهى « إذا قاسى شعب آلام الظلم والضيم طويلا لم يكد يبقى له طاقة على شكر الذين يخلصونه منها » .

ثم قال : « وهب أنى اقتنعت — وما أنا بمقتنع مطلقا — بأن أبناء الجيل الحاضر لا يعترفون بهذه الحقيقة ، فإنى لا أزال أؤمل مع ذلك أن

نسلهم سيعترفون بها . إذ المعتاد أن أولاد العميان يكونون من المبصرين» .

ومضى اللورد بعد ذلك يوضح أن للإحتلال الإنجليزي غرضين : أحدهما سياسي . والآخر إداري .

فأما الغرض السياسي فالمحافظة على الاتفاق الودي بين فرنسا وانجلترا ، وهو الاتفاق الذي عقد بينهما سنة ١٩٠٤ .

وأما الغرض الإداري فالسعي لإيجاد حكومة بيروقراطية في مصر .

وانطلق اللورد بعد ذلك يتحدث عن الرقي الأدبي والعقلي الذي أعان عليه في مصر ، فعجب من المصريين كيف أنكروا عليه ذلك ، ثم قال :

«عجباً أيها السادة كيف يقال إن مصر لم ترق أدبيا ؟ هل الحكم فيها اليوم للكرباج وحده ، كما كان في الأيام الغابرة ؟ هل السخرة (أو العونة) باقية فيها ؟ هل لعنة الرق لاتزال حالّة عليها ؟ أليس كل شخص فيها ، من الأمير إلى الصعلوك سواء أمام القانون ؟ ألم ينشط الناس فيها إلى السعي والكسب ؟ أليس أصغر الناس فيها يجنون اليوم ثمار سعيهم ، ويتمتعون بما يحصلونه من عرق جبينهم ؟ أليس كل إنسان حراً — بل ربما ظن قوم أنه حر أكثر مما يجب أن يكون — في المجاهرة بآرائه ، والتعبير عما في ضميره ؟ وأن ماء النيل الذي يحيي الأراضي ، ويأتيها بالخصب يوزع على الأمير الخطير ، والفلاح الفقير بالقسط والعدل ؟ وإن اشتراك الحكام والمحكومين في المصالح أصبح أمراً مقرراً عند الفريقين قولا وعملا ؟ وإن الأموال التي تؤخذ من جيوب الذين يدفعون الضرائب ، والتي قلت كثيراً عما كانت عليه تصرف الآن في الوجوه النافعة للبلاد ، بعد ما كان معظمها يصرف على بناء قصور لا منفعة لها ؟ فإذا كانت هذه الأموال كلها ، وكان غيرها مما يمكنني أن أذكر منه كثيراً لا يعد ترقية أدبية ، فالحق يقال إني لا أعلم بعد ذلك ما المراد بقولهم آداب وأدبيات» ؟

ثم مر مروراً سريعاً بعد ذلك على التعليم الابتدائى ، وتعليم البنات ، والتعليم العالى وقال :

« ما هى حقائق الحالة المصرية الآن ؟

أولاها — أن الاحتلال البريطانى يدوم إلى ما شاء الله !

وثانيتها — أنه ما دام الاحتلال البريطانى باقياً ، فالحكومة البريطانية تكون بالضرورة مسئولة عن الخطة التى تجرى عليها الادارة المصرية ، لا تفصيلا بل إجمالا .

والنتيجة لهاتين المقدمتين أن نظام الحكومة الحالى دائم رغما عما يعتريه من العيوب التى لا يعترف بها أحد أكثر منى . وأظن أنه ليس فى الناس من هو أقدر على ضمان الدوام لهذا النظام من جناب السير ألدون غورست ! ».

ثم تحدث اللورد عن خلفه هذا ، وعن السياسة الكرومرية ، وعن حجته فى اتباع هذه السياسة . وختم كلامه بنصيحة أخيرة ، وهى :

« الاتحاد . ولا يصدق ذلك على الذين فى خدمة الحكومة فقط ، بل على جميع الذين يهمهم إدخال التمدن الحقيقى إلى هذه البلاد » .

* * *

كان على صاحب المؤيد أن يرد على هذه الخطبة التى ختم بها اللورد كرومر حياته فى مصر . ومن أولى من صاحب المؤيد بالرد على جبار الاحتلال فى الكلمة التى أعلن فيها عند مغادرته البلاد أن الاحتلال قائم فيها إلى الأبد ؟

أليس صاحب المؤيد هو الكاتب الأول ، والصحافى الأول ، والسياسى الأول فى مصر ، فى هذه الحقبة الذليلة من تاريخها ، والخطوة الأسيفة المؤلمة من حياتها ، وهى فترة الإحتلال البريطانى ؟

ويستطيع القارىء أن يجد نصاً لهذا الرد فى نهاية هذا الجزء من أجزاء الكتاب .

الفصل السابع

علي يوسف والمؤتمر المصرى

مضى عهد كرومر ، وخلفه داهية آخر ، هو ألدون غورست . وكانت سياسة هذا الأخير قائمة على قاعدة « فرق تسد » . وقد أفلح هذا الرجل فى التفرقة بين عنصرى الأمة ، وأوغر صدور الأقلية على الأكثرية ، وسلك فى سبيل ذلك من الطرق مالا يتسع المجال هنا لوصفه . بعد إذ أشرنا إلى بعضه فى التمهيد لهذا الجزء من أجزاء الكتاب .

وكان السيد على يوسف ينظر إلى نفسه، وينظر إليه الناس أيضا على أنه من المدافعين عن الإسلام ، بل الغيورين عليه إلى حد التعصب . وقد رأينا كيف دافع الرجل عن دينه دفاعا عظيما أمام الاحتلال ، وإن جاء دفاعه دائماً فى ثوب السياسة ، وفى مجال الرد على أولئك الساسة الذين كانوا لا يفترون عن إثارة الغضب فى نفوس المسلمين كلما سنحت لهم الفرص المواتية لذلك . وربما كان من تحمس الشيخ لدينه كذلك ما دعا إليه من وجوب إحتفال الحكومة المصرية والشعب المصرى بأول السنة الهجرية ، وذلك أسوة بالأوروبيين الذين يهتمون بالاحتفال بأول السنة الميلادية . والحق أن الشيخ على يوسف كان أول من دعا إلى إحياء هذه السنة القديمة فى مصر .

مهما يكن من شىء فقد كان على صاحب المؤيد أن يعالج بمكره ودهائه تلك السياسة التى أتى بها ألدون غورست . وظهر أثر هذا فى مقالاته التى كتبها فى مؤيده . وأما غيره من الكتاب الثائرين كمصطفى كامل ، والشيخ عبد العزيز جاويش ، فلم يكن لهم ما كان للسيد على يوسف من صفات المكر والدهاء ، ومحاورة الأعداء ، بل أخذوا يحاربون الاحتلال بأساليب الشدة والمقاومة ، وطرق السباب والمهاترة . وأتى المحتلون فدخلوا عليهم

من هذا الباب ، وأوقعوهم فى خصومة عنيفة ضد إخوانهم الأقباط . وانزلق أحد المسلمين — وهو الشيخ عبد العزيز جاويش — فى مقالات كثيرة لاذعة ، جاءت كلها سبابا فى الأقباط ، وقذفا لهم ، وإثارة لهذه العصبية الدينية التى أوقد نارها المحتلون ، وهيأوا الظرف المناسب لأمثال الشيخ جاويش ، لكى يزيدوا النار ضراما ، واللهب سعيراً .

وكان من أشد هذه المقالات التى كتبها الشيخ جاويش ضد القبط فى مصر مقالة له بعنوان (الإسلام غريب فى داره) . نشرتها اللواء رداً على مقال نشره قبطى يدعى فريد كامل فى جريدته (الوطن) ؛ وفحواه أن القبط فى مصر مظلومون ، وحقوقهم فى هذا البلد مهضومة .

وعلى أثر ذلك فكر الأقباط فى الدعوة إلى مؤتمر عام ، واختاروا له أسيوط من مدن الصعيد وانعقد هذا المؤتمر ، وشرح فيه الأقباط مطالبهم بصراحة تامة .

وإذ ذاك دعت الجرائد الوطنية ، وفى مقدمتها (المؤيد) إلى عقد مؤتمر عام ، واختاروا له ضاحية مصر الجديدة ، وأطلقوا عليه اسم (المؤتمر المصرى الأول) . وانعقد هذا المؤتمر فى غرة مايو سنة ١٩١١ . وكان رياض (باشا) رئيساً له ، وخطب فيه كثيرون من وجهاء المسلمين ، منهم السيد على يوسف ؛ وكان موضوع خطبته (التعليم فى مصر وحظ المسلمين والأقباط منه) والشيخ عبد العزيز جاويش ، وكان موضوع خطبته (الربا فى الإسلام) وإبراهيم (بك) الهلباوى ، ومحمود (بك) أبو النصر ، وفريد أبو شادى (بك) ، وطلعت حرب الذى ارتفع صوته بأول اقتراح اقتصادى وطنى ، دعا فيه يومئذ إلى إنشاء بنك مصر .

أشار الشيخ عبد العزيز البشرى فى كتابه المختار إلى هذا المؤتمر فقال : « فشت الفاشية — لا أعادها الله — بين المسلمين وإخوانهم الأقباط عقب مصرع المرحوم بطرس (باشا) . وكان ذلك فى سنة ١٩١٠ على ما أذكر .

وعقد الأقباط مؤتمراً مليّاً لهم فى أسيوط ، وأجابهم المسلمون بمؤتمر مثله فى القاهرة ، وأفضوا برياسته إلى أكبر رجل فى البلاد يومئذ ، وهو المرحوم مصطفى رياض (باشا) . واختار القائمون على هذا المؤتمر مثوى لاجتماعه (ملعب مصر الجديدة) .

ومضى الناس أفواجا فى اليوم المشهود ، واجتمع رجالات البلد ، لم يتخلف منهم إلا من انقطع به العذر . وتصدر الحفل رياض (باشا). وتعاقب الخطباء كابرا بعد كابر ، فأبلوا فى المقال أيما بلاء ، وأبدعوا فى الخطاب أيما إبداع ، حتى إذا كانت النوبة على الشيخ على يوسف أذكى بعض شبان الحزب الوطنى فى المحتشدين فى بهو الملعب طائفة من الفتيان من طلبة الأزهر وتلاميذ المدارس ، يسألون القوم ألا يصفقوا إذا خطب الشيخ ، ولا يظهروا أية إشارة تدل على الاستحسان . فوعدهم أكثر الناس بهذا ، وأصروا عليه مخاصين ، لما تنطوى صدورهم عليه من حقد ومن بغضاء .

وينبعث الشيخ يخطب — وهو كما قدمت لك غير خطيب — استغفر الله بل لقد انبعث يتلو مقالته فى أوراق بين يديه . وأنت حق خبير بالفرق الهائل بين أثر التالى وأثر الخطيب . وما إن مضى فى تلاوته بضع دقائق حتى أخذ الناس عن نفوسهم ، ونسوا ما عاهدوا أولئك الفتيان ، وعاهدوا أنفسهم عليه . فبرَوْا من التصفيق أكفهم ، وشققوا بالصياح حناجرهم تشقيقا . فكنت تسمع من هتافهم مثل الرعد القاصف ، وترى من اضطرابهم وتموجهم فعل الريح بالأغصان فى اليوم العاصف . وكان من أشدهم سَعَراً من كلام الرجل أولئك الفتية الذين كانوا يروضون الناس على ألا يلقوْا خطابه إلا بالجحود والإعراض .

وجُهد بالرجل ، فتعاود التلاوة عنه كل من أستاذنا ابراهيم (بك) الهلباوى ، والمرحوم أحمد (بك) عبد اللطيف المحامى الأشهر . وأنت كذلك خبير بأثر خطبة يتلوها فى الساعة غير منشئها ، ما أرخى إليها من قبل

نظرا ، ومع هذا فما برحت تزداد الفورة ، ويشتد بالقوم الفتون ! » [١] .

* * *

بدأ الشيخ على يوسف خطبته بقوله :

أيها السادة : سمعنا فى الأيام الأخيرة صيحة قامت من جانب فريق من المصريين ، تفرق بين المسلم والقبطى فى الكفاءة الذاتية ، وفى حظهما من العلوم والمعارف والتهذيب ، وتتحدث عنهما كأنها عنصران يعيشان بعيدين عن بعضهما [٢] فى الأوطان ؛ أحدهما متمدن متعلم مهذب مترب ، والثانى جاهل منحط ؛ وهو مع ذلك واقف حجر عثرة فى سبيل الفريق الآخر .

سمعنا هذه الصيحة عالية فى بعض صحف الإنكليز المأجورة للأقباط ، والمستمالة باسم المسيحية إليهم ، وسمعناها أيضاً فى صحف القوم ، وفى بعض الصحف الأفرنجية هنا ؛ حتى إن جريدة البروجريه نشرت فصلا طويلا بإمضاء كاتب قبطى فى ١٣ أكتوبر الماضى يقول فيه :

« إن طائفة الأقباط فى مصر أصبحت عاملا كبيرا من عوامل المدنية ؛ لأنها أولا مسيحية ، ولأنها ثانيا أحرزت مكانة عالية ، نسبة أهميتها منعكسة مع نسبة عددها ، سواء فى الثروة ، أو فى الحركة العلمية الخ .

ولقد أخذ الكاتب يسرد إحصائيات لفقها كما يشاء ، مظهرا الفرق العظيم بين الأقباط والمسلمين ، حتى لو أراد الأولون أن يكونوا معه أوصياء أو قواما على الآخرين ، أو لو ادعوا الأفضلية الراجحة فى قبضهم زمام أمور البلاد كلها فى أيديهم لكان حسنا . حتى ولو كان الأقباط وحدهم سكان وادى النيل وأصحابه ، لما كان ثمة حاجة للاحتلال الانكليزى فيه ، على ما يفهم من رأى هذا الكاتب » .

---

(١) الشيخ عبد العزيز البشرى — المختار — الجزء الأول ص ٢١٣ .

(٢) هذا خطأ فى تركيب الجملة وصوابه : كأنهما يعيشان بعيدين بعضهما عن بعض ، والشيخ على يوسف كغيره من كتاب القرن الماضى كثيراً مايقع فى هذا الخطأ .

واتخذ الشيخ من هذا الموضوع قضية من القضايا الهامة ، وجعل من نفسه طرفاً فى هذه القضية ، وأخذ يعالج وجهة نظره من الناحية الواقعية البحتة ، مبتدئاً فى ذلك بالتعليم فى مصر منذ الفتح الإسلامى .

فبدأ الشيخ يصور ما كان عليه المصريون قبل الفتح الإسلامى من الذل ، والاستعباد على أيدى الرومان والفرس واليونان والعرب العمالقة والبربر ، وغيرهم ممن تناوبوا حكم مصر ، وتركوا آثارهم فيها ، حتى فقد المصريون بسبب ذلك ملكة الحكم الذاتى ، وفقدوا العصبية الجامعة بينهم ، ووصلوا إلى حال من الانحلال ، فقدوا به أنسابهم ، ورحبوا من أجله بالفتح الإسلامى .

واستشهد الخطيب فى ذلك بنص لياقوت الحموى فى كتابه معجم الأدباء ، وآخر لمؤرخ قبطى ، برهن فيه أن النصرانية فى مصر اقترنت بالفوضى والانقسام ، بسبب المذهبيه التى أضرت بالبلاد . وهكذا أوحى الشيخ على يوسف إلى المستمعين بأن الإسلام إنما جاء مصر لينتشلها من هذه الفوضى .

« هذا ما كان عليه المصريون — ولا سيما النصارى منهم — من شقاء واسترقاق ، ونكد عيش قبيل الفتح الإسلامى . ولا حاجة لأن نسرد أقوال المؤرخين الذين مثلوا قبط مصر فى ذلك الحين تمثيلا يبكى الجماد ، ويفتت الأكباد . ولم يبق إلا أن نشير إلى ما أصبحوا عليه بعد الفتح الإسلامى السعيد » .

ثم مضى الشيخ يصور يوم الفتح ، ويصفه بأنه (اليوم الأبيض) على مصر . فقد « فكت به أغلال الأسر والعبودية والمظالم عن أعناق المسيحى واليهودى والوثنى على السواء » . وكان ذلك فى يوم الجمعة غرة المحرم سنة عشرين للهجرة . فجمع ذلك اليوم المبارك بين ثلاثة أعياد : عيد الجمعة ، وعيد رأس السنة الهجرية ، وعيد الفتح . وفيه كتب عمرو بن العاص كتاب الأمان لأهل مصر . ثم أشار الشيخ إلى سياسة عمرو فى مصر ، وهى السياسة التى أملت عليه

جباية نصف ما كان يجبيه الروم من الضرائب . كما أشار إلى مبدأ العدل والمساواة الذى أتى به الإسلام ، وهو المبدأ الذى تصوره بجلاء حادثة ولد لعمرو بن العاص ضرب بعض المصريين . فما كان من خليفة المسلمين عمر ابن الخطاب إلا أن أخذ للمصرى بحقه من الأمير وولده ، قائلا لهما هذه الكلمة المشهورة « متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » ؟

ثم لم يكن حظ مصر فى العهدين الأموى والعباسى بأقل من حظها فى عهد الخلفاء الراشدين .

ثم ضرب الشيخ مثلا على سعادة المصريين — والقبط منهم خاصة — بحادثة زيارة المأمون الديار المصرية ، وخروج مارية القبطية إليه تدعوه لزيارتها ، وتكرمه إكراما عظيما ، وتقول له « كل هذا من خير مصر ، ثم من عدلك يا امير المؤمنين » .

وعاش القبط فى كنف المسلمين على هذه الحالة من السعادة والوفاق ، حتى إذا طرأ على مصر حكام دخلاء فى الإسلام أصاب المصريين فى أيامهم ما أصابهم ، سواء فى ذلك المسلمون والمسيحيون واليهود وغيرهم من الطوائف الدينية التى تألف منها الشعب المصرى .

ثم مضى الشيخ يصور ارتفاع شأن المسلمين فى ميدان الحضارة فى غضون ثمانية قرون من تاريخ ظهور الإسلام . وكأنه أراد بذلك أن يعتذر عما أصاب الشرق عامة ، ومصر خاصة من انحطاط عام — لا بسبب الدين ، ولكن بسبب أهل هذا الدين ، موضحا أن هذا الانحطاط كان قد عم الدول الأوروبية فى القرون الوسطى ، ثم زحف على البلاد الإسلامية فى الشرق كله .

ثم مضى الشيخ كذلك يتساءل من هم مسلمو مصر ؟ ومن هم قبطها ؟ فأشار فى بعض الجواب عن ذلك إلى كثرة من أسلم فى مصر من قبط ، وغير قبط ، حتى لقد شكا والى مصر فى عهد عمر بن عبد العزيز من قلة الجزية لقلة من يدفعها من هؤلاء .

« وخلاصة هذا وذاك أن أكثر مسلمى مصر من أصل سكانها الذين كانوا أهلها قبل الفتح الإسلامى ، وأن الذين أسلموا من قبط مصر كانوا أكثر ممن ظلوا على النصرانية حتى الآن » .

ويخلص الشيخ من هذا إلى أن كثيرين من مسلمى مصر يلتقون مع القبط فى عنصر واحد ، وأن عدداً قليلا جداً من المسلمين كانوا ينتمون إلى القبائل العربية التى اشتركت فى الفتح الإسلامى ، ثم امتزجت بالشعب المصرى ، ونسيت أصولها العربية الأولى .

« ومن خواص مصر التى ميزها الله بها على سائر الأوطان والبلدان أن تتناسب فيها صور سكانها متى مرت عليهم الأجيال ، فلا تبقى لهم بعد ذلك إلا الصورة المصرية ، تحمل الذكاء المصرى ، والأخلاق المصرية الكريمة التى زادها الإسلام جمالا وتسامحاً » .

وهكذا اتحد عنصرا الأمة المصرية منذ القدم فى العادات والأخلاق وسائر المقومات . كما اتحدا فى اللغة التى تكلما بها منذ يومئذ ، وهى اللغة العربية الشريفة .

وحين بلغ الشيخ هذا الفصل من خطبته ملك على السامعين سمعهم ، واستأثر بكل اهتمامهم ، وخاطب عقولهم وقلوبهم فى وقت معا .

وبعد هذا العرض التاريخى للقضية العنصرية فى مصر رأينا الشيخ يلتوى فى كلامه بعض الالتواء ، فيذكر القبط فى لهجة لا تخلو من الشدة والعنف ، كما لا تخلو من الدهاء والمكر بأنه أولى بهم أن يذكروا أن بينهم وبين المسلمين فروقاً من نواحى شتى : منها ناحية الفرق الذى يكون بين الغالب والمغلوب . وناحية الفرق الذى يكون بين الأكثرية والأقلية ، وناحية الفرق الذى يكون بين قوم نسخت لغتهم لغة غيرهم ، وقوم محيت لغتهم من الوجود . وناحية الفرق الذى يكون بين قوم عليهم حماية غيرهم ، وآخرين يعيشون

فى كنف هذه الحماية . وناحية الفرق الذى يكون بين قوم لهم فى العلوم على اختلافها تاريخ قديم ، وآخرين لاحظ لهم من تلك العلوم .

« فاذا ما ادعى المسلمون على هذا أنهم يتوارثون عقولا أرقى ، ونفوسا أزكى ، واستعداداً أقرب لمعالى الأمور مما عند سواهم من ذلك فلهم الأدلة التى لاتدحض ، والبراهين التى لا تنقض قائمة على صحة دعواهم . . . إلا أن المسلمين لم يقولوا هذا ولا أقل منه ، واعتبروا أنفسهم والأقباط سواء فى كل شىء من مقومات الأقوام والأمم . ولكنهم لما سكتوا نطق غيرهم بالبهتان . وقال الأقباط فى جرائدهم : إن المسلمين جبناء ، فروا من دينهم الأصلى ، واعتنقوا الإسلام هرباً من ظلمه ، وإن المسلمين متأخرون ، بينما الأقباط قد سبقوهم فى النهضة العلمية الحديثة بمراحل . فهم أحق من أولئك بالقبض على أزمة أمور البلاد ، وإدارة أحكامها ، وإن لهم لذلك لمطالب شتى ، وهم لابد مدركون ما يطلبون » .

أرأيت إلى هذا الشيخ كيف أنحى على القبط باللائمة ، وأقام عليهم الحجة الدامغة ، وزعم لهم فى دهاء عجيب أن المسلمين سكتوا عن هذه الحجج والبراهين ، وسرهم أن يعيشوا إخوانا متحابين مع إخوانهم القبط فى مصر . ولكن هؤلاء مالبثوا — بتحريض من العدو الأجنبى — أن أثاروا دفين العصبية الطائفية ، وانزلقوا مع المحتل فى إيقاظ هذه الفتنة الدينية النائمة !

ألا — ما أخبث اليد التى حركت هذه الفتن ، وما أمكر الذئب البريطانى الذى كان سبباً فى كل هذه المحن التى أصابت الوطن ؟ !

لم يجد الخطيب بدأ بعد ذلك من الكلام عن تاريخ النهضة العلمية فى مصر الحديثة ، وراح يبحث فى حظ كل فريق من المصريين من هذه النهضة . مادام الأقباط قد ادعوا أنهم متفوقون على المسلمين فى هذا الميدان . فعرض الخطيب لحالة مصر منذ تولى حكمها محمد على ، وكان الأقباط إذ ذاك يشتغلون بمهنة الكتابة البسيطة فى دواوين الحكومة ، كما كانوا يشتغلون من الصناعات

اليدوية بما يكثر ربحه ، ويقل عناؤه وتعبه ، فلما رأى محمد على أن ينهض بالأمة ، وطفق يفتح معاهد التعليم على اختلافها كان الأقباط وحدهم هم الذين عافوا دور العلم ، وأعرضوا عنها إعراضا تاما . » وكأنهم رأوا ألا حاجة لهم بالعلم ، ما داموا قادرين على الكتابة البسيطة التى مبلغها وضع سطر تحت سطر ، وضم رقم إلى رقم ، أو طرحه منه أو ضربه فيه » .

وكذلك أمسك القبط يومئذ عن السفر إلى أوروبا فى البعثات العلمية التى كان قوامها المشايخ من الأزهر الشريف أو الشبان من أبناء العمد والأعيان ، وأبناء الشركس والروم والأرمن والسوريين وغيرهم .

والحق أن لهجة الشيخ فى ذلك الموضع من خطبته لم تخل من سخرية لاذعة . وماذا كان يريد القبطى من أوربا وعلمها ؟ إذا كان يكفى له أن يكون تلميذاً بسيطا لكاتب من أبناء طائفته فى الديوان ، أو لصراف القرية بضعة أشهر ، يتعلم فيها الخط ، ويعرف كيف يضع الرقم بجانب الرقم ، أو يحفظ صورة الفدان ، أو يعرف كيف يكتب خانات القروش والبارات بإزاء خانات الفدان والقيراط فى دفتر الصراف [١] ؟

ثم مضى الشيخ يستعرض تاريخ البعثات العلمية منذ نشأتها إلى زمانه . فأثبت أنه قد اشترك فى هذه البعثات كل الأجناس المتوطنة فى مصر على اختلاف أديانهم . ومع ذلك لم يشترك فى هذه البعثات قبطى واحد ، مع كثرة ما انفق على هذه البعثات كلها من الأموال ، وما بذلت حكومة محمد على من جهود . وقد بلغ عدد المبعوثين فى عهد محمد على تسعين ومائتين ، وفى عهد عباس الأول ثمانية وأربعين . وفى عهد إسماعيل خمسة وخمسين ومائة ، ليس فى هؤلاء جميعا من القبط غير ثلاثة . وفى زمن توفيق لم يزد عدد المبعوثين على أربعة وثلاثين ، لم يكن فيهم من القبط عدد يذكر . وفى عهد توفيق كذلك

---

(١) المؤتمر المصرى الأول . التعليم فى مصر وحظ المسلمين والأقباط منه ص ١٤ .

أرسل بعض الأغنياء أبنـاءهم إلى أوروبا على نفقتهم ، فبلغ الجميع ثلاثة وثمانين . ثم فى عام ١٩٠٧ بلغ عدد البعثات العلمية تسعا وخمسين بعثة .

« وإلى هنا يحق لنا أن نقول أن البعثات العلميـــة التى تلقت العلوم والمعـارف من أوربا ، وعادت إلى مصر ، وكان لها أعظم أثر فى تكوين مصر الحديثة كانت إسلامية محضة ؛ ليس بينها إلا نحو عشرين طالبا من الأرمن والروم والسوريين والأحباش ، وثلاثة فقط من الأقباط . وهؤلاء كانوا طلاب وظائف ، لا ناشرى علوم ومعارف ، ولا آخذين بيد مصر إلى ذرى الارتقاء العصرى الذى نشاهده الآن ، وإن كان دون ما نطلبه بمراحل » (١) .

« غير أنه فى العهد الأخير — يريد بعد سنة ١٩٠٧ — توجهت رغبات الأقباط كالمسلمين إلى هجرة الأوطان فى طلب العلوم .. وأصبح عدد البعثات العلمية المصرية الحاضرة خارج القطر المصرى أربعين وسبعمائة . وإذا شئت أن تعرف مقدار عـــدد الأقباط فى البعثات العلمية الموجودة الآن فى القارات المختلفة ، سواء على نفقة الحكومة ، أو على نفقة آبائهم ، فإنهم لم يبلغوا خمسين طالباً . أكثر من نصفهم فى كلية بيروت . وأكثر من ثلثهم على نفقة الحكومة . فنسبة الأقباط إلى المسلمين فى البعثات العلمية الحاضرة كلها لا تكاد تبلغ سبعة فى المائة » !

ولكن متى نهض الأقباط نهضتهم العلمية الحاضرة ؟

« بقى هؤلاء على طريقتهم القائمة على اكتفائهم بوسائل الكسب السهلة أيام محمد على وعباس وسعيد واسماعيل . ولكن من أواخر عهد هذا العاهل الكبير ، ثم فى عهد خلفه توفيق دخل بعضهم مدارس الفرير والجزويت ؛ حيث تعلموا تعلماً محدوداً . ولم يشتهر منهم على عهد المرحوم توفيق (باشا)

---

(١) نفس المصدر ص ١٦

كاتب ولا شاعر غير ميخائيل أفندى عبدالسيد منشىء جريدة الوطن ، ووهى (بك) ناظر المدارس القبطية » . ثم فى عهد الاحتلال أخذوا يباشرون نظم الحساب والكتابة فى سجلات الحكومة ، متبعين فى ذلك الطرق الحديثة التى لم يحسنوا منها شيئا .

وإذ ذاك « انتبهوا إلى أمرهم ، فظهر لهم أنهم فرطوا فى طلب العلم تفريطا مضيعا ، فرأوا أن يبتدئوا شوطهم من جديد » .

« وكان قد نبغ فيهم رجل عصامى رزقه الله ذكاء ممتازا ، وعقلا راجحا ، ونظراً بعيداً فى عواقب الأمور — ألا وهو الطيب الذكر بطرس غالى (باشا). وكان قد وصل من الرتب والألقاب إلى رتبة ميرميران الرفيعة فى عهد الثورة العرابية . وقد طلبها له عرابى (باشا) . ويروى أنه يوم نال هذه الرتبة السامية جمع إليه الرؤساء الدينيين من طائفته ، وكثيرا من أعيانها ، ووقف بينهم خطيبا فقال :

إن الأمة الإسلامية قد اغتصبت منا السلطة ، فأعينونى ببذل كل مجهوداتكم النافعة لأرد لكم ما فقدتم » .

« واتفق أننى قابلت ذلك الرجل الكبير فى مدينة فيشى سنة ١٩٠٣ . وكانت قد تأكدت المودة بيننا هناك . فعن لى أن أسأله بلطف عن مركز تلك الرواية من الصحة أو عدمها فتأوه تأوه السياسى المحنك وقال :

« أين نحن الآن — وقد اغتصبت السلطة من صاحبها بيد الاحتلال . فالواجب علينا جميعا أن نعمل لردها إلى صاحبها الشرعى — مولانا الخديوى المعظم » .

منذ ذلك الوقت أخذ عميد القبط فى مصر — يريد بطرس غالى — يرشح أبناء طائفته لوظائف القضاء فى المحاكم ، دون أن تكون لهم معارف تؤهلهم لذلك . غير أنه لم ير أن يزجهم فى ميدان المنافسة الجديدة من غير

أن يتسلحوا بسلاح العلم . فكان يجمع إليه أعيانهم بين حين وآخر ، ويبث فيهم روح الغيرة والتدافع ، ليعلم أبنائهم . وقد أحسن كثيرا فى استنهاض أبناء طائفته ، لأن فى نهوضهم نفعا كبيرا للبلاد ، مهما طوحت بهم الآمال والمطامع بعد ذلك . ومع هذا كله فقد أبطأوا كثيرا فى طرق أبواب المدارس العالية ، لتكون نهضتهم صحيحة » .

ثم أخذ الشيخ يدلل على إبطائهم فى هذه الناحية ، معتمدا فى ذلك على الإحصاءات كعادته . ثم قال :

«فأنتم ترون من هذا الملخص التاريخى العظيم للتعليم فى مصر أن الفضل كل الفضل للمسلمين فى ارتقاء مصر الحاضر للوظيفة الكبرى التى قامت بها وقد أحسنوا أداءها مدة قرن كامل ، سواء كان ذلك فى جلب أنوار المدنية والعلوم والمعارف من الخارج ، أو فى تأسيس المدارس وتنظيمها ، وتعليم أبناء مصر العلوم المختلفة ، مع اشتغالهم بالتأليف وترجمة الكتب النافعة . وأنهم الآن أساتذة المدارس النافعون المفيضون على الناشئة المصرية بركة العلوم والتربية ، ولم يشترك الأقباط فى أداء هذه الوظيفة السامية مع المسلمين ، بل كانوا عالة عليهم أولا ، ثم تلامذة لهم فى العهد الأخير » (١)

ثم فى لهجة خطابية شديدة مضى الشيخ يعلق على هذا التلخيص الذى أتى به حتى قال : ويخطىء من ينظر إلى نهضتهم الحاضرة بعين الحسد والبغضاء ، فإنما هم يتداركون فائتاً كان فواته مخلا بصفوف الناهضين بالأمة فى سبيل رقيها وحضارتها . ولكن من الواجب عليهم مع هذا ألا يجعلوا حركتهم العلمية السريعة الأخيرة كسلاح ذى حدين : أحدهما لتوثيق عرى التضامن فيما بينهم إلى حد الإفراط المضر الذى يسمى تعصبا ، والثانى لمحاربة إخوانهم

---

(١) المصدر السابق ص ٢١

المسلمين فى سبيل نيل الوظائف ، والاستئثار بمصالح الحكومة . فإن كلا الغرضين مضر ، مفرق ، ممزق لأوصال الجامعة [١] » .

ثم نظر الشيخ فى التعليم الحاضر ، وبحث فى حظ المسلمين والأقباط من هذا التعليم ، واعتمد على الإحصاءات الدقيقة فى كل ذلك . وانتهى إلى أن الأقباط أصبحوا « يتعلمون فى مدارس الحكومة — لا على نسبتهم العددية مع المسلمين ، ولا على نسبة ثروتهم فى البلاد — بل على مقدار ثلاثة أضعاف النسبة العددية ، وعلى الضعفين من نسبة ثروتهم الخاصة بهم » .

« وهناك مدارس كثيرة ينفق عليها من أوقاف المسلمين ، ويتعلم فيها أبناء الأقباط بجانب أبناء المسلمين كتفا لكتف ، وعلى نسبة عددية مرتفعة خلافا لنص شروط الواقفين . ولو أن الأقباط فكروا فى ذلك ماشنوا الغارة على الحكومة ، وعلى مجالس المديريات منذ صدر قانون لمجالس المديريات الجديد ، وأباح لها أن تجبى خمسة فى المائة من ضريبة الأطيان ينفق منها على التعليم فى الكتاتيب ، وقالوا : كيف تكون هذه الكتاتيب إسلامية تعلم القرآن ، ونحن ندفع حصة من هذه الضريبة التى تنفق عليها ؟ » .

وأقحم الشيخ نفسه وأقحم السامعين معه بعد ذلك فى تفصيلات طويلة حول المكاتب الأهلية ، وما حبس عليها من الأوقاف الكثيرة من البيت المالك ، ومن أعيان البلاد ، ومن الأطيان التى آلت إلى هذه المكاتب عن طريق انقراض بعض الأسر الإسلامية العريقة ، ونحو ذلك كثير . ثم فصّل القول تفصيلا بعد ذلك فى مدارس الأوقاف وكتاتيبها — وهى غير المكاتب الأهليـة التى تحدث عنها منذ قليل . وأحصى عدد التلاميذ الذين يتعلمون فى هذه المدارس . ثم قال :

« من هذا البيان ترون أن المسلمين تسامحوا كثيرا إلى حد أنه يحق

(١) المصدر السابق ص ٢٢ .

لغيرهم أن يرميهم بالغفلة ، ويحق للأقباط خصوصا أن يشكروا جميلهم معهم ، وأن يصيحوا فى وجوههم صيحة السخرية والاستهتار . وكيف لا يكون ذلك والحكومة تساعدهم على صيحتهم هذه ، فتقرر مع هذا كله أن يعلم الدين المسيحى للتلامذة الأقباط فى هذه المدارس التى ينفق عليها من أوقاف المسلمين » !

وما دام الإسلام دين الدولة الرسمى ، وذلك بحق الفتح ، ثم بحق الأغلبية ، ثم بحق السيادة العثمانية فلا ينبغى أن يدرس دين سواه فى جميع مدارس القطر المصرى !

وعلى ذلك فإن المؤتمر المصرى يلتمس تقرير ما يأتى :

أولا — فصل جميع مدارس المكاتب الأهلية ومدارس الأوقاف عن نظارة المعارف ، وجعلها إدارة قائمة بذاتها يراعى فيها تنفيذ شروط الواقفين .

ثانيا — إبطال تعليم الدين المسيحى من جميع مدارس الحكومة ، لأنه لا يجوز تعليم غير الدين الرسمى فيها ، كما هو متبع فى الممالك المتمدنة .

* * *

رحم الله الشيخ عليا فقد أجهد نفسه وعقله وقلمه فى سبيل الدفاع عن وجهة نظره فى هذه القضية العنصرية ولو بعث الشيخ من قبره لسره ما يجد عليه الأمة المصرية فى هذا العهد الأخير من التضامن الشديد ، والاتحاد الوكيد ، والاستمساك بالعروة الوثقى لا انفصام لها ، ونعنى بها عروة الوحدة القومية . لو بعث الشيخ من قبره لسره ذلك كل السرور ، ولعرف أن المصريين على يد زعيمهم سعد زغلول وضعوا لأنفسهم من بعده خطة حكيمة لمحاربة المحتلين ، وأن هذه الخطة قامت على مبدأ الوحدة الوطنية ، ووأد الفتن الطائفية ، والظهور أمام المحتل الغاصب صفا واحدا ، وجبهة واحدة .

الفصل الثامن

أسلوب السيد على يوسف

تحدث الخديو عباس الثانى عن صديقه السيد على يوسف فى المذكرات التى نشرتها جريدة المصرى [1] فقال :

« وكنت أريد أن تكون لى صحيفة قادرة على أن تثير الشعب ، وتقوده شيئا فشيئا إلى إدراك أكثر وضوحا للوطن وواجبات المواطن . فدعوت كاتبا من كتاب اللغة العربية كنت قد سمعت عن صفاته ومزاياه ، وهو الشيخ على يوسف . وكان قد تردد على مدرسة المعلمين ، وكان خارجا من الجامعة الأزهرية . وكان قد لفت إليه الأنظار ، إن لم يكن باتساع أفقه الفكرى ، فبحماسته فى المناقشة ، وبموهبة بجادل حقيقية ، وبقدرته المشهودة على هضم المسائل . وخاصة إذا ذكرنا أنه لم يكن يتكلم لغة غير العربية ، ولم يدرس إلا فى المساجد .

وكان الشيخ على يوسف — وهو من أهل الصعيد — يعرف عقلية مواطنيه ومطامعهم . وكان — رغم أنه تربى فى بيئة دينية — يعرف كيف يفرق بين واجبات الفرد نحو بلاده والاحترام الواجب للدين . وكانت سياسته تستند أحيانا على نفوذ الخليفة ، ولكنها لم تكن على الخصوص تركية إسلامية !

وهذه ألوان قد لا يحسن الوطنيون فى الوقت الحاضر إدراكها ، ولكنها فى بداية نشاطنا قد زادت من تأثير الشيخ على يوسف على الشعب .

---

(١) جريدة المصرى بتاريخ الأحد ١٣ مايو سنة ١

وكان الشيخ على يوسف يتخذ أحياناً مظهر مدافع عن الإسلام أكبر منه محركا للشعور الوطنى . وكان الغرض من هذا « التكتيك » هو أن تجتمع كل القوى المشتتة حول فكرة واحدة عامة وقوية ، وخلق عاطفة التماسك والترابط عند الجماهير ؛ وهى العاطفة التى لا يتم بدونها عمل . وفضلا عن ذلك فقد كان الشيخ على يوسف فى بداية نشاطه يتخذ على الأخص ستار الكثير من الشخصيات البارزة التى كانت تحمل إلى الجريدة ثمرة ملاحظاتها ، وخلاصة تجاربها فى حياة كرست للإدارة ، أو لتسيير العدالة فى طريقها السوى . وكان أكبر رجال البلاد اقتداراً ، وأعلاهم تميزاً يساهمون فى عمله هذا . وكان معروفا أن القصر يؤيد ذلك . فكان قارىء لسان حال التحرير يقطف من أعمدته زهرة الفكر المصرى .

وسرعان ماغدا (المؤيد) بفضل هذه الوسائل إحدى الصحف العربية الرئيسية ، يقرؤه الناس من طنجه إلى الهند ، ومن تركيا إلى زنجبار .

وقد أفلح على يوسف فى بعث الإحساس فى قلوب مواطنيه بشخصيتهم القومية ، لفرط ما استمع إلى الحديث عن علاقات مصر ، وعن ماضيها وحقوقها ، ولفرط ماناقش معاونيه الأعلام فى السياسة العامة ، وعلاقاتها بالموقف الراهن ، كما كان استحضاره للعصور الغابرة — التى كان حسن الإلمام بها يتيح له إيقاظ الذكريات المجيدة — يبعث فى نفوس قرائه الإيمان بالمستقبل .

لقد كانت تلك مرحلة أولى . وكان علينا أن نجتازها . كنت أرى أن من سوء التصرف أن ننقل شعباً نائماً — بدون فترة انتقال — إلى نور الأحداث الجارية الساطع ، وأن تزعجه يقظته ببهر مفاجىء .

وقد كان على يوسف بارعا فى استخدام الرباط الطبيعى القوى الذى يربط المصريين منذ عهد بعيد ، بارعاً فى تأسيس وطنية على أساس من تلك العاطفة العميقة الجذور . ولم يكن تعلمه الدينى يؤثر إلا قليلا على نزعاته

التحررية . وكان يرى أنه يقود أمته نحو الاستقلال ، وإن كان لايزال يتصور مصر كعضو فى الأسرة الاسـلامية الكبيرة التى كان يرى ألا انفصام لمصر عنها .

وطالما قلت لنفسى : إن مما يؤسف له بالغ الأسف أن يكون تعليم الشيخ قد باعد به إلى حدما عن الحضارة الأوربية وتاريخها . ولعله بما وهب من ذكاء ، وبغريزته الملهمة فى الحقائق السياسية كان قد غدا رجلا آخر ، وكان قد وسعه أن يمنح الحركة الوطنية طابعاً أكثر مطابقة للواقع والحاضر .

وكان مع ذلك قد زار أوربا ، وخاصة فرنسا وانجلترا وتركيا . ولكنه ظل مغلق النفس أمام مفاتن حضارة لم يكن يعرف غير واجهاتها ، وإمام إغراء البادشاه [1] الذى كان قد استقبله .

والحق أن الشيخ على يوسف لم يكن — يوما ما — رجل تركيا . وإذا كان فى بعض الأحيان قد أيد الخليفة . فانه لم يكن يعنى سلطان القسطنطينية وإنما زعيم الإسلام .

كان ذلك الرجل الذى قاد الرجال ، وأدرك معنى الأمة ، ومعنى الإخلاص مصرياً قبل كل شىء . وقد نجح — أيا ما كانت شخصيته وآراؤه — فى أن يستميل الرأى العام ، ويجمعه ، ويعلمه التفكير » !

* * *

وندع هذه المذكرات التى أمدتنا بأصدق صورة نعرفها لهذا الكاتب الصحفى ونعود بحياته من أولها . فنرى الشيخ عليا بدأ حياته أديباً أومتعاطيا للأدب، وذلك منذ كان طالبا يتلقى العلم فى أروقة الأزهر . ولكنه كان أديبا من طراز الأدباء المغمورين فى عصره ، لا لشىء إلا لأنهم يكتبون جميعا بطريقة قديمة، ولا يستطيعون أن يدركوا أن الأدب لفظ ومعنى وأسلوب وعاطفة . فهم إذن نسخ مكررة لكتاب واحد ، وصور كثيرة لنمط فرد .

---

(١) بادشاه فارسية معناها الملك. ولعله يريد بها هنا (المظاهر الملكية الرسمية) أو نحو ذلك.

وتألف للشيخ على يوسف من جهوده الأدبية الأولى كتاب ، أو ديوان سماه «نسمات السحر» . ولا بأس من أن نقتطف منه نموذجاً لشعره ، وآخر لنثره لمجرد المعرفة .

مدح الشيخ على يوسف فى شبابه السيد عبد الخالق السادات بقصيدة منها :

دمع بماء حشا الملهوف قد وكفا	بجفن صب على بحر الهوى وقفا
قد غادرته حُداة الظعن فى شغف	ياحادى الظعن رفقاً بالذى شغفا
ناشدتك الله أن تمرر بذى سلم	فاذكر أخلاى عهداً كان قد سلفا
وقل لهم قد تركت الصب ينشدكم	صِلوا صحيح غرام صبرُه ضعفا
إن لم تغيثوه وصلا عاد مشتغلا	يتلو مدائح عبد الخالق بن وفا
ففيه للنفس ترويح وتسليه	عنكم فياحبذا ما كان ملتحفاً
فذاك مولى له الفضل منزلة	عليا تسامت على السادات والشرفا
مولى تراه بثوب المجد مكتسيا	وبالسعادة مشهورا ومتصفاً
لا يأمن الدهر إلا من يلوذ به	والجار بالجار فى كل الورى عرفا[1]

ولا بأس بهذا الشعر يصدر من فتى فى مقتبل العمر ، لولا ما به من خطأ صرفى وآخر نحوى لا يخفيان على قارىء البيت الثالث .

وقال يهنىء رجلا برتبة المتمايز :

تهنيك نفسى ونفسى أهنى	فكل التهانى إلىّ ومنى
وإن قلت يادهر هنى أميرى	يقول وها أنا من لى يهنى
فناهيك أنى نلت المعالى	وحزت بمرقاه كل التمنى[2]

وقال فى غادة :

عجبت لقدها لما تثنت	بحلية حسنها تسعى لقلبى
طلبت دنوها منى فضنت	ولكن بعد ذا منت بقرب[3]

(١) نسمات السحر ص ٧١ .

(٢) نفس المصدر ص ٣٢ .

(٣) نفس المصدر ص ٥٣ .

وعلى هذا الغرار نظم الفتى أكثر شعره .

أما النثر فمنه ما كتب إلى بعض أصدقائه بعد غيبة طويلة [١] .

« يا أشواقى مالك كل وقت تعبثين بالمهج ، وأتواقى مالك قد أهديت إلى أحشائى الوهج ؟ وأنى تطيب النفس ولا أنس ؟

فياقلبي ما أجهلك بالمودة إذا لم تراع عهود الأودة أين اظهارك الصداقة والخلة [٢] فلا خلة ؟ وأين محالفتك الأحباب بالوفاء ، والصفوة وعدم الجفاء ؟ وأين انبعاثك إلى الوعد بالرسائل ، وسعيك فى توطيد الوسائل ؟

فكن طوع يد الهوى ، وأسير الجوى ، ولو طال النوى ، ووهت القوى ، جزاء تأخيرى رد رسائل الصديق الصدوق ، الأشهى من الصبوح والغبوق ، المنتبه إلى حفظ خلته ، وازدياد مودته . ونظرت إلى نفسي نظر الشانى ، ودعوتها إلى تقديم العذر عن هذا التوانى . فثارت — وهى خجلة الوجه — إلى وجه الاعتذار عند إقامة الأعذار .

ولكن علمى بما لدى السيد من المكارم ألجأنى إلى استعطاف المراحم . فعذرى — وخلتك — هو ماحل بجسمى من الفتور الشديد ، والضعف الذى ما عليه من مزيد ، زمناً لا ينقضى عن زمن التأخير ، وعفوك أوسع من أن يرد صاحب القلب الكسير ، وهو غير عسير . وإن كنت استحق الجفاء والعقاب . وها أنا انتظر ما يكون الجواب بعد هذا الجواب — والسلام » .

تلك صورة موجزة ، بل لمحة خاطفة من أدب هذا الفتى فى صباه لا تحتاج منا إلى تعليق بعد الذى بدا فى سطورها من ميل إلى السجع ، والجناس وتشبه بكتاب العصر ، وكتابة الرسائل الإخوانية على طريقة الشاعر فى قصائده الوجدانية .

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٣ .

(٢) الخلة بضم الخاء الصديق يستوى فيه المذكر والمؤنث .

ثم انتقل الفتى فجأة إلى عالم الصحافة ، وبدا للناس خلقا من طراز آخر . وأدرك يومئذ أنه إنما يمارس فناً غير فن الأدب . وكم كانت الأقدار سخية على هذا الرجل حين كشفت له فى نفسه عن هذه الموهبة ، وحين زودته فى الوقت نفسه بطائفة من الأخلاق التى لابد منها لصاحب هذه الموهبة .

وعندى أن الصحفى كالسياسى يجب أن يكون رجلا شديد اليقظة ، حاضر البديهة ، هادىء النفس ، قوى الأعصاب ، ماكراً ، بعيد الغور بقدر المستطاع ، لا ينفعل انفعال الأديب ، فيثور ثورة يظن أنه يقيم بها الدنيا ويقعدها ، ولا يعالج الأمور بسذاجة رجال الدين ، فيعتمد على النصح والإرشاد وحدهما ، ولا يعمل عمل الفنان ، فيضيع وقتا طويلا فى قطعة فنية واحدة يريد أن يخرجها . ولا يخاطب الناس من أبراج عاجية تبعث الرهبة فى نفوسهم ، وتباعد بينه وبينهم .

وكذلك الشيخ على يوسف . كان يعرف لنفسه غاية يسعى إليها ، ويرسم لنفسه طريقة يسلكها فى سبيل وصوله إلى هذه الغاية .

فأما الهدف فالأخذ بيد مصر والإسلام فى محنة هى أشد المحن التى مرت بهما ، وهى محنة الاحتلال . وأما الطريقة فمصانعة الانجليز . وأخذهم حيناً بالتشدد ، وأحياناً باللين ، وبذل النصيحة لهم فى شىء غير قليل من السخرية ، حتى يعرفوا للاسلام حقه من جهة ، ويسيروا على هدى من المؤيد سيراً حسناً فى انهاض مصر من كبوتها من جهة ثانية . ولعل مصر فى تلك الفترة العصيبة التى مرت بها لم تكن محتاجة إلى كاتب صحفى قدر احتياجها إلى كاتب من هذا النوع .

والخلاصة أن الرجل كان معتدلا قوى الحجة ، ناصع البيان ، قريب المأخذ . كل ذلك فى هدوء ، وسخرية ، ولين مس ، وإصابة هدف . ولعل

ذلك ما عناه بعض المستشرقين بقوله عن صاحب المؤيد — كما قدمنا — إنه استطاع أن يخدم مصر أكثر من عشرة رجال يمكن أن نسميهم لهداية الرأى العام الإسلامى وتكييفه .

فما هو الأسلوب الذى اصطنعه الشيخ على يوسف لأداء أغراضه الصحفية المختلفة ؟ وما خصائص هذا الأسلوب ؟ وما الصلة بينه وبين صاحبه، وبينه وبين الظروف المحيطة به ؟

« فى هذا المقام يجدر بى أن أنبه إلى شىء جدير بالانتباه : ذلك أن حسن البيان ، وجودة المقال لا ترجع فى جميع الأحوال إلى تمكن الكاتب من ناصية اللغة ، وتفقهه فى أساليبها ، وبصره بمواقع اللفظ منها ، واستظهاره لصدر صالح من بلاغات بلغائها ، إلى حسن ذوق ، ورفاهة حس ، بحيث يتهيأ له أن يصوغ فكرته أنور صياغة ، ويصورها أبدع تصوير . بل إن ذلك ليرجع فى بعض الأحوال ، وهى أحوال نادرة جدا — إلى شدة نفس الكاتب ، وقوة روحه . فقد لا يكون الرجل وافر المحصول من متن اللغة ، ولا هو على خط كبير من استظهار عيون الكلام ، ولا هو بالمعنىّ بتقصى منازعات البلاغات . ومع هذا القدر يرتفع بالبيان إلى ما تتقطع دونه علائق الأقلام . ذلك لأن شدة نفسه ، وجبروت فكرته تأبى إلا أن تسطو بالكلام، فتنتزع البيان انتزاعاً . ولعل فى بيان السيد جمال الدين الأفغانى — وهو غريب عن العربية ، وقاسم (بك) أمين — وهو شبه غريب عنها ، أبين مثال على هذا الذى نقول . ولقد يعجب القارىء أشد العجب إذا زعمت له أن المرحوم حسين رشدى (باشا) — وكان رجلا قل أن تطرد على لسانه ثلاث كلمات عربية متواليات — لقد كان أحياناً يرتفع بالعبارة إلى ما يتخاذل من دون جهد أعيان البيان .

والآن أستطيع أن أزعم أن الشيخ على يوسف — على أنه تعلم فى الأزهر ، وقرأ طرفا من كتب الأدب ، واستظهر صدرا من مظاهر البلاغة

فى منظوم العربية ومنثورها — إلا أنه لم يكن مدينا فى بيانه لشىء من هذا، بقدر ما كان مدينا لشدة روحه وسطوة نفسه . وإنك لتقرأ له المقال يخلبك ويروعك ، وتشعر أن أحدا لم ينته فى بيانه منتهاه . ثم تقبل على صيغه تفتشها وتقرها ، فلا تكاد تقع على شىء من هذا النظم الذى يتكلفه صدور الكتاب . وبهذا أنشأ الرجل لنفسه أسلوبا ، أو على الصحيح — لقد خط قلمه القوى نهجا من البلاغة غير ما تعاهد عليه الناس من منازع البلاغات [١] .

وشىء آخر يجدر بنا كذلك أن ننبه عليه قبل الإجابة عن هذه الأسئلة ، هو هذه الملاحظة الهامة فى تاريخ الصحافة وخلاصتها ؛ أن جريدة المؤيد تعتبر من أولى الصحف التى ظهرت على أنها يومية منذ بداية صدورها . وإذا قلنا صحيفة يومية ، فقد قلنا كل شىء عن أسلوب السيد على يوسف فى كتابة المقال الصحفى . ذلك أن الفرق كبير دائما بين كتّاب الصحف اليومية ، وكتاب المجلات الأسبوعية والشهرية . وهو فرق يأتى من الزمن الذى يتاح لكاتب المجلة الأسبوعية أو الشهرية ، ولا يتاح لكاتب الصحيفة اليومية .

والزمن عنصر هام فى هذه القضية الأدبية ، ولا ينبغى للناقد أو المؤرخ أن يغفل عنه أو يهمله . وفرق كبير بين رجل صحفى يلتصق إلى مكتبه فى الصحيفة ، لا يبرحها فى وقت من الأوقات ، ورجل أديب لا يجلس إلى مكتبه ، أو يضع القلم بين أصابعه إلا متى أراد .

والآن يصح لنا أن ننظر فى أسلوب الشيخ على يوسف فنرى أنه متميز بصفات ؛ منها على وجه الإجمال :

أولا : شيوع الروح المنطقية فى الكتابة . ولهذه الروح المنطقية فى عبارة الشيخ على يوسف مظاهر عدة :

---

(١) الشيخ عبد العزيز البشرى . المختار — الجزء الأول ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

منها — تأليف الجمل على شكل مقدمات ونتائج ، تبدأ المقدمة بقوله « ولما) أو (ولما كان) وفى النتيجة دائما يكون الجواب . ومنها — أعنى من مظاهر الروح المنطقية فى هذا الأسلوب — شيوع المناقشة فى غضون المقال . وهى مناقشة على طريقة الأزهريين « أو طريقة الكتب القديمة » . وتمتاز هذه الطريقة بقولهم دائماً : فإن قلت كذا . قلنا كذا . وهى كثيرة الدوران فى كتبهم ودروسهم وأحاديثهم . ثم من مظاهر الروح المنطقية فى هذا الأسلوب إكثاره من التقسيمات ، ومن التعريفات ، ومن التلخيصات الخ .

وقد مرت بك أمثلة كثيرة من هذا الأسلوب المنطقى ، كما فى مقالة له بعنوان (ما هى الحكومة النيابية) وقد ذكرنا طرفا منها .

ولعل أروع مظهر للروح المنطقى فى أسلوب ذلك الصحفى إتيانه بالحجة القوية ، يدمغ بها حجة خصمه ، والدليل الواضح يفحم به معارضيه . وحين استعرضنا مقالات قصر الدوبارة وقعنا على شىء غير قليل من هذا النوع .

ولعل من مظاهر الروح المنطقية أيضاً فى هذا الأسلوب عظيم اهتمام الشيخ فى أكثر الأحيان بكتابته المقدمة والخاتمة .

ولعل آخر ما نراه من مظاهر هذا الروح المنطقى فى كتابة السيد على يوسف هذه الخاصة التى نشرحها فى الأسطر التالية :

ثانياً : اعتماد الكاتب فى أكثر الأحيان على أسلوب الاستفهام الإنكارى الذى يشيع فى كتابته دائما عقب فراغه من مناقشة الرأى السياسى أو الاجتماعى الذى يعرض له . وفى مثل هذه الحالات يشعر الكاتب عادة برغبته الملحة فى استكمال حجته عن هذا الطريق ، فيندفع فى سيل من هذه الأسئلة الاستنكارية ، يلقى بها فى وجه محدثه ، أو فى وجوه خصومه

الذى يحملهم على الاتفاق معه فى الرأى ، ليرسم لهم الطريق الصحيح الذى ينبغى أن يسلكوه ، حتى يضمنوا لأنفسهم النجاح والسداد .

والأمثلة على هذا كثيرة جداً فى كل مقال لهذا الكاتب الصحفى الكبير لاتحتاج فيها إلى إعادة التمثيل .

ثالثاً : اعتماد الكاتب على الواقع المحسوس يشتق منه الدليل الذى يسوقه على صحة رأيه فى مسألة من المسائل ، وتنكبه طريق الأدباء المعروفين بالتسلق على كلام من سبقهم من مشهورى الرجال ؛ وذلك فى ميدان الشعر أو الحكمة أو الشعر أو القصص أو القرآن. ولاشك أن ذلك أثر من آثار عقل واقعى قبل كل شىء، وأثر من انغماس الشيخ فى الحياة المصرية التى يراها ماثلة أمامه دائماً ، بخيرها وشرها . ثم لاشك أيضاً أن هذه قاعدة عامة من قواعد الكتابة الصحفية التى عرف بها هذا الرجل . فهو يشتق دليله من الحوادث اليومية ، لامن بطون الكتب الأدبية أو الفلسفية ، مع قدرته على الوصول إلى هذه الكتب ، والانتفاع بها ، والاستشهاد بكلام ذويها ، ومتى أراد .

وهكذا يجد الشيخ أن فى الواقع الملموس ما يكفى دائماً لإقناع القارىء بوجهة نظره . وهنا يبلغ الحذق بالكاتب حداً يشعر معه القارىء أنه إنما يقرأ وجهة نظره هو ، لا نظر صاحب المقال .

وليس معنى ذلك أن الشيخ أعرض إعراضاً تاماً عن إيراد الحكم أو الحكايات والشعر أو الأمثلة الخ . بل معناه أنه كان مقلاً فى ذلك إقلالا لا أخرجه من دائرة الفن أو محيط الأدب الى محيط الصحافة . وفى هذا المحيط الأخير كان له من الاستشهاد بأقوال الساسة من العرب ، أو الساسة من الأوروبيين ما يحتاج إليه فى تقوية كلامه ؛ لا يعنيه شىء وراء ذلك .

أنظر إلى قوله «لقد ذهب المارشال ناى من قبله وقال للويس الثامن عشر سآتيك بنابليون فى قفص من حديد ، ولكنه لم يفعل . وجناب اللورد قال

لملكته وحكومته وأمته : سآتيكم بمصر تحفة راضية خاضعة ، ولكنه لم يفعل .

وإلى قوله : رأى بعض الحكماء رجلين لا يفترقان ، فسأل عنهما ، فقيل إنهما صديقان . قال فما بال أحدهما غنى ، والآخر فقير ؟ ونحن نقول : فما بال اللورد كرومر يريد بنا أسوأ المذاهب فى الوطنية الخ .

تلك العبارات وأشباهها أمثلة من اقتباس الرجل ، أو من اعتماده على كلام غيره متى حدثته نفسه بشىء من ذلك . وقلما تحدثه .

رابعاً : مساواة اللفظ للمعنى . والحق أن الشيخ كان من أولئك الكتاب الذين لا يؤمنون بالمبالغة فى القول ، أو الإسراف فى اللفظ ، والإطالة فى الكلام ، أو الإسهاب فى العبارة حين لا حاجة إلى هذا الإسهاب .

لا يحب أن يكيل الألفاظ كيلا بغير حق . ولا أن يلقى القول جزافا لغير غاية وإنما كان يعطى لكل معنى حقه من الألفاظ التى يكون بحاجة إليها . ولكل قضية حقها من الدفاع الذى تتطلبه .

وليس شك فى أن ذلك أتى من جهتين :

أولاهما : ميل الرجل إلى الاعتدال وتجنبه السخط والفحش فى المقال .

والثانية : شغله بالمعانى ، واحتفاله بالأفكار التى يحرص على نقلها إلى قرائه من الوطنيين والأجانب على السواء .

وأكبر الظن أن الشيخ حين كان يهدف فى مقاله دائما إلى إقناع الإنجليز بنوع خاص كان يقدر فى نفسه تماماً أن هؤلاء لا يحفلون بالمقالة حتى تكون صحيحة المعنى ، حسنة الاستدلال ، موجهة فى المسائل المالية ، أو المعارف ، أو النظام القضائى ، والنظام الإدارى — على حد قول كرومر نفسه كما تقدم .

هكذا كان الشيخ على يوسف الصحفى الوحيد الذى أفاد من توجيهات

خصومه ، وانتفع بنقدهم ، وحاربهم بسلاحهم فى ميدان الكفاح الصحفى ، والكفاح السياسى .

على أن أسلوب الشيخ قد يميل أحيانا إلى التكرار المقبول ، انسياقا منه فى لهجة جدلية ، أو لهجة خطابية يراد بها التأثير على نفس القارى. ؛ كما فى قوله فى بعض مقالات قصر الدوبارة قاصداً اللورد كرومر : إساءات خالدة ما بقيت تقاريره فى الوجود . إساءات لا تقف عند حد القراءة ، ولكنها تثبت فى نفوس الأوربيين أن المصريين على ما وصفهم به اللورد الخ .

وكما فى قوله فى بعض تلك المقالات :

«لو كنت اللورد كرومر» وتكراره هذه العبارة فى بداية خمس أو ست فقرات من فقرات المقال الخ .

خامسا : زهد هذا الصحفى الكبير فى البديع والمحسنات ، بل زهده فى هذا الذى لا يخلو منه نثر فنى مهما كان قائله ، ونعنى به التقسيم الموسيقى للكلام . أو تساوى أكثر العبارات من الناحية الموسيقية الخالصة التى يراد بها إراحة أذن القارى. .

وإذا ذهبت تسأل : لم أعرض الشيخ عن كل ذلك مع قدرته عليه متى أراد ، وجدت أسبابه فى أمور منها :

(ا) اهتمام الشيخ اهتماماً قوياً بالمعنى الذى يدور فى ذهنه ، صنيع الرجل السياسى المسؤول عن كل عبارة ينطق بها فمه ، أو إيماءة تتحرك بها يده .

(ب) نظر الشيخ إلى أنه إنما يكتب فى جريدة يومية ، لا جريدة أسبوعية ؛ كما كان يفعل المويلحى وغيره من الصحفيين قبله . والجريدة اليومية لا تتيح لصاحبها متسعاً من الوقت فى الأسلوب . والتأنق فى التعبير . والمبالغة فى التنظيم والترتيب .

(حـ) عناية الشيخ دائماً بالرد على مزاعم الأوروبيين فى صحفهم المختلفة

وتقاريرهم المتباينة . وقد صرفه كل ذلك عن العناية باللفظ ، أو توخى الجمال أو الحسن ، إلى إتقان الفكرة وتوضيح المعنى ؛ غير مبال بالمحسنات البديعية التى قد تعبث بالمعنى فى ذهن القارىء العادى ، وتعبث به فى ذهن القارىء السياسى ، وخاصة إذا كان هذا القارىء أجنبيا لا علم له باللغة العربية .

(د) على أن الرجل كان — كما عرفنا — شديد المكر معقد الشخصية ، بعيد غور النفس . وقد جعله كل ذلك لا يتحمس فى كتابته ويثور ، ولا يندفع فى مقاله ويتهور ، كما يفعل الشبان الذين فطروا على الهياج والتمرد ؛ وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا .

وهكذا عدل الشيخ عن المحسنات اللفظية التى لا تساوق شخصيته كرجل صحفى وسياسى فى وقت معاً . ولا ننسى مع ذلك أن الشيخ علياً لم يكن خطيبا ، ولا كان يصلح للخطابة . ولم يكن محاضراً ، ولا من أصحاب المنابر الخطابية العامة . وفى نظرى أن ذلك سبب من أسباب زهد الرجل فى تنغيم الكلام ، أو فى التقسيم الموسيقى للعبارات . ولو أن الشيخ كان من فرسان الخطابة ، أو عشاق المحاضرة لأثر ذلك فى أسلوبه هذا النوع من التأثير ، على النحو الذى نراه فى الخطباء ، والمحاضرين ، والممثلين .

سادساً : إيثار هذا الشيخ الأساليب العصرية ، والعبارات المتداولة ، والألفاظ الجارية على الألسن ، والمعانى الدائرة فى الأذهان . كل ذلك فى غير تبذل أو إسفاف ، أو هبوط بالأسلوب إلى مستوى العامة ، أو نزول به إلى الدرجة التي لا ترتضيها الخاصة .

ونحن نعرف أن هناك فى كل لغة نوعين من الأساليب :

أولهما : نوع يميل فيه الكاتب إلى التشبه ما أمكنه بالقدماء حين تغريه جزالتهم فى الألفاظ ، أو حين يجذبه إليهم تعمق فى الفكرة ، أو حين تستهويه منهم صورة بيانية حسنة ، أو تنميق وتجميل للكلام على نحو ما .

والآخر : نوع لا يحب كاتبه التقيد بالقدماء ، ولا يعنيه أن يتشبه بهم

فى أناقتهم ، ولا يرغب فى استعارة شىء من بضاعتهم ، ولا يميل إلى التسلق على بعض كلامهم .

والنوع الأول من أنواع الأساليب إرستقراطى المنزع ، موكل بالحال ، يتبعه أنى كان . والنوع الثانى عصرى المنهج يعيش فى الواقع الذى وجد فيه . ولكل من النوعين حظ من الحسن على كل حال .

وقد كان الشيخ على يوسف — فى ميدان الصحافة — من أولئك الذين يؤثرون الضرب الثانى . ومن ثم عرف أسلوبه (بالأسلوب السياسى) ؛ لأن فيه من الميزات السياسية أكثر مما فيه من الميزات الأدبية .

أجل — عرف أسلوبه (بالأسلوب السياسى) حين عرف أسلوب مصطفى كامل (بالأسلوب الحماسى) . وهذا الأخير أدنى إلى الخطابة منه إلى الكتابة والصحافة .

وبينما كانت المؤيد تمثل الأسلوب السياسى ، إذ باللواء — كما سنرى إن شاء الله — تمثل الأسلوب الحماسى . وهكذا أمست كل واحدة منهما تتمم الأخرى فى ميدان الحركة القومية ، والصحافة الوطنية .

(فاللواء) كما قلنا يثير الجماهير ، ويهيج الشعب ، ويبعث الحقد فى النفوس ، ويوقظ الكراهية فى القلوب .

(والمؤيد) ينير الطريق ، ويناقش المسائل فى هدوء ، ويعلق على الحوادث تعليقاً حكيما دقيقاً ، وينتقد ولاة الأمور فى الصميم .

أفليس من حق الشيخ على يوسف بعد كل ذلك أن نقول عنه إنه زعيم المدرسة الحديثة فى الصحافة المصرية ، لا ينازعه هذه الزعامة منازع ، ولا ينكرها عليه منكر ؟ ويستطيع كل ناقد أن يجحد فضل الشيخ على يوسف من أية ناحية ، ولكنه لا يستطيع مطلقاً أن يسلبه هذه الزعامة ، أو يجرده من هذه الموهبة .

وهكذا نرى الفرق واضحاً بين الشخصيتين اللتين تحدثنا عنهما فى جزأين من أجزاء هذا الكتاب ، وهما شخصية المويلحى ، وشخصية على يوسف : فأما الأول فرجل له فى الأدب جولة . وحين احترف الصحافة اتخذها مجالا لإظهار أدبه وفنه ، فكان يحرص على الأخذ من القرآن ، وعلى الاستشهاد بكلام الشعراء ، وعلى الإتيان بحكم الفلاسفة من العرب والأوروبيين على السواء ، وعلى إتقان الصور البيانية ، بل اللوحات الفنية التى يقدمها للقراء .

وأما الشيخ على يوسف فقلما نجد عنده شيئاً من ذلك . وهو إذا اتجه بذهنه إلى معنى من معانى القرآن ، أو فكرة من أفكار الكتاب ، أو أسلوب من أساليب الشعراء أتى بهذه الأشياء كلها بسرعة عجيبة ، وعدم اكتراث بالأساليب أو القوالب الأدبية التى وضعت فيها .

ومع ذلك فقد مر بنا كيف أن لبعض الأدباء قدرة ما على العبث بهذه القوالب ، ولكنه عبث فنى فى ذاته ، يقبله الذوق ، ويستريح له الخاطر ، وتتلذ به النفس . وأما عبث الشيخ على يوسف فليس فى شيء من كل ذلك .

* * *

توفى للشيخ ابن له فى سنة ١٩٠٨ . فرثاه فى (المؤيد) بكلمتين قال فى أولاهما :

فى ذمة الله يا عمر

فقد صاحب هذه الجريدة الساعة السادسة بعد ظهر أمس ولده الوحيد « عمر يوسف » فى الحادية عشرة من عمره ، بعد مرض قليل الأيام ، كثير الآلام ، فإلى الله مآبك يا عمر ، وإلى الله مآبك أيها الزهر الذى قطفه الموت فى أزكى شذاه .

إلى الله مآبك أيها الكبد الذى يمشى على الأرض ، ثم هوى إلى حفرة أبدية يسمونها القبر ، ولو استطعنا لكان فى القلب .

بل هناك قلبان أولى بهما أن يكونا قبره : قلب والده الحزين ، وقلب أمه الثكلى .

قبل عشر سنوات وأربعة أشهر ، أى فى ١٠ رجب سنة ١٣١٦ امتلأ بيتنا فرحا وسرورا ، وأفعم قلبانا بشرا وحبورا لمولد عمر . فلا غرو أن يمتلىء اليوم هذا البيت ، وكل قلب فيه غما وحزنا لفقده ، والحياة قصاص .

إلى الله مآب كل وديعة فى هذه الحياة ، ولابد يوما أن ترد الودائع ، فالوداع الوداع ياريحانة القلب ، وفلذة الكبد التى لا أجد على فراقها سلوا إلا التأسى بما ودع به رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنه ابراهيم عند ما فاضت روحه :

« إن العين لتدمع ، وإن القلب ليخشع ، ولا نقول إلا مايرضى الرب ، وإنا على فراقك ياابراهيم لمحزونون ، وإنا لله وإنا إليه راجعون » .

وماذا يفعل الفاقد لكل حول وحيلة أمام ذلك الخالق ذى الجبروت ، الذى تحطم قدرته كل قوة ، وتفقد المحتال كل حيلة . فإذا لم يكن أمامنا — وقد عظم المصاب ، وسحق كل قوة فينا — إلا الصبر ، فلنصبر طوعا أو كرها ، والله ولى الصابرين . (انتهت الرسالة)

ومن معانى الشيخ على يوسف هذه نظم الشاعر الكبير اسماعيل (باشا) صبرى أبياتا فى رثاء عمر ؛ قيل إنه ارتجلها يومئذ ، ونشرت هذه الأبيات فى المؤيد وهى :

ياماليء العين نورا والفؤاد هوى	والبيت أنسا . تمهل أيها القمر
لا تخل أفقك يخلفك الظلام به	والزم مكانك لايحلل بك الكدر
فى الحى قلبان باتا ، يانعيمهما	وفيهما - إذ قضيت - النار تستعر
وأعين أربع تبكى عليك أسى	ومن بكاء الثكالى السيل والمطر
قد كنت ريحانة فى البيت واحدة	يروح فيه ويغدو تحتها العطر

فارحل تشيعك الأرواح جازعة في ذمة الله بعد القبر ياعمر

ودع عنك أبيات صبرى رغم رقبتها ، وأصابتها جميع المشاعر التى ازدحمت فى قلب هذا الشيخ ، وانظر فى هذه السطور القلائل التى كتبها الرجل مرة أخرى فى رثاء ولده .

ففى اليوم التالى نشر الشيخ فى مؤيده الكلمة الثانية بعنوان :

من الدنيا إلى الآخرة

فى الساعة الثالثة بعد ظهر أمس شيعنا جنازة عمر من الدار الدنيا إلى الدار الآخرة .

خرجنا من الدار التى ولد وشب فيها ، فألفها منذ كان طفلا يحبو ، إلى أن صار فتى يمشى بها مشية الخيلاء . من الدار التى كان يضيق فناؤها على سعته به ، فيذهب إلى الشارع ، وإلى المتنزهات ، تحيط به الخدم من أن يصيبه أذى — إلى ذلك اللحد الضيق الذى لا يستطيع أن يعيش فيه إنسان ساعة من الزمان ، ولكنه مع ما به من وحشة ووحدة أوسع المنازل بعد الموت ، وآنسها لمن يلقى الله طاهراً مثل عمر .

خرجنا به . لا كما كان يخرج فى عربته إلى المدرسة ، يصحبه خادمه ، بل محمولا على الأعناق ، مودعا بجماهير المشيعين ، فى سرير كما تزف العروس مغشىّ بالحرير الأبيض ، ومجلل بالزهور . ولكنه كان زفافا محزنا ، يعلوه جلال الموت خطيبا يصيح « الصبر أجمل » والناس يصيحون .

سار مشيعوه جميعا مطرقى الرؤوس ، كأن عليها الطير ، وتخاف أن يطير ، إلا رأسين كانا يلتقيان الى النعش بنظرات الملهوف : رأس والده الحزين فى مقدمة الجنازة ، ورأس والدته الثكلى فى مؤخرتها . فيهما أربعة أعين هامية . ودونهما قلبان مستعران ، ومهجتان زافرتان ، وكبدان واجفان . لولا الصبر لصارا أوارا . ولذابا استعارا . والصبر أحمد العواقب فى مثل

هـذه المصائب ؛ لأنه فضيلة يتحلى بها ذوو الشمائل الفضلى . ولكنه أيضاً منتهى ضعف المخلوق .

* * *

فانظر فى هذا الإيجاز الذى توخاه الشيخ ، بل المساواة التى أشرنا إليها على أنها سمة من سماته فى الكتابة . ثم انظر إلى طريقة الرجل فى الاستعارة من كلام الشعراء ، فإنها طريقة موجزة شديدة الاختصار ، ولولا أن العبث بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يجوز على هـذا النحو لما وجدنا الحديث برمته فى هذا الرثاء .

وتأمل معى رجلا فى مكان الشيخ على يوسف ، مات وحيده ، وكان الرجل من الكتاب أو الشعراء ، أو من الفلاسفة الحكماء. تأمل معى رجلا فى مكانه من هـذا الطراز ، ألا تراه يكتب فى هذا المجال مقالا غير هذا المقال ؟ ألا تراه يميل إلى الاستشهاد الكامل بكلام المعرى حيناً وأبى الطيب المتنبى حيناً ، وابن الرومى حيناً ، وبالقرآن حيناً ، وبأقوال الفلاسفة حيناً وهكذا؟

لا شك أن المجال هنا أدبى لا صحفى . ومع ذلك فقد ظهرت خصائص الأسلوب الذى عرف به الشيخ على يوسف فى الأدب ، فإذا هى قريبة من خصائصه فى الصحافة .

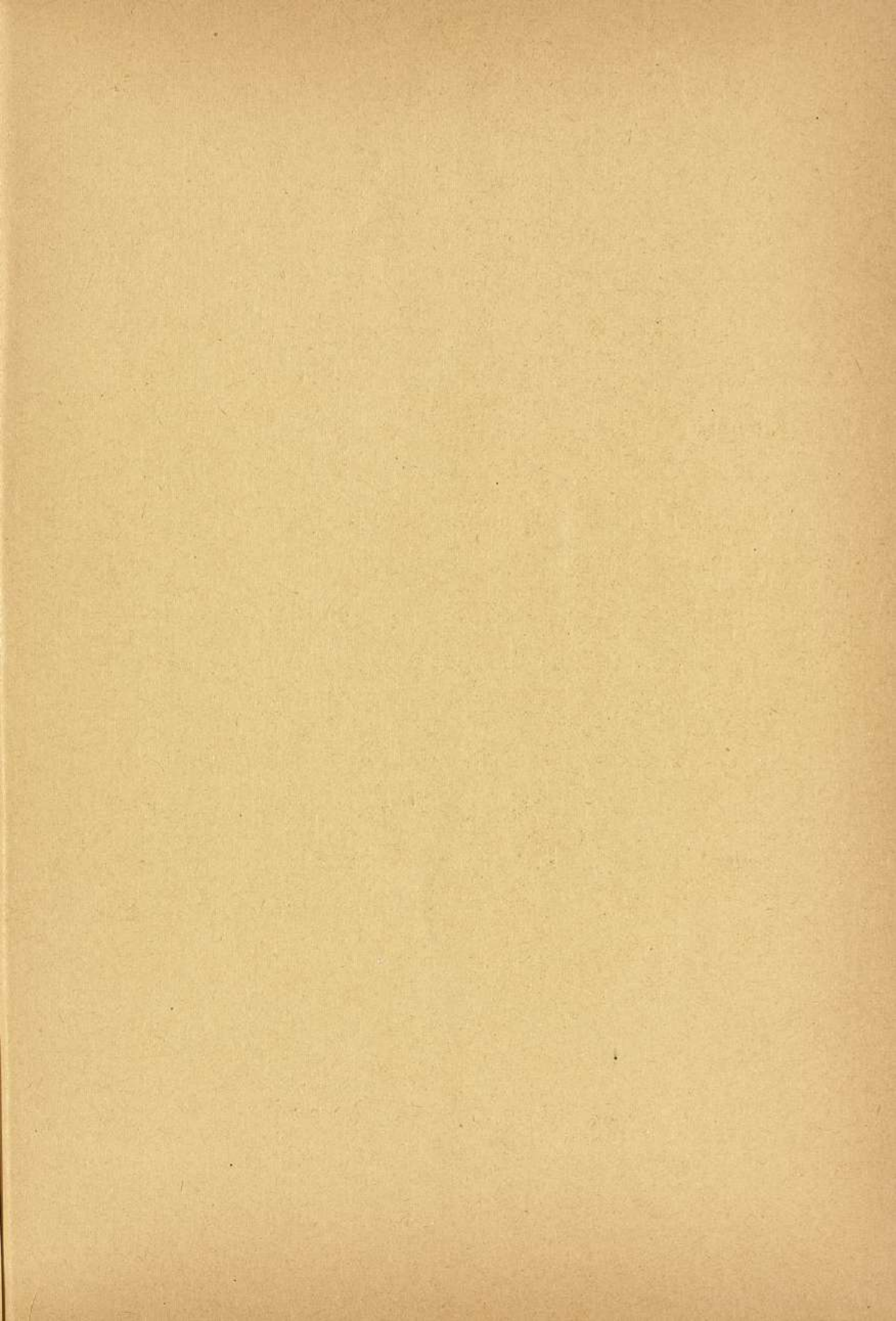
* * *

(وبعد) فإنى أخشى أن يفهم من كلامى هذا أن أسلوب الشيخ على يوسف قليل الحظ من الجمال . أخشى ذلك بعد إذ أوضحت فى جلاء أن مصدر الجمال فى أسلوب الشيخ ذاتى بحت . فأسلوب هذا الرجل صورة صادقة من هدوء نفسه ، ووضوح فكرته ، واعتدال مزاجه واعتماده على قوته وإيمانه بالواقع الملموس ، وميله أحيانا إلى السخرية الخفيفة التى تصيب الهدف منها ، وهى فى الوقت نفسه تعمل عملها فى نفوس الخصوم السياسيين ، بل صورة من

ميله أحيانا أخرى إلى إحداث الموازنة التى يستعين بها دائماً على إظهار الحقيقة ، ليؤمن بها أصدقاؤه ومعارضوه على السواء . وتلك جميعها صفات الصحفى الناجح الذى يعرف أن من أيسر واجباته نحو الصحيفة اليومية التى يديرها قيامه بكتابة المقال الافتتاحى كل يوم ، فيقبل على كتابة هذا المقال بالسهولة التى يزاول بها كل فرد من أفراد الأمة عمله اليومى .

(والخلاصة) فى المقال الصحفى على يد الشيخ على يوسف أنه لم يعد محاولة بدائية ضعيفة ، كما كان عند رفاعة الطهطاوى وتلاميذه ، ولا موضوعاً إنشائياً أنيقاً ، كما كان عند أديب اسحق ، ولا درسا دينيا أو اجتماعيا أو أخلاقيا كبيرا ، كما كان عند الشيخ محمد عبده ، ولا خطبة من الخطب الطويلة ، كما كان عند السيد عبد الله النديم ، ولا معنيا فيه باللغة التقليدية (الكلاسكية) القديمة ، كما كان عند ابراهيم المويلحى . بل إن المقال الصحفى الذى كتبه على يوسف كان مادة صحفية صحيحة بكل ماتحمل هذه الكلمة من معنى . وكان فى الوقت نفسه مطلقا من جميع قيود الماضى التى تقيد بها أولئك الأدباء والصحفيون ممن ذكرناهم فى معرض الموازنة بينهم وبين هذا الشيخ . وأهم من ذلك كله أن السيد على يوسف كان يتكىء فى هذا الأسلوب الصحفى الجديد على نفسه ، لا على غيره من أساطين الكلام .

وذلك معنى قولنا عن هذا الصحفى الفذ أنه : كان بحق زعيم المدرسة الصحفية الحديثة فى مصر .



خاتمة ونموذج

الخاتمة

عجب الناس فى مصر والشرق ، كما عجب الناس فى أوروبا كيف أن أزهريا بسيطاً كالشيخ على يوسف يستطيع فى وقت قصير أن يكون صحفياً ناجحا إلى حد أن وصفه بعض المستشرقين ، كما تقدم القول فى ذلك ، بأنه أكبر صحفي العالم ، بل إلى الدرجة التى وُصفت بها جريدة المؤيد بأنها « تيمس الشرق » .

ولعل مصدر هذا العجب أن الثقافة الأزهرية وحدها قد لا تعين صاحبها على أن يكون عبقريا فى ميدان الصحافة . ونحن نعرف أن هذه الثقافة الأزهرية الخالصة لا تعدو العلوم النقلية المعروفة من ناحية ، وبعض العلوم العقلية ، كالمنطق وغيره من ناحية ثانية .

وإذن فلا مفر من القول بأنها الموهبة ، يهبها الله من يشاء من عباده ، فتظهر عند أول فرصة تلائم هذا الظهور ، وتظل منذ ذلك الوقت مصدر إشعاع قوى تراه الأبصار فى صاحب هذه الموهبة ، أو نبوغ عظيم تحكم به الأذواق عند قراءتها لثمراتها الطيبة . ولا غرو فى ذلك فمن الشعراء من تحس عند قراءته بأنه صاحب « نبع شعرى » يتفجر منه الشعر فى سهولة ويسر ، ومن الشعراء من تحاول جاهداً أن تحس فى شعره بوجود هذا النبع ، فلا تفلح فى هذه المحاولة .

الحق أننا حين نقرأ للشيخ على يوسف ، ونطيل قراءته ، وحين نعاشر هذا الشيخ من خلال صحيفته ، نشعر شعوراً قوياً بأننا فى حضرة رجل صحفى بكل ما فى هذه الكلمة من معنى .

بل إن قراءتنا لآثار هذا الرجل ، ومعاشرتنا إياه من خلال صحيفته تنهض دليلا كافيا على الفروق الواضحة بين رجل الصحافة ورجل الأدب .

وهى الفروق التى أشرنا إليها فى خاتمة الجزأين السابقين من أجزاء كتابنا هذا ، وأنكر الناس علينا هذه التفرقة . لظنهم أن كل أديب من الأدباء يستطيع أن يكون صحفياً ناجحاً ، وأن كل صحفى من الصحفيين فى استطاعته أن يكون أديباً بارزا ، إذ ليست الصحافة والأدب بزعمهم ، غير القدرة البيانية التى لابد منها لكل منهما .

نعم — من الناس من يجمع بين الأمرين ، ويستطيع أن يكون هذين الرجلين ، ولكن هؤلاء قليلون ، ولهم ظروف خاصة بهم . ومع ذلك فلا بد لأحدهم أن يكون فى إحدى الناحيتين أكثر تفوقا منه فى الناحية الأخرى .

يجب إذن أن ندرك دائما أن الصحافة « أدب غيرى » بمعنى أنه أدب يعنى فيه الصحفى بغيره لا بنفسه ، أو بمعنى أنه أدب مقيد دائما بالمجتمع . ومن هنا اختلفت الموهبة الصحفية عن الموهبة الأدبية اختلافا بينا .

ولقد كان الشيخ على يوسف من أولئك الرجال الذين أفردتهم الأقدار بواحدة فقط من هاتين الموهبتين ، ونعنى بها الموهبة الصحفية . والرجل الصحفى بحاجة دائما إلى هضم المسائل العامة فى المجتمع هضما جيدا . وهو بحاجة بعد ذلك إلى السطوة النفسية التى يسطو بها على هذه المسائل العامة ، فإذا هى جزء من نفسه وروحه وعقله وقلبه ، وإذا التعبير عنها تعبير عن ذلك كله فى وقت معاً . ومقياس هذه السطوة النفسية فى الكاتب الصحفى شيئان ، هما الوضوح والحماسة . والكاتب الصحفى لا يبلغ من هاتين الصفتين مبلغا ما إلا عن طريق السطوة التى نتحدث عنها .

ولقد كان الشيخ على يوسف واضحا ، كما كان — إلى حد ما — متحمسا . وذلك أن تحمسه من نوع آخر غير الذى نراه عند رصيفه فى الصحافة والسياسة — مصطفى كامل . ومرجع ذلك إنما هو اختلافهما فى المزاج ، وفى النشأة ، وفى الخلق ، وفى الشخصية .

ثم إن مصر فى حقيقة الأمر لم يكن لها عهد بالطريقة التى سلكها رجل كعلى يوسف فى الكتابة . فقد ألف المصريون منذ بداية القرن الماضى أن يقرأوا لرجال من الكتاب تخرجوا فى الأزهر الشريف ، وربما أتم بعضهم تعليمه بعد ذلك فى أوربا . ولكن منذ ظهور الصحافة الشعبية المصرية ظهر إلى جانب الأزهريين كتاب آخرون ، تثقفوا بثقافة لا تمت إلى الأزهر بسبب . وكان هؤلاء . وأولئك يكتبون بلغة روعى فيها التنميق الأدبى مراعاة تلفت النظر . وقد أطلقنا على هذه اللغة أو الأسلوب الكتابى اسم « الطريقة الكلاسيكية فى الأدب أو الصحافة » .

أما الشيخ على يوسف فبرغم أنه ممن تعلموا فى الأزهر ، ولم يتموا تعلمهم فى أوروبا ، فإنه منذ جال بقلمه فى ميدان الصحافة الشعبية اليومية وجدناه يقدم لقرائه نموذجاً جديداً من الكتابة العربية ؛ وهو نموذج قد لا نستطيع نحن المحدثين أن ندرك مقدار ما فيه من التطور أو التجديد ؛ لأن صحافتنا — فى الحقيقة — وليدة هذه الجهود التى بذلها أمثال الشيخ على يوسف فى الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، ثم نسينا نحن هذه الجهود منذ ألفنا هذا النمط من الكتابة الصحفية . ومن هنا ينظر التاريخ إلى الشيخ على يوسف على أنه زعيم مدرسة حديثة فى الصحافة ، أو صاحب طريقة جديدة فى الكتابة ، هى هذه الطريقة التى تجرى عليها صحافتنا فى الأعم الأغلب إلى اليوم .

والخلاصة : أن من أراد أن يعرف المراد بكلمة (المقالة الصحفية) عند إطلاقها ، أو أراد أن يعرف الفرق بينها وبين المقالة الأدبية الخالصة عند إطلاقها فليقرأ مقالات الشيخ على يوسف فى المؤيد .

غير أنه لا غنى لصاحب هذه الطريقة التى نحن بصددها عن التزود من « الأدب الكلاسيكى » ، وإن ظهر للقارىء أنه لا أثر لهذا الأدب الكلاسيكى القديم فى طريقة جديدة فى الكتابة كتلك التى اتبعها الشيخ على يوسف .

فحبذا لو أدرك الناشئون فى الصحافة هذه الحقيقة ، فأخذوا أنفسهم أخذاً قوياً بذلك ؛ وربحوا لأنفسهم محصولا كبيراً من الآداب القديمة ، شرقية كانت أم غربية .

أجل — لقد كان الشيخ على يوسف رئيساً لتحرير المؤيد ؛ فأفاد من ذلك فائدة ليس إلى إنكارها أو حصرها من سبيل .

فمن اجتماع له بقادة الرأى فى مصر ، إلى حيازة لمكتبة ضخمة لا تستغنى عنها أسرة التحرير فى أى وقت ، إلى تنظيم للقصاصات الصحفية التى لا بد منها كذلك لكل مشتغل بهذا الفن ، إلى اطلاع واسع ودقيق ومتصل على شتى الصحف الوطنية والأجنبية التى تناقش المسائل العامة فى هذا القطر ، إلى غير ذلك من الأمور التى جعلت الرجل يلتصق بمكتبه فى إدارة المؤيد ، لا يبرحه ليل نهار . وقد خلق منه كل ذلك شخصية كبيرة لرجل عرف كيف يقود الرجال ، بل لربان سفينة ؛ هى سفينة الوطن التى كانت تسير فى بحر عاصف بالأمواج ، مشمول بالظلام !

* * *

والمقال الصحفى — كما نعرف — على ثلاثة أنواع :

منها النوع العرضى — بسكون الراء — ونعنى به المقال الذى يحاول فيه الكاتب عرض فكرة من الأفكار على صفحات جريدته .

ومنها النوع النقدى — وفيه يعمد الكاتب إلى نقد فكرة ، أو موضوع ، أو اتجاه من الاتجاهات فى السياسة والاجتماع .

ومنها النوع النزالى — نسبة إلى النزال . وفيه ينازل الكاتب خصمه فى الرأى ، ومناوئه فى العقيدة ، ويصارعه مصارعة تدل على قدرته الصحفية ، ومهارته السياسية ، ودهائه العقلى الذى ينبغى ألا يفارقه فى وقت من الأوقات .

وكثيراً ما يحدث أن ينازل الصحفى خصماً له ، فلا يبادله هذا الخصم ضرباً بضرب ، أو رأياً برأى . فيمضى المنازل الأول فى كتابة مقالاته ، وتوجيه ضرباته ، حتى يأخذه شىء من الأعياء . وفى هذه الحالة الأخيرة يطلق الصحفيون على هذه المقالات النزالية اسم « الحملة الصحفية » .

والذى لاشك فيه أن مقالات الشيخ على يوسف بعنوان « قصر الدوبارة بعد يوم الأربعاء » كانت من هذا النوع الأخير . ففيها حمل الكاتب حملة شعواء على اللورد كرومر ، ومضى يوجه إليه ، وإلى سياسته ضربات متواليات ، حتى شفى نفسه ، ونال من خصمه ، وانتقم للوطن مما رمى به من التهم الشنعاء .

وإذا لم يكن قد ندّ عن ذهنى شىء من التاريخ ، فإنى أنظر إلى هذه المقالات على أنها من أولى الحملات الصحفية الناجحة فى تاريخ الصحافة المصرية ، إذا استثنينا بالطبع مقالات مصطفى كامل عقب حادث دنشواى .

هكذا نجح على يوسف فى المقالة الصحفية بأنواعها الثلاثة المعروفة . على حين أن غيره من كتاب المقالات ربما لم يحسن غير نوع واحد منها . فإذا واتته الظروف أحسن نوعين فقط . ولهذا المقياس الأخير فى تقدير نجاح الصحفى نظيره فى الميدان الأدبى . فبمثل هذه الطريقة رأينا القدماء يفاضلون بين الشعراء . فمن أحسن من هؤلاء أن يقول الشعر فى أغراض كثيرة كان فى نظر القدماء أشعر ممن لا يحسن إلا غرضا واحدا أو غرضين فقط من هذه الأغراض .

تلك ناحية من نواحى الفضل فى هذا الرجل . وأخرى من نواحيه أيضا ، هى أنه وقف وحده فى أول الأمر يناضل الاحتلال البريطانى فى مصر مناضلة قوية متصلة ، ومضى فى نضاله زهاء خمسة وعشرين عاما من حياته وحياة مصر ، هى المدة التى أقامها كرومر جبار الاحتلال البريطانى مسيطرا كل السيطرة على أداة الحكم . وإن المؤرخ ليرثى حقا لحالة مصر

لو أنها خلت فى تلك الفترة من كاتب كالشيخ على يوسف، يذود عن كرامتها، ويصون سمعتها وسمعة الإسلام معها فى أحرج الأوقات .

وليس شك فى أن الرجل الآخر الذى قام بمهمة الدفاع عن مصر فى ذلك الوقت هو مصطفى كامل . وهذا الأخير هو أول زعيم حقيقى للحركة الوطنية فى الديار المصرية ، وهو أصدق داعية لها فى الشرق وفى الغرب . وإلى هذين الرجلين على كل حال يرجع الفضل كل الفضل فى بقاء مصر كريمة على نفسها ، وذلك فى أثناء هذا العهد البغيض من عهود التاريخ المصرى الحديث ، أو فى أثناء تلك المقاومة العنيفة التى بذلها الوطنيون ضد الاحتلال البريطانى .

* * *

على أن يراع الشيخ على يوسف قد امتد فى غضون تحريره « المؤيد » إلى جميع المرافق الحيوية فى الديار المصرية ؛ وذلك فضلا عن الناحية السياسية التى أشرنا اليها . فكان له رأى فى كل واحد من تلك المرافق العامة ، وكان شديد اليقظة لما تصنعه الحكومة والإحتلال فى كل منها . بل إن قلم الشيخ كان موجها لهما ، مزوداً إياهما بين حين وآخر بإرشاداته الحكيمة، ونصائحه الغالية .

وهل ينسى التاريخ للشيخ على يوسف جهوده فى ترقية المجتمع المصرى والخلق المصرى ؟ أو هل ينسى التاريخ لهذا الشيخ عمله فى التشجيع على إنشاء الجامعة المصرية ؟ أم هل ينسى التاريخ موقف هذا الشيخ من الخديو عباس حين راجعه فى إحياء قانون المطبوعات لسنة ١٨٨٢ — وقد كان هذا القانون الذى هو وليد الثورة العرابية أشبه شىء فى ذلك الحين بإعلان للأحكام العرفية التى جاءت لخنق الحرية والصحافة الشعبية ؟

أما الإسلام والمسلمون فالله تعالى وحده هو القادر على أن يتولى جزاء الشيخ عن ذلك أحسن الجزاء .

* * *

قلنا إن السيد على يوسف يمثل فى التاريخ الأدبى الصحافة المصرية مذهباً جديداً فى الكتابة. وذهبنا إلى أنه يعتبر رأس هذه المدرسة الجديدة من مدارس الصحافة. وحين أردنا أن نلتمس العلة لذلك وجدناها أولا فى هذه الظاهرة الهامة؛ هى أن جريدة المؤيد كانت من أولى الصحف اليومية فى مصر. ومن المحقق أنها كانت من أطولها عمراً فى ذلك الوقت. والصحافة اليومية هى المسئولة عن هذا الأسلوب الجديد فى الكتابة، على حين أن الصحافة الأسبوعية أو الشهرية ترتفع عادة بالأسلوب الكتابى إلى درجة أعلى من هذه. ومن ثم نظرنا إلى كاتب كالمويلحى فى جريدة «مصباح الشرق» على أنه آخر من يمثل الطريقة «الكلاسيكية» أو القديمة فى الكتابة والصحافة. فى حين نظرنا إلى الشيخ على يوسف أنه من أوائل من يمثلون الطريقة الحديثة.

ولقد كان المويلحى مفتوناً بالجزالة اللفظية أحياناً. وبالتشبيه والاستعارة أحياناً، وبتوشيح الكلام بالقرآن والحديث والأشعار، وحكم الفلاسفة أحيانا. وعبثاً حاولنا أن نجد ظلا لهذه الميول الأدبية فى أسلوب على يوسف، اللهم إلا نادرا وفى مناسبات قليلة. فدلنا ذلك على أن عبارة هذا الصحفى الأخير، وإن تمتعت بالوضوح والبساطة، فقد كان يعوزها شىء غير قليل من الجمال والأناقة.

ولقد كان شبيها بعلى يوسف فى كل ذلك رصيفه فى الصحافة «بشارة تقلا» صاحب جريدة الأهرام. وهو رجل لا يجيد الكتابة على النهج القديم، وإنما يجيدها على النهج الحديث. ومن هنا صح النظر إلى هذا الأخير على أنه تلميذ للمدرسة التى ينتمى إليها على يوسف.

* * *

ليس من حق المؤرخ الأدبى فى الحقيقة أن يفاضل بين طريقتين من طرق

الأداء فى الأدب ، لأن عمله — فى الواقع — يقف عند حد الوصف لهما . وعلى الرغم من ذلك فإن للأديب غيرة على الأساليب الأدبية ربما لا يملك إخفاءها أو التغاضى عما يصيبها أحياناً من الضعف أو الخور . وهذا الأديب حين يقرأ الصحافة الشعبية اليومية يحملها تبعة الهبوط بالمستوى العام للكتابة الصحفية وينظر إلى صحفى نابه كالشيخ على يوسف على أنه الرجل الذى يتحمل جانبا من وزر هذا الهبوط النسبى للعبارة الصحفية ، ما دام فى الإمكان أن يسمو الصحفى بهذه العبارة إلى مستوى يقرب من الأدب .

على أن هذه وإن كانت رغبة فى نفس الأديب ، يبديها طمعا فى الوصول بالأساليب الصحفية إلى الدرجة التى ترضى أذواق الخاصة ، إلا أنها ليست مما يسهل تحقيقه ، نظراً إلى أسباب شتى ، وعوامل مختلفة . ولعل أيسر هذه العوامل أن الصحافة أدب غير خالد ، وأنها موجهة على الشعب كله على اختلاف طبقاته ، ومن ثم يعود الأديب فيلتمس العذر لرجال الصحافة . وخاصة إذا كانوا من أصحاب الجرائد اليومية ، لا المجلات أو النشرات الدورية . وخاصة كذلك أن الذوق الأدبى العام أصبح لا يميل إلى الطرق الفنية القديمة بحال من الأحوال . بل غدا هذا الذوق لا يطيق النظر إلى القديم ، ويخشى على نفسه من التأثر به ، بله التحمس له . وكل ذلك أثر من آثار الصحافة اليومية ، وليس إلى التخلص منه سبيل . ومهما يكن من شىء فإن للطرق الحديثة فى الأداء جمالا وروعة لا يقلان عن جمال الطرق القديمة وروعتها . والأدب نفسه — على أى شكل من أشكاله — هو فن التعبير .

* * *

(وبعد) فقد رأيت — أيها القارىء — من سيرة الشيخ على يوسف ومما كتبناه حتى الآن من تاريخ كفاحه أن هذا الرجل العظيم كان كخمسة رجال عظماء على الأقل :

أما (أولهم) فالشيخ على يوسف مدير الجريدة وهى من أعظم الجرائد اليوميـة فى الشرق ، وأكثرها رواجا ، وأعظمها خطراً على الاستعمار الأوروبى . فلقد كانت (المؤيد) منبراً عاما يتحدث من أعلاه الشيخ على يوسف وأصحابه والمتفقون معه فى المذهب السياسى ، والمذهب الاجتماعى . ولا جدال فى أن هذا المنبر كان من أعلى المنابر كلها فى ذلك الوقت . ومن أبعدها صوتا ، وأفعلها سحراً فى نفوس المصريين والشرقيين على السواء .

وأما (ثانيهم) فالشيخ على يوسف رئيسا لحزب الإصلاح على المبادىء الدستورية . وهو من أول الأحزاب المصرية من حيث الظهور ، ومن أنفعها وأجلها قدراً فى نفوس الوطنيين . وقد كان الأوروبيون يحسبون لهذا الحزب حسابا كبيراً ، ويضعونه دائما فى المنزلة المقابلة للحزب الوطنى الذى يرأسه مصطفى كامل . بل أن من الباحثين المنصفين من ذهب إلى أن مصر استطاعت أن تفيد من هذا الحزب المعتدل أضعاف ما أفادت من الحزب الوطنى المعروف بتطرفه .

وأما (ثالثهم) فالشيخ على يوسف عضواً فى الجمعية العمومية عن مدينة القـاهرة . والجمعية العمومية وإن كان رأيها استشاريا محضا ، إلا أنها أتاحت لبعض الشخصيات الكبيرة أن تظهر على المسرح ، وأن تقود دفة الأمور ، وأن يكون لها تأثير كبير فى السياستين الداخلية والخارجية للديار المصرية . وفى مقدمة هذه الشخصيات على يوسف وسعد زغلول . وقد كان هذان الرجلان فرسى رهان ، وفارسى ميـــدان — كما يقول القدماء — يتساجلان فى الأمور العامة التى تمس مستقبل البلاد ، أو يكون لهـا صلة بكرامتها وقوميتها .

فمرة يكون موضوع السجال مدّ امتياز قناة السويس . وأخرى يكون موضوع السجال جعل اللغة العربية لغة التعليم الأولى فى المدارس المصرية وهكذا . والحق أنه لو كانت الحياة الدستورية فى مصر فى ذلك الوقت

أعظم قوة مما كانت عليه ، وأنفذ قولا ، وأقدر على العمل لكان الشيخ على يوسف أول مصرى يبذل من ذات نفسه من حسن الرأى والإخلاص للوطن ما لا يستطيع مصرى غيره أن يبذله فى عصره .

(و ما رابعهم) فالشيخ على يوسف زعيما من زعماء الإصلاح فى مصر . ولا ريب أن التاريخ نفسه ينظر إلى الشيخ هذه النظرة ، وأن الشعب المصرى نفسه يرى فيه هذا الرأى . ومن ثم كانت تشرئب إليه الأعناق وقت المحنة ، وكانت تتعلق به القلوب إذا قيل : حدث اختلال أو هياج فى النفوس والأحوال . وكان الناس ينتظرون كلمة المؤيد وصاحبه فى تلك الساعات الخطيرة التى تزرع الشيب فى الرءوس ، أو اللحظات القليلة أو الكثيرة التى يتحرج فيها الموقف إلى حد بعيد . وكان على الشيخ بحكم مركزه هذا أن يفكر فى الإصلاح من وجوه شتى ، وأن يحيط نظره الثاقب بكل ناحية من نواحى الحياة المصرية ، لا بواحدة أو اثنتين منها . وكان الرجل مستعدا لأن يدلى برأيه فى كل مسألة من المسائل التى تهم قومه وحكومته .

(وأما خامسهم) فالشيخ على يوسف أديباً سياسياً من الطراز الأول ، وصاحب فضل لا سبيل إلى إنكاره على اللغة العربية أولا ، والأساليب الأدبية نفسها بعد ذلك .

فأما فضله على اللغة العربية فقد جاء من دفاعه عنها دفاعاً حاراً فى مواطن شتى : منها الجمعية العمومية ، حيث وقف مرات يناضل عن هذه اللغة ضد وزير المعارف العمومية ، وهو يومئذ سعد زغلول . ولم يكن من رأى هذا الوزير أن يجعل اللغة العربية لغة التعليم فى المدارس المصرية ، فما زال به الشيخ على يوسف حتى أقنعه وألزمه الحجة ، وربحه إلى صفه ، فربح به للغة العربية رجلا فوق الرجال ، وغيوراً على لغة القرآن لا يدانيه رجل آخر فى هذه الصفة .

وأما فضله على الأساليب الأدبية فقد جاء من الصحافة التي جعلته يستحدث في الأدب العربي ما يسمى « بالأسلوب السياسي » . فاهتدى بذلك إلى طريقة أدبية جديدة ، جرد بها الأسلوب الأدبي من كثير من التكلف البغيض إلى نفوس القراء ، وغسله من كثير من الأوضار التي علقت به منذ القدم ، وصهره في نار الصحافة الحرة فأخرجه للناس أنقى من الذهب ، لسواه ، وأصفى من الزجاج ، وأحلى من الماء الزلال .

فهذا هو الشيخ علي يوسف . وهذا هو الرجل العظيم الذي قلنا أنه كان كخمسة رجال عظماء ، لكل واحد منهم ناحية ليست للآخر .

* * *

رحم الله الشيخ علي فقد كان قطب الرحى من هذه الأمة كلها ، وكان الرجل المرتجى في كل محنة من المحن التي مرت بها . فكان قلمه نبراساً يهدي السائرين ، كما كان عقله نوراً إلهياً قذف الله به في قلوب المصريين ، وكان ذا خلق قوي أعانه على النهوض بذلك العمل الذي أعد نفسه له ، ووقف حياته عليه .

(وبعد) فقد كنا نود أن نختم هذا الجزء من الكتاب عن علي يوسف بطائفة من النماذج الصحفية للشيخ علي يوسف ؛ وذلك على طريقتنا في الجزء الخاص بالمويلحي . ولكن القول امتد بنا في هذا الجزء إلى أكثر من الحد الذي قدرناه له . لذلك آثرنا أن نكتفي هنا بنموذج واحد فقط من كتابة السيد علي يوسف ؛ هو رده على خطبة اللورد كرومر عند وداعه .

لقد تأنق الشيخ علي يوسف في هذا الرد قليلا على غير عادته ، وأطال فيه كثيراً على غير عادته أيضاً . ولكن لا ننسى أن الموقف كان يدعو الكاتب إلى الأمرين معا ، وأي ساعة كانت أهنأ للمصري من تلك الساعة التي يترك فيها جبار الاحتلال منصبه ، ويرحل عن أرض الوطن ؟

النمـــــوذج

حفـــــلة الوداع

وخطبـة اللورد كرومر (1)

تقفون والفلك المحرك دائر وتقـدرون فتضحك الأقدار

وقف الخطباء مساء السبت الماضى موقف الممثلين فى دار (الأوبرا الخديوية) يحكمون على الماضى والمستقبل حكم الأقدار فى الكائنات، ويبرمون وينقضون ويرفعون ويخفضون، والناس يسمعون مختارين أو مكرهين؛ لأن فرسان ميدان الخطابة كانوا ثلاثة لا يزيدون ولا ينقصون ولو أن الموقف كان حراً لكل قائل لسمع الثلاثة ما يكرهون كما قالوا ما يحبون .

قلنا إنهم وقفوا موقف الممثلين، لأنهم كذلك فى حقيقة الواقع وقد مثلوا آخر فصل من رواية كثيرة الحوادث، عديدة الفصول، طويلة الزمان. بطل وقائعها وفارس معمعاتها ذلك الذى كان آخر الخطباء فى الحفلة كلاما، وأشدهم إيلاما وأكثرهم آلاما .

وقف ليمثل آخر سلطة له فى هذه الديار ولسان حاله يقول :

« ما فى وقوفك ساعة من باس » .

مثلها فى مكان هو أليق ما كان عظة لقائل، ومظهراً لسلطان راحل ومجد زائل وأصدق ما ضرب من له من الأمثال « لكل مقام مقال » .

وقبل أن نذكر شيئا عن الخطباء وخطبهم يجدر بنا أن نذكر شيئا عن هذا الأسلوب الذى اختير من أساليب الوداع، ولماذا فضلت حفلة الأوبرا على المأدبة التى كان يراد عملها فى أول الأمر ؟ فضلت لأن القوم لم يريدوا مظهر إكرام الرجل الراحل إكراما معتاداً فى مثل هذا المقام، ولكنهم

---

(1) تجد هذا المقال في نهاية كتاب بعنوان : مقالات قصر الدوبارة . كما تجده بجريدة المؤيد فى الموضع الذى أشرنا إليه فى نهاية هذا المقال.

أرادوا مظاهرة سياسية أساسها سلطة الحكومة وأساطينها قوى الاحتلال بعيدة عن الأمة والأمة بعيدة عنها . وقد بالغوا فيها ما شاءوا وما استطاعوا أن يبالغوا فى هذه المظاهرة بقصد أن يذهب من نفوس المصريين كل أثر للظن بأن اللورد مستقبل لأسباب سياسية ، وحتى يستقر فيها أن اعتلال صحته هو الباعث الأول . بل والأخير على استقالته من وظيفته . ولو أنهم أحسنوا الصنيع معه لتركوا هذه المظاهرات التى حملت كل الناس بكل ما جرى فيها على فهم أن الرجل راحل طبق المثل : «مكره أخاك لا بطل» .

وفوق هذا — أنهم لسوء الحظ لم ينجحوا فى القيام بالمظاهرة السياسية كما أرادوا ، منها بل فشلوا فى تكوينها من الأمة . وقد حاولوا ذلك بواسطة سلطة الحكومة المخلوطة بقوى الاحتلال . وانعكست الآية عليهم ، فلم يكن من الوطنيين فى هذه المظاهرة سوى نفر قليل يعرفون بسيماهم ، ويكادون يعدون على أصابع اليـــدين والرجلين ؛ سوى رجال الحكومة الذين هم صنائع اللورد والذين يمن عليهم بوجودهم فى هيكلها . ولم يكن من الأوروبيين سوى بعض الرجال الرسميين ونفر ممن حسنت حالهم على يد اللورد بمناسبات شتى ، أو ممن جذبتهم جاذبية حب الظهور فوق المسارح ، والحشر فى غمرات المجامع من النقيض إلى النقيض . وما أكثر المتحذلقين لذلك بين الناس !

ثم وصف الكاتب رقعة الدعوة التى وزعت على الأعيان والوجهاء والموظفين لحضور الحفلة . وسخر من هـذه الرقعة ، ومن طريقة توزيعها بوسائل القهر والقوة .

ثم قال :

وإذا كان ما يبذل من الجهد والعناء فى سبيل الوصول إلى الغرض المعيارَ

الحقيق للفوز أو الفشل فإن ما بذلته الحكومة وعناصرها المختلفة فى سبيل جعل هذه المظاهرة السياسية ممثلة للأمة المصرية بحذافيرها وعنواناً كاملا على قدر شكرها للرجل الراحل جاء دليلا على أن الفشل كان أعظم ما يمكن أن يقدر لعمل العاملين . وعلى هـــذا القياس كان الفشل أيضا فى الدعوة العمومية لحضور غير المشتركين فى الاحتفال . فإن بعض المديرين كانوا يسوقون الأعيان سوقا إلى القاهرة ، ويصحبونهم بالرسل فى مجيئهم ، حتى إذا جاؤا إليها أبى أكثرهم الخروج من الفنادق التى نزلوا بها ليلة الاحتفال .

ولا تفسير لذلك الفشل العظيم ، وهذا الإباء الذى عم المدن والقرى إلا أن اللورد ، ولو أنه أحسن كثيراً فى هذه البلاد فقد أساء كثيراً فيها ، وكانت سيئاته الكبرى فى أخريات أيامه ، فلم ينسها الناس لأنه لم يترك فى جعاب تقريره الأخير سهاما مؤذية إلا سددها نحو مصر والمصريين ، ونحو مبادئهم وعقائدهم . والذكرى تغلب بالسيء من الأقوال ، والعبرة بالخواتيم من الأعمال !

* * *

أما الاحتفال نفسه فلم يكن مظاهرة سياسية لإكرام الرجل عند رحيله كما أرادوا ، ولكنه انقلب بما جرى فيه مظهراً عدائيا من اللورد لم ير الراءون ، ولم يرو الراوون مثله فى مقام وداع كهذا المقام !

دعنا من كون رئيس الاحتفال أخطأ فى أنه لم يكن المتكلم الأول وما عرف حتى الآن أن رئيس احتفال ، ورئيس وزارة معاً يُقدم عليه سواه فى الكلام . ودعنا من كونه خطب بالفرنساوية ولم يجعل للغة البلاد نصيباً من كلامه فى احتفال كهذا . ودعنا من زعمه أنه يمثل مع الحكومة فى موقفه السواد الأعظم من الأمة المصرية، والسواد الأعظم يخالفه فى الرأى والقول.

دعنا من كل هذا وانظر إلى خطبـــة اللور السياسية التى جعلها بمثابة وصيته الأخيرة ، وخاتمة أعماله فى مصر .

فبينما كانت الأمة المصرية واقفة موقف الأمل ، منتظرة من ذلك الراحل العظيم والشيخ الحكيم أن يصلح ما فرط منه نحو الشريعة الإسلامية بما قضى عليها من الجمود الأدبى ، ونحو الأمة المصرية بما وصفها به من العقم السرمدى — بينما هى ترجو من جنابه أن يغتنم هذه الفرصة السانحة ليأسو الجراح التى جرحها ويضمد الكلوم التى فتحها فى جسمها بما تقدم ، وبما أراد أن يجعل وطنيتها أعجوبة بين الوطنيات ، وجامعتها كشكولا بين الجامعات .. وبينما كان سمو أمير البلاد يتعطف ويتلطف ويبالغ فى إكرام الراحل عند رحيله متناسياً الحزازات السياسية التى طالما كان اللورد مهاجما فيها غير عادل ولا متلطف ، بينما كان هذا إذا ببركان « البيروقراطية » التى نشأ عليها اللورد ومارسها كل حياته حتى برز فيها أكثر من كل مبرز فى تواريخ الحكومات المطلقة قد انفجرت نيرانه ، وقذف بلظاه على الأحياء والأموات .

وقف اللورد خطيباً وهو يدافع كيد السقام ، ويجاذب داعى الخصام ، فجال فى خاطره أنه مفارق قصراً تجرى من تحته الأنهار ، وملكا خضع له فيه الليل والنهار ، وتارك خصوما قد يتوهمون أنهم نازلوه فغلبوه ، أو يتوهم هو أنه حاكمهم فأغضبوه .

وقف اللورد وله نفسان : نفس نزاعة إلى حب البقاء ، وأخرى تقول كيف البقاء بعد الاستعفاء ؟

وقد ذكر أصدقاءه القليلين كما يعلم ، وأعداءه الكثيرين كما يتوهم ، فسر وساء وترخص وتشدد ، وعدد وندد ، ووعد وتوعد ، وأرغى وأزبد وحذر وأنذر ، وحكم وقدر .

ربما أخرج الحزين جوى الحز ن إلى غـير لائق بالسداد
مثلمـا فاتت الصـلاة سليما ن فأنحى على رقاب الجياد [1]

---

(١) زعم بعض المفسرين أن سليمان اشتغل بالصافنات الجياد حتى فاتته صلاة العصر ، =

وقف اللورد خطيباً راحلا عن بلاد أقام فيها أكثر سنى حياته ، فظن الناس أنه محسن وداعه لها ، ذاكر جميل أهليها معه فى ماضيه الطويل ليذكروا جميله معهم بعد فراقه . فإذا هو قد جمع فى ساعة واحدة كل أغلاطه الماضية ، ومثل فى هذه الساعه الزائلة كل مظاهر السلطة والاستبداد التى عرفت عنه ، وزاد عليها أضعاف أضعافها .

وعجيب أن إنساناً يقدر أن يسىء إلى أمة بأسرها فى ماضيها وحاضرها وأحيائها وأمواتها كما فعل جناب اللورد فى ساعة وداعه ، فإنه فى هذه الساعة بل فى نصف ساعة بالتحديد طعن على أمير البلاد طعناً جارحاً لعواطف الأمة ، كما طعن على بصائرها فقال إنهم « عميان » ومجد سكرتيره المستر فندلى الذى نقل من مصر بعد ما أساء للأمة فى حادثة دنشواى المحزنة أعظم إساءة ، مشيرا إلى أنه عمل لها أنفع عمل ، مع أنه هو الذى رمى الأمة بالتعصب ، ورمى جرائدها بارتكاب الرشوة كذباً !

طعن اللورد فى نصف ساعة على الأحياء والأموات ، فرشق المرحوم إسماعيل (باشا) وهو فى قبره بسهام جارحة ، كان الأمير حسين (باشا) نجله الأكبر فى غنى عن سماعها لو لم يتفضل بحضور الاحتفال بوداعه هذا الأمير الجليل الذى والى جناب اللورد بالصداقة زمناً طويلا ، وخصه باحترامه دائما ، وكان له فى عهده أعظم أثر فى خدمة البلاد معه خدمة حقيقية ، بأخذه الجمعية الزراعية الخديوية تحت رئاسته ، وبذله عنايته الجليلة فى ترقية شؤونها بنفسه وماله . ومع ذلك لم ير اللورد أنه خليق بكلمة ثناء يوجهها إليه فى جنب ما وجه من عبارات الثناء لغيره من الأحياء والأموات

= فغضب على نفسه من ذلك وأنحى على جياده ذبحا وقطعا لرقابها وسيقانها . وهى رواية إسرائيلية دحضها الفخر الرازى ، وتبعه فى دحضها الشيخ عبد الوهاب النجار فى كتابه (قصص القرآن) فليراجعها من أراد . والكاتب يريد أن يقول أن كرومر ركب رأسه فى إظهار حزنه لخروجه من مصر على هذا النحو . المؤلف

لم يكتف اللورد بأن يجبه الأمراء من العائلة الخديوية جبهاً فى «اسماعيل» بل قال عن المرحوم «توفيق» قولا أشبه بالمديح فى أسلوبه وهو عين الهجاء. قال عنه «إنه لم يشترك كثيراً فى إصلاح مصر» وأثنى عليه بأنه كان بذلك يعرف قدره ومركزه. تعريضا بالجناب العالى الخديوى الذى لم يكفه منه هذا التعريض بل طعن عليه بعد ذلك طعنا صريحا وكاد يسبه سباً!

خص اللورد أشخاصا معدودين بثنائه، فذكر فى أولهم الطيب الذكر نوبار (باشا). ولكنه لم يذكر أثراً طيبا له يستحق هذا الثناء سوى أنه كان المختلط الأول لخطة تعديل نظام الامتيازات الأجنبية، ولكن الخطيب لو أنصف الرجل فى قبره لقال إن مشروعه فى تعديل الامتيازات كان مخالفا لهذا المشروع الجديد، لأن نوبار (باشا) إنما كان يطلب تعديلها بإعطاء المحاكم المختلطة سلطة الحكم فى الجنايات والجنح، كما طالبت الجمعية العمومية ذلك منذ سنين. وكان أشد الناس اعتراضاً له فى طريق نجاح هذا المشروع اللورد كرومر الذى يزعم اليوم أنه متمم عمله العظيم.

ذكر بعد ذلك رياض (باشا)، وأطرى شجاعته التى اشتهر بها فى زمن إسماعيل (باشا) قائلا:

«أنه علق الجرس بعنق الهر». ومغزى هذا المثل أنه لم يكن يبالى إذ ذاك أن يصيبه مكروه من ذلك المستبد الذى كانت تعنو لهيبته الوجوه[1] ولكن اللورد لم يقل أن رياض (باشا) لما أراد فى زمنه أن يعلق الجرس فى عنق الهر قطعت هذه العنق، وحلف اللورد ألا يعود[2] إلى خدمة الحكومة ما دام هو فى البلاد، وزاده عقوبة أن رفت ابنه من وكالة الداخلية فى اليوم التالى لاستقالة أبيه من الوزارة، فكان المستبد إسماعيل أخف وطأة على رياض (باشا) من المستبد كرومر.

ذكر بعد رياض (باشا) مصطفى فهمى (باشا) صديق اللورد العزيز الذى

---

(١) يريد بالمستبد هنا الخديو اسماعيل.

(٢) الضمير في (يعود) راجع الى رياض.

كان ينتظر الناس أن يقول عنه ما قال وأضعافه ، ذلك الصديق العزيز الذى حلف له يوم عاد إلى رئاسة النظار فى سنة ١٨٩٥ أن يبقى فيها ما دام حياً وما بقى اللورد فى مصر . وقد بر فى يمينه كما بر فى يمينه عن رياض (باشا) ولكن الناس لا يحكمون لمصطفى فهمى (باشا) حكم اللورد له فى كل ماقاله عنه إنه أنكر نفسه وعرف اللورد فاستحق أن يكون سامى المقام فى عينيه لا فى عينى الأمة المصرية .

وذكر بعده بطرس غالى (باشا) فمدحه بسعة الحيلة العقلية فى حل المشكلات ، وهى كلمة صغيرة جداً فى جنب ما أدى من الخدم الجليلة للبلاد فى حل المشكلات بين اللورد والجناب العالى من جهة ، وبينه وبين قناصل الدول من جهة أخرى .

ثم ذكر من بعده سعد (باشا) زغلول بالمدح والإطراء الكثير . ويسرنا أن مدة تجربته كانت قصيرة عند جناب اللورد ، فصرنا نؤمل أن يدخل فى مناصب الحكومة العليا كثيرون من أمثاله القادرين على العمل بعد ما كان اللورد يتهددنا بأنه إن لم يؤد مدة التجربة بنجاح يضطر إلى أن يسلم كل أعمال الحكومة العليا للإنكليز ويقول على المصريين فيها السلام .

على أن اللورد بعد أن ذكر هؤلاء الثلاثة من النظار أعرض عن ذكر بقية الأربعة الباقين ، فلم يشر إليهم بأقل إشارة كأنهم ليسوا نظاراً فى الحكومة ،ولا عمل لهم مطلقا فيها . فتساءل الناس ،أليس هؤلاء من صنائع اللورد أيضا ؟ أو لم يكونوا مثل مصطفى فهمى (باشا) يخدمون بلادهم بالسكوت عنده ، أو كما قال هو :

«بالسكينة والهدوء»والابتعاد عن التعرض للغير والدخول فيما لا يعنى أو هم كانوا على غير هذه الخطة ، فلم يكونوا محسنين عملا ؟ إن كان الأمر كذلك فلماذا هو أبقاهم فى مناصبهم مدة اثنتى عشرة سنة لا يعملون عملا يليق أن يذكروا به فى مثل هذه الحفلة . وتساءل الناس كثيراً عن إغضاء

اللورد عن ذكرهم ، ونحن مثلهم لا نعرف له سبباً ، ولعل حضرات النظار المسكوت عنهم يعرفون هذا السبب !

* * *

وبعد ما قال عن بعض كبار الانجليز مدحاً وثناء وإعجاباً وإطراء عاد إلى المصريين فذكرهم بمن الاحتلال عليهم ، وقال إنى لا أصدق ما يقال عنهم من أنهم ناكروا الجميل ، كافرو النعم . ولكن إذا صح ما يقال عنهم من هذا القبيل فهو ينتظر شكران نعم الاحتلال من أولاد هؤلاء العميان .

وبعد أن رمى المصريين بهذا السهم الجارح انتقل إلى بيان (الغرض السياسى) الذى زعم أنه كان نصب عينيه منذ قلد وظيفته فى مصر ؛ وهو أن يسعى إلى إعادة الاتفاق الفرنساوى الانكليزى إلى ما كان عليه ، والذى كان يوصى به على الدوام ذلك السياسى الطائر الصيت (غامبتا) قائلا : إياكم أن تقطعوا حبل المحالفة الانكليزية . كذلك هو يوصى قومه اليوم : إياكم وأن تقطعوا حبل الاتفاق الفرنساوى . كأنما اللورد الذى ينسى التاريخ يظن أن جميع الناس ينسون التاريخ مثله ، فينسون تلك الخشونة السياسية أو الجلافة العسكرية التى كان يقابل السير (أفلن بارنج)[1] بها خصومه الفرنساويين فى مصر على الدوام ، وأنه كان يحارب النفوذ الفرنساوى فى كل مصلحة وفى كل طريق ، وأنه هو الذى أنحى على العلوم والآداب واللغة الفرنساوية فى مدارس الحكومة المصرية ، وكانت نبراساً للناشئين ، وأنه هو الذى أقفل جريدتى الأهرام والبسفور لكونهما فرنساويتين وما عادتا إلا بأمر من لندن ، وأنه أتى — لا حباً فى مصلحة مصر — ولكن ليحل محل كل قدم فرنساوية قدماً انكليزية ، وكل شىء فرنساوى مثله انجليزياً ، لتدخل سياسة الاحتلال على المصريين من كل باب !

* * *

(١) هو كرومر نفسه .

أراد اللورد كرومر بعد كل ما تقدم أن يعدد منته على مصر والمصريين من الوجهتين المادية والأدبية . فذكر التقدم المالى إجمالا لعلمه أن الناس يجمعون على الاعتراف بفضله فى بابه . ثم ذكر التقدم الأدبى تفصيلا فأخذ يعدد للناس فصوله قائلا : هل السخرة باقية فى مصر ؟ هل لعنة الرق لاتزال حالّة عليها ؟ أليس كل شخص فيها من الأمير إلى الصعلوك أمام القانون سواء ؟ ألم ينشط الناس إلى العمل والكسب ؟ أليس صغار الناس يجنون ثمار كدهم الخ .

ولقد فات اللورد أن حكومة مصر كانت قد قررت قرارها فى أمر (العونة) قبل الاحتلال ، وكانت سائرة فى طريق التنفيذ ، وأن أول معاهدة للرق كانت بينها وبين انكلترا قبل عهد اللورد بسنين . وأن النظامات القانونية التى سوت بين الأمير والحقير فى النهاية لم يضع أساسها فى مصر اللورد ولا قومه ، وأن الناس نشطوا إلى الكسب والعمل وأخذوا يجنون ثمار أعمالهم من يوم بدىء برفع أثقال الضرائب الشاذة عن كواهلهم ، وأن مارفع من هذه الأثقال فى سنتى ٨٠ و ٨١ قد بلغ أكثر من مليونى جنيه ، مع أن مارفع من هذه الأثقال فى زمن الاحتلال كله لم يزد عن ٦٠٠ ألف جنيه سنويا . وأن كل شىء كان سائراً بطبيعته إلى التحسن والكمال ، بحيث لو لم يكن فى البلاد احتلال لما وقفنا عند ذلك الحال الذى تركنا عليه الخديو الأسبق . وهَبْ أن ما وصلنا إليه فى عهد ٢٥ سنة كنا مدركيه فى مدى ثلاثين مثلا فالتقدم حاصل بطبيعة الوجود وسنة الارتقاء فى الأعمال . ولكن الارتقاء الأدبى لم يكن يبقى واقفاً عند الحد السلبى الذى من علينا به اللورد كرومر . فإن هذه الوجوه التى ذكرها سلبية لا إيجابية ، كبث أنوار العلوم فى البلاد وكتأهيل المصريين لأن يحكموا أنفسهم بأنفسهم ؛ وهما العاملان القويان فى ترقية الأمم من الوجهة الأدبية . فأما مايوجد فى البلاد الآن من هذين النوعين فمن عمل الشعب لامن عمل الاحتلال ولا من تشجيعه

فالاندفاع فى طريق التعلم وتحصيل المعارف للذكور والأناث ليس من عمل الاحتلال الذى لو استطاع أن يوقف هذا التيار القوى المتدفق فى وادى النيل من رغبات أهله لفعل . وإن الميل الشديد إلى العمل والكسب والاشتغال بالمهن الحرة وما أشبه ذلك مما يعد من قبيل تأهيل المصريين للارتقاء الذاتى إنما جاء كله من طبيعة قوة احتكاك الأقوام النازلة فى البلاد وتشعب طرق العمل فيها ، لا بعمل الإنكليز ، ولكن بواسطة قوة الامتيازات التى جعلت الأجانب من كل أمة فيها أسوة بالإنكليز فى العمل والكسب . ولو استطاع هؤلاء أن يقطعوا طريق الكسب على النزلاء وسواهم ليحصروه فى أنفسهم لما تأخروا طرفة عين !

وهل ينسى أحد فى البلاد خطة اللورد كرومر فى التعليم وسياسته العلمية فى نظارة المعارف التى حصرها فى أمرين : نشر التعليم الابتدائى البسيط بقدر الإمكان ، وقصر التعليم الوسط والعالى معا على غرض واحد ، هو أن يصنع من الناشئة المصرية القدر اللازم لوظائف الحكومة فقط ؟ !

* * *

أراد اللورد بعد هذا كله أن يحيى الأمة المصرية بكلمتين ، إحداهما موجهة لأميرها المعظم . والأخرى موجهة إليها بالذات ليدلها على مستقبلها . واستطرد من ذكر الارتقاء الأدبى إلى التعليم العالى إلى ذكر الجناب العالى الخديوى وأشار إلى كل الذين شاركوه فى العمل ، وساعدوه على ترقية البلاد من الأحياء والأموات . وانتظر سامعوه أن يأتى على ذكر أمير البلاد بما يليق له من التجلة والإعظام ، وبالقسط الذى يناسبه من الثناء والإطراء على ماجرى بواسطته وعلى يديه من الأعمال التى تعزى إلى عهد الاحتلال . وكلها بأوامر من الجناب العالى وبمشاركة له محسوسة فى العمل ، وبينما كان الناس ينتظرون أقواله عن سموه إذا هو قد خرج من ذكر نعم الاحتلال على مصر إلى التهكم على أمير البلاد وتقريعه بعبارة مملوءة بالأحقاد وخالية من كل ذوق وأدب !

مضى على الجناب العالى الخديوى جالسا على عرش أجداده العظام خمسة عشر عاما وكسر ، يرأس مجلس النظار ، ويناقش اللورد ، ويجادله فى المشروعات ولا يظهر منها إلا ما يوافق عليه . وكم له من وقفة حالت دون أخطار كبار .

مضى عليه ذلك الأمد الطويل وهو يصدر الأوامر العلية على كل نظامات القضاء والإدارة والمالية ، متوجاً عمل المصلحين الذين يستمدون السلطة الشرعية منه بإمضائه الشريف . مضى عليه ذلك العهد المديد وهو يعلم الناس كيف يتقدمون شأناً ، ويسبقون شأواً فى الأعمال الزراعية والمشروعات الاقتصادية الكبرى ، بإحياء الموات من الأراضى الواسعة واستثمارها ، حتى إنه أحيا جانباً من الصحراء تؤسس اليوم فيها حكومة محلية شاسعة الأطراف . وسيكون لعمله العظيم فى استعمار ما بين مريوط ومرسى مطروح أعظم ذكرى تاريخية . الخ . ولكن جناب اللورد لم يكشف وجود الجناب العالى فى مصر إلا من ذلك الحديث الذى اطلع عليه صدفة فى بعض الصحف الفرنساوية . وما كاد يذكر اسمه الكريم بعد هذا الاكتشاف حتى عيره بالفضائح التى تجرى بين يديه فى ديوان الأوقاف قائلا : إن سموه قادر على أن يبطل هذه الفضائح فى الديوان ، وأن يطهره من الأدران المفسدة للآداب والأخلاق .

ثم طفق الشيخ على يوسف يدافع عن ديوان الأوقاف . إلى أن قال :

ألم يشع قبل عشر سنوات أن أموال الأوقاف تصرف فى سبيل الرسالات السياسية فى أوروبا ، وتعطى منها المرتبات لمصطفى كامل وأضرابه ؟ وقد اتخذ اللورد تلك الإشاعات ذريعة إلى التداخل فى شئون الأوقاف .

ألم يتقرر لنظارة المالية من سنة ١٨٩٥ أن تشرف بسبب تلك الإشاعات على ديوان الأوقاف وتراقب حسابات دخله وخرجه ؟

ألم يمعن النظر ويدقق البحث موظفو نظارة المالية فى دفاتر الأوقاف ويقلبوا أوراقها ظهراً لبطن ، حتى يروا مسوغا لتلك الإشاعات الباطلة

فلم يجدوا شيئاً ؟ ألم تضع نظارة المالية طريقة لضبط حسابات الديوان مورداً ومصرفاً قد جرى عليها العمل بعدذلك إلى الآن تحت مراقبة النظارة وإشرافها ؟ ألم تنسخ الطرق القديمة لحسابات الأوقاف المختلة ، وتستبدل [1] بطرق أخرى من عمل نظارة المالية قد وحدتها بقدر ما يجيز الشرع الشريف توحيدها ؟

فإذا كان الأمر كذلك فى الديوان فما هى إذن تلك الفضائح التى يلوكها اللورد بلسانه ، ويملأ بها ماضيه ؟

وكيف سوغ اللورد لنفسه — وهو رجل شريف مؤدب — أن يقول عن ديوان الأوقاف ما لا يقال أفظع منه عن مواخير الفسق وحانات الفجور لا لسبب غير كون الأوقاف مصلحة إسلامية صرفة ؟

* * *

عيَّر اللورد الجناب العالى الخديوى بأنه لم يعمل شيئاً ما لإصلاح المحاكم الشرعية ، كأنما هذه المحاكم قلم من أقلام الخاصة الخديوية ، مع أنها تابعة لنظارة الحقانية . ولم يعهد أن الجناب العالى وقف فى طريق إصلاح استطاعته وإرادته الحكومة لهذه المحاكم .

أليس أكبر إصلاح فى هذا الباب يأتى من قبيل انتخاب الأشخاص الذين يتولون العمل والقضاء فى المحاكم الشرعية ؟ فهل الجناب العالى الخديوى هو الذى ينتخب القضاة والكتاب ، أم نظارة الحقانية ؟ هل الجناب العالى الخديوى هو واضع لائحة المحاكم الشرعيـــة وتعليمات القضاة والعمال أم تلك النظارة ؟

هل الجناب العالى الخديوى هو الذى يضع درجات القضاة ، ويقرر مرتباتهم بمثل ما يعطى صغار الحجاب فى المحاكم الأخرى ؟ أم تلك النظارة الخاضعة لإرادة المستشار الانكليزى ؟

---

(١) صحتها من الناحية اللغوية : تستبدل بها طرق أخرى . لأن الباء للترك . (المؤلف)

واللورد كرومر عندما ذكر الجناب الخديوى بلسانه عرته حمى الغضب، وانتفخت أوداجه بالأحقاد ، فلفظ من فيه أقوالا لايحسن بمثله، وخصوصا فى مثل موقفه أن يقولها ، حتى دل الناس على مكنونات صدره من هذا الرحيل الذى هو فاعله بالرغم عنه ، ولا بمطلق إرادته !

. ألم يكن عند اللورد أسلوب لتحية الأمة فى شخص أميرها المعظم ألطف من هذا الأسلوب فى وداعه ؟ وهل مثل هذه الكلمات التى لفظها فى آخر موقف له بمصر هى الوصية التى تركها للمصريين ؟ يعلمهم بها كيف يتأدبون فى مخاطبة أولياء الأمور ؟ وأى فرق بين ما قال اللورد عنه الجناب العالى الخديوى وما كان يكتب المقطم فى أسوأ مظاهر وقاحته عنه ؟

لقد حيا اللورد الأمة المصرية هذه التحية المؤلمة التى حصبها بها حصباً ، ثم حياها تحية أخرى موجهة لها بالذات ، ليدلها بها على مستقبلها فقال : (أما الاحتلال الانكليزى فباق فى مصر إلى الأبد) . كأنما اللورد غار من (الزرقاوى) وساءه ما أصاب تنجيمه عنه ، فبزه فى نتيجته أو كأنما هو مصرف الأقدار ، فنطق بما قال واثقا من جبروته وقدرته . وقد غفل عن كون المقادير لا تلق بأعنتها إلى تلك التقارير ؛ فإنها بيد الله القاهر فوق كل قاهر ، والقادر فوق عباده ؛ يصرفها كيف يشاء ، لا كما يشاء اللورد وغضبه وحقده !

توعد الأمة ببقاء الاحتلال خالداً وقال : إن بقاءه يستلزم أن تكون الكلمة العليا له فى مصر . فلا يظنن المصريون أنهم محررون يوما من رق هذا الاحتلال ، ولا يرجون أن يحكموا أنفسهم بأنفسهم فى حال من الأحوال . ثم أنذرها بأنه واقف لها فى انكلترا بالمرصاد يجاهدها ويجادلها !

فأين هذا من دعواه أنه لم يستقل إلا لأن وطأة المرض قد ثقلت عليه؟

وان الأطباء منعوه بتاتاً من العمل حتى ينجو من مخالب الموت الذى يتهدده آنا فآناً ؟ والقارىء لما كتب المقطم — نقلا عن الوكالة الانكليزية — فى بيان أسباب الاستقالة يوم ورد الخبر يخيل له أن الرجل لم يبق بينه وبين حشرجة الموت إلا أن يودع بسلام !

فماله قد وقف أكثر من ثلاثين دقيقة ينزل الصواعق من فمه على مصر والمصريين ، وينذرهم بأنه سيعقد فى انكلترا لخصومه هنا وهناك بالمرصاد ؟

ما باله كان يمشى فى بهو الأوبرا يمينا وشمالا ، كما يمشى الممثل القدير متكبراً متجبراً مختالا غضوبا ، وصوته فى بعض المواضيع يكاد يسقط العرش على الفرش ؟

ماله وهو ينادى بأن الحركة الوطنية الموجودة فى مصر الآن مفتعلة لا تستحق شيئا من العناية والاحترام — يناشد كل الأوروبيين فى مصر ويدعوهم إلى قوة الاتحاد ليقاوموا هذه الحركة ويخفوا صوتها من الوجود؟

ماله وهو يظهر الثقة التامة بخلفه السير غورست يكاد يقيم نفسه عليه وصياً يحذره كل الحذر أن يحيد عن خطته يمنة أو يسرة ، كأنما خلفه سيبقى كواحد من النظار المصريين يحركه كالآلة بين يديه وهو فى انكلترا ، كما كان يحركه وهو فى مصر ؟

ماكان أغنى اللورد عن كل هذا التفاعل الغضبى الذى بدا على كل كلمة قالها فى خطبته ، حتى قد انقلب عن موقفه ، ولسان حاله يقول :

وتجلدى للشامتين أريهمو أنى لريب الدهر لا أتضعضع

فسبحان الذى لا يزول ملكه ، سبحان العلى القهار مقلب الليل والنهار .

(المؤيد فى ٢٤ ربيع الأول سنة ١٣٢٥ — ٧ مايو سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٥٧) .

* * *

صفحة الشكر

فى عنق المؤلف دين يجب أداؤه . ويسره الآن كثيراً أن يؤديه : وهذا الدين هو واجب الشكر يقدمه ـ أولا ـ لحضرة السيدة الجليلة بثينة هانم كريمة المغفور له على (باشا) يوسف ، فقد أطلعته هذه السيدة على طائفة صالحة من الرسائل التى كتبها والدها بخط يده . وكان المؤلف يرجع إليها فى بعض ما يتصل بحياته الخاصة .

ثم إن المؤلف يقدم الشكر بعد ذلك لشيخ محترم هو المرحوم عطية أفندى شلبي . وكان ممن يعملون قديما فى جريدة المؤيد .

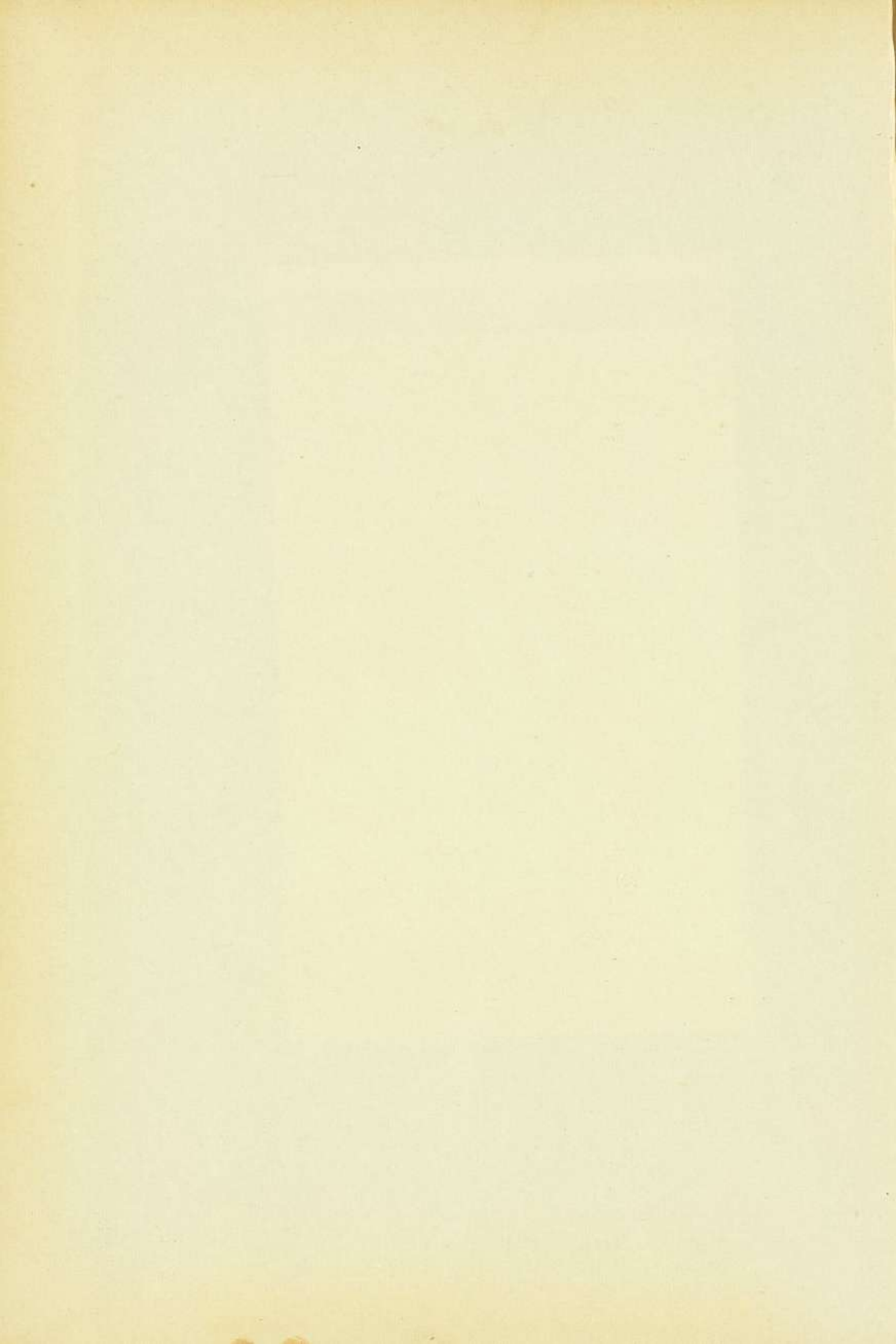
والحق لقد كان هذا الشيخ بمثابة وثيقة حية نظرت إليها على أنها من أهم الوثائق التى يجب الرجوع إليها فيما يتصل بصاحب الترجمة ، أو يتصل بالعصر الذى عاش فيه صاحب الترجمة .

فإلى هذين أكرر شكرى وفاء بما بذلاه معى من جهد .

عبد اللطيف حمزة

محتويات الكتاب

صفحة




COLUMBIA UNIVERSITY
0030186579

